فرح أنطون

قصص ونصوص غير منشورة

(1903 ـ 1906)

بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لوفاته

فرح أنطون

قصص ونصوص غير منشورة

(1903 ـ 1906)

إعداد وتقديم:

أحمد أصفهاني

دار نلسن

- © جميع حقوق التأليف والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلف

- تصميم وإخراج الكتاب: رويدى حامد
- الإشراف والإخراج الفني دار نلسن- لبنان
- طُبع في بيروت – الطبعة الأولى 2022
- هاتف: 01/739196
- البريد الالكتروني: **darnelson@hotmail.com**

المؤسس يوسف سلامة (1925-2000)

شكر وتنويه

أتقدم من السيدتين هدى وماريا فؤاد حداد، حفيدتي روز أنطون ونقولا حداد، بالشكر والتقدير لكل ما قدمتاه من دعم ومساعدة للوصول إلى المجلات والكتب والصور التي مكنتني من إنجاز كتاب "روز أنطون: كاتبة نهضوية مجهولة" (سنة 2018)، وأتاحت لي العثور على كتابات غير معروفة لفرح أنطون، تشكل مادة الكتاب الحالي.

كما أتوجه بشكر خاص إلى الصديق روبير جريديني، زوج السيدة هدى، الذي ساهم بكلفة إصدار الكتابين بدءاً من الحصول على صور للمجلات والوثائق من القاهرة... وانتهاء بطباعتهما في بيروت. له مني كل التقدير.

أحمد

المقدمة

صدر كتابي "روز أنطون: كاتبة نهضوية مجهولة" سنة 2018 ليلقي الضوء على امرأة رائدة في الحقل الصحافي المصري والسوري مطلع القرن الماضي. وكان ذلك ضرورياً لأنها، في حياتها وبعد مماتها، عانت من التعتيم في ظل رجلين عملاقين في الفكر والأدب والإعلام: شقيقها فرح أنطون (1874–1922)، وزوجها نقولا الحداد (1872 – 1954). وقد اعتمدت في دراستي بالدرجة الأولى على أعداد مجلة "السيدات والبنات" في مرحلتها الأولى (الإسكندرية)، ثم مجلة "السيدات والرجال" في مرحلتها الثانية... والأخيرة (القاهرة).

وبينما كنتُ أدقق في محتويات أعداد المرحلة الأولى (1903 – 1906)، تبيّن لي أن فرح أنطون كان المحرر الأبرز في المجلة إذ ساهم بثلاثة مواضيع على الأقل في كل عدد خلال السنة الأولى. ومع أنه لم يوقّع باسمه الصريح، إلا أن إدارة المجلة أوضحت في العدد الأول أن "صاحب الجامعة" (أي فرح) يوقع هكذا (***). وبعد اطلاعي على تلك المساهمات، أدركت أهميتها الكامنة في أمرين أساسيين: أنها تشمل المقال والقصة القصيرة والحوار والترجمات وغالبيتها غير منشورة سابقاً، وأنها جاءت في خضم المعركة الفكرية حول ابن رشد التي نشبت بينه وبين الشيخ محمد عبده (1849 – 1905).

وبمناسبة الذكرى المئوية الأولى لوفاته، وما رافقها من فعاليات ثقافية، يأتي هذا الكتاب كمساهمة متواضعة لاسترجاع نتاج مفكر نهضوي وُصف بأنه

"أبو النهضة الفكرية الحرة ورسول الديموقراطية في الشرق العربي. أديب اجتماعي قبل كل شيء، وفي كل شيء، وداعية للأخوة الإنسانية، وصحفي مجدد، وروائي مبدع، ومؤلف مسرحي من الطبقة الأولى، وكاتب سياسي"[1].

****

في 15 آذار سنة 1899 أصدر فرح أنطون في مدينة الإسكندرية، مطبوعة "الجامعة العثمانية" لتكون "مجلة سياسية أدبية علمية تهذيبية"، كما جاء في ترويسة الصفحة الأولى من العدد الأول (حُذفت كلمة العثمانية ابتداء من العدد الثالث عشر). ومع أن التقديم الذي كتبه أنطون يوضح رسالة "الجامعة"، إلا أن فقرتين أبرزهما صاحب المجلة تحت اسم المطبوعة والتعريف بغايتها تعطيان صورة أدق للأهداف الأبعد التي رسمت مسار كتاباته النهضوية في مطلع القرن العشرين.

الفقرة الأولى من المفكر الفرنسي جان جاك روسو (1712– 1778): "يكون الرجال كما يريد النساء، فإذا أردتم أن يكونوا عظماء وفضلاء، فعلموا النساء ما هي العظمة والفضيلة". أما الثانية فهي من السياسي والمفكر الفرنسي جول سيمون (1814– 1896): "ليست وظيفة المدرسة مقصورة على تعليم العلوم فقط، فإن بث الفضيلة والإقدام من أخص وظائف المدرسة".

وعندما نصل إلى الصفحة الثالثة حيث يعرض أنطون الأبواب الثابتة في المجلة، نجد أن "التربية والتعليم" و"المرأة والعائلة" يحتلان المرتبتين الثانية والثالثة بعد "باب المقالات". الأول منهما "يشتمل على أبحاث في طرق التربية العائلية والتربية المدرسية وفي إصلاحهما، وفي المدارس ووظيفتها والمعلمين وواجباتهم

[1] يوسف أسعد داغر، "مصادر الدراسة الأدبية . الجزء الثاني " – صفحة 147.

وكتب التعليم". ويقول أنطون عن الثاني: "فتحنا هذا الباب لأديبات الشرق ليبحثن فيه ما يكون فيه صلاح حال المرأة الشرقية، وبنيناه على المبدأ الآتي "أساس الهيئة الاجتماعية الأمة، وأساس الأمة العائلة، وأساس العائلة الأم، أي المرأة". ففي إصلاح شأن المرأة إصلاح الهيئة الاجتماعية كلها. تعليم البنات، تدبير المنزل، استقلال المرأة".

أدرك المفكرون النهضويون منذ البداية أن إصلاح المجتمع لا بد وأن يشتمل على ترقية المرأة وتهذيبها وتحسين أوضاعها في الهيئة الاجتماعية. إذ هل يمكن إنهاض المجتمع من "نومه الطويل"، على حد تعبير فرح أنطون، من دون بذل الجهد الكبير لإخراج المرأة من تخلفها وجهلها وعبوديتها؟ وهل يُعقل أن تقتصر خطوات النهوض على الرجل بينما نصفه الآخر المشرف على تربية الجيل الجديد يتخبط في مستنقعات التقاليد البالية؟ وما هي الأساليب المناسبة لترقية أحوال النساء في مجتمع تنظر غالبية رجاله إلى المرأة بوصفها "ناقصة عقل ودين"، وتدعم هذا الرأي مؤسسات دينية وإقطاعية وسياسية مهيمنة على شؤون الناس وشجونهم؟

هذه الأسئلة، وغيرها كثير مما يتفرع عنها، هي التي طرحها مفكرو "عصر النهضة" وكتابها على أنفسهم أولاً وعلى النخب الاجتماعية والثقافية ثانياً، إبتداء من منتصف القرن التاسع عشر حينما تعزز الاحتكاك الجدي بين "الشرق المتخلف" و"الغرب المتقدم". وقد حاول كل واحد منهم الإدلاء بدلوه في هذا الشأن، بعضهم لم يلامس سوى القشور الخارجية لمعضلة المرأة، وبعضهم الآخر غاص في أعماقها محاولاً اكتشاف المعادلات الاجتماعية الصالحة والكفيلة بترقية المجتمعات الشرقية المختلفة.

فرح أنطون ينتمي إلى الفريق الثاني الذي آمن بشمولية النهضة، وبضرورة التصدي الواضح للمعضلات الاجتماعية. وقد عنى ذلك أن المسائل النسائية الخاصة مثل تعليم المرأة وخروجها إلى العمل والزواج المبكر وإباحة الاختلاط وتحديد الطلاق وتعدد الزوجات وإزالة الحجاب وغيرها... كان متوقعاً لها أن تثير بعض الإشكالات لأن دعاة التنوير المبكر في بلاد الشام كانوا من المسيحيين، وبالتالي توجد حساسية مفرطة جداً في تناول موضوعات يعتبر الآخرون أنها "تمس بأصول الدين"! وهذا ما أوضحه الكاتب المصري سلامة موسى (1887 – 1958) بقوله: "لم يستطع يعقوب صرّوف (1852 – 1927) أو فرح أنطون أن يفتحه لي من قبل (أي تحرير المرأة)، فإنهما لم يمسّا هذا الموضوع، أي حرية المرأة، لسبب واضح وهو أنهما مسيحيان. وكانا بالطبع يخشيان أن يُعاب عليهما النقد للعقائد أو التقاليد الإسلامية"[1].

لكن قاسم أمين (1865 – 1908)، من بين كل المفكرين والكتاب النهضويين في تلك المرحلة المبكرة، كان يمتلك الأدوات والصفات والجرأة التي تؤهله لمواجهة المؤسسات الدينية والاجتماعية التقليدية في مصر والعالم العربي بآراء جذرية ثورية حول أوضاع المرأة. فهو مصري، مسلم، قانوني، مثقف بالآداب العربية والفرنسية، وله إلمام واسع بالفنون الجميلة من موسيقى ورسم... وسبق له أن أصدر سنة 1894 كتاب "مصريون" يدافع فيه عن الشعب المصري في وجه انتقادات أجنبية، ثم كتاب "أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ" (سنة 1898) لمناقشة بعض المظاهر الاجتماعية في البلاد. وإنطلاقاً من ذلك كله، فإن أحداً في مصر لا يمكنه أن يشكك في دينه وفي وطنيته!

[1] سلامة موسى، "تربية سلامة موسى". سلامة موسى للنشر . القاهرة 1959. صفحة 81.

ثم جاءت المفاجأة التي هزّت المجتمع المصري على كل المستويات. ففي سنة 1899 أصدر قاسم أمين كتاب "تحرير المرأة"، وهو عنوان صادم يحمل قراراً بالتحدي من خلال ثلاثة موضوعات مترابطة: تربية المرأة وتعليمها، حجابها ووظيفته الاجتماعية، المرأة في غمار الأمة. وللمرة الأولى يضع "مفكر مسلم" مسألة الحجاب تحت مجهر النقاش العام ليس من وجهة نظر مدنية فحسب، وإنما من المنظور الإسلامي أيضاً. وقام فرح بتقديم الكتاب إلى قراء "الجامعة" بحماسة واضحة، مُعرّفاً بأبرز محتوياته. وبذلك شُرّعت الأبواب لحوارات صاخبة أحياناً وهادئة احياناً أخرى، كان لها دور حيوي في جعل قضايا المرأة جزءاً أساسياً من أي نشاط نهضوي في مصر وبلاد الشام.

ويتبين لنا من متابعة الكتابات التنويرية المبكرة منذ مطلع القرن التاسع عشر، أن الحركة النسائية في العالم العربي ارتبطت بالمفاهيم الغربية من حيث الاعتقاد بأن تطور المجتمعات الأوروبية هو الذي أوصل المرأة إلى ما هي عليه من تقدم. ولذلك اعتبر مفكرو "عصر النهضة" من السوريين والمصريين أن على الشعوب الشرقية السير في الاتجاه نفسه، مع الأخذ في الاعتبار خصوصيات المجتمعات المحلية، وبالتحديد الحساسيات الدينية عند بعض التقليديين المتطرفين.

ويصف سلامة موسى تلك المرحلة بقوله: "وفي السنوات الخمس الأولى من هذا القرن (القرن العشرين) كانت الآفاق السياسية والاجتماعية في المجتمع المصري مقصورة على التيارات الجديدة التي أوجدها الشيخ محمد عبده في ضرورة تعميم الروح العصري في الأزهر، وفي دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة وإلغاء الحجاب، ثم في تنبيه الرأي العام إلى مكافحة الإنكليز بقلم مصطفى كامل"

(1874–1908) [1]. لكن هذا الرأي غير دقيق تماماً لأنه يتجاهل شخصيات نهضوية أخرى كانت فاعلة آنذاك من أمثال فرح أنطون وشبلي الشميل (1850 – 1917) والدكتور خليل سعاده (1857– 1934) وجرجي زيدان (1861 – 1914) وغيرهم من النهضويين "الشوام". ويبدو أن موسى كان يعبّر عن مشاعر سلبية تجاه "الشوام المتمصرين"، وهو الذي يقول فيهم: "الصحفيون غير الوطنيين في مصر يعيشون كالملوك "فوق الأحزاب". فهم يتمصرون، ولكن تمصرهم لا يحملهم على الغلو في الوطنية. ولذلك فهم يستفيدون من الوطنية المصرية لأنهم يتحامون ما فيها من غلو"[2].

فرح أنطون و"النهضة"

كُتب الكثير عن حياة فرح أنطون العاصفة والقصيرة، وكذلك عن نشاطاته الصحافية والأدبية والفكرية. وقد أسهب نقاد الأدب ومؤرخو عصر النهضة، قديمهم ومعاصرهم، في تبيان أهميته الفكرية والأدبية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وصفه مارون عبود (1886 – 1962) بأنه "أبو النهضة الفكرية الحديثة في المشرق العربي". في حين قال عنه سلامة موسى: "ولو تتبعنا مكانة فرح أنطون بين معاصريه وقارئي آثاره، فإننا سنجدهم يؤكدون على عظيم ما قدمه في النهضة العربية الحديثة، إلى حد أنه اعتُبر الفاتح لدراسة النهضة

[1] سلامة موسى، "الصحافة حرفة ورسالة"– سلامة موسى للنشر– القاهرة 1963. صفحة 62 – 63.

[2] المرجع السابق، صفحة 6.

الأوروبيـة الحديثـة، وناشـر الأفكـار الديموقراطيـة الحـرة، ومـن أوائـل مـن عرّفـوا بالمذاهب السياسية والاجتماعية الحديثة في المشرق العربي"[1].

ينطلق مشروع فرح أنطون النهضوي من ثنائية "الشرق" و"الغرب". فهو على بيّنة من التناقض الجلي بين نمطي حياة: الأول منهما غارق في الانحطاط والجهل والتعصب، في حين أن الثاني قطع أشواطاً بعيدة في مجالات الرقي والعلم والتسامح. وتمثلت لأنطون منذ بداية تفكيره صورة قاتمة لأوضاعنا الاجتماعية عبّر عنها بكلمات لا مجاملة فيها في أحد أعداد مجلته "الجامعة" حيث يقدم للقارئ: "ما عليه الشرق من سكون الموت وما هو فيه الغرب من حركة الحياة"[2]. وطالما أن "الشرق" لا يريد الأخذ بالعناصر الحيوية المناسبة التي كانت في أساس انطلاق "الغرب" في معارج النهضة، فإن أية محاولة لتغيير العقلية "الشرقية" ستظل محكومة بالفشل الذريع.

ورأى أنطون أن مسؤوليته تجاه وطنه ومجتمعه هي أن يعمل من أجل تحقيق انتقال جذري سريع من "الحالة الشرقية" إلى "الحالة الغربية"، أي الخروج من وضعية "النوم الطويل" على حد تعبيره. وكما فعل كثيرون من المفكرين والكتاب النهضويين الذين سبقوه أو عاصروه، خصوصاً في سوريا ومصر، نظر أنطون إلى أوضاع المرأة في الشرق بوصفها قضية أساسية في مدماك أي مشروع نهضوي حقيقي. ولذلك اختار عبارة جان جاك روسو المذكورة أعلاه ترويسة للغلاف. وفي سبيل هذه الغاية، وغيرها من الأهداف التنويرية المرتبطة بها، وجّه أنطون جهوده نحو أربعة اتجاهات في ما يتعلق بقضية المرأة:

---

[1] ميشال جحا، "فرح أنطون". رياض الريس للكتب والنشر ـ لندن 1998. صفحة 29.

[2] "الجامعة"، عدد 15 حزيران سنة 1899.

أولاً، ترجمة الكتب التي تعنى بهذه الناحية، ومن أبرزها كتاب "يقع في أربعمئة صفحة لجول سيمون تحت عنوان "المرأة في القرن العشرين"، وذلك بإذن خاص من المؤلف"[1]. ونُشرت فصول من هذا الكتاب في "الجامعة" سنة 1899، وأعيد نشر أجزاء أخرى في "السيدات والبنات" بين 1903 و1906. ويركز سيمون في كتاباته على قضايا تحرير المرأة ورعاية الأطفال والتربية الاجتماعية وإصلاح التعليم. ويصف مارون عبود فرح بأنه "أديب اجتماعي (...) لم يكتب كلمة تخالف عقيدته"[2].

ثانياً، تخصيص باب أساسي في "الجامعة" يهتم بأمور المرأة والعائلة.

ثالثاً، تأسيس مجلة نسائية متخصصة تحت عنوان "السيدات والبنات" (1903) كي تحمل أفكاره التنويرية مباشرة إلى الجهة المستهدفة، وقد عهد بأمورها التحريرية إلى شقيقته روز (1882 . 1955).

رابعاً، وضع الروايات الفكرية والاجتماعية التي يستطيع من خلالها بث دعوته بأسلوب قصصي شيق. "فأحرى بالروايات أن يكون غرضها السوسيولوجيا أيضاً، أي البحث في حالات المجتمع البشري لترقيته وإنماء قواته النافعة وإفناء قواته المضرة. والروايات بعد الصحف أو قبلها من أهم ذرائع هذه الترقية. بل هي في الشرق أشد تأثيراً من الصحف في هذا الشأن"[3]. وفي رواياته المتعددة نقف

---

[1] "فرح أنطون: الأعمال الروائية"، تقديم د. أدونيس العكره– دار الطليعة –بيروت 1981. صفحة 7.

[2] "أعلام النهضة الحديثة– الحلقة الأولى"، مُستلة من مجلة الكتاب. دار الحمراء للطباعة والنشر . بيروت 1990. صفحة 179.

[3] "الجامعة"، الجزء الثامن، السنة الخامسة 1906. نقلاً عن كتاب "فرح أنطون"، ميشال جحا. صفحة 180.

على مجمل أفكاره الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية. ويجب أن ننظر إلى نشاطه من ناحيتين: المؤلف والمترجم، وهما شخصيتان متكاملتان لهما غرض تنويري واحد.

كان أنطون شديد التأثر بأفكار الثورة الفرنسية لجهة الدعوة إلى الحرية وحقوق الإنسان والمساواة بين المواطنين بغض النظر عن الدين أو الجنس. وهو لم ينطلق من قواعد سبقه إليها رواد فجر النهضة في سوريا ومصر، بل من أفكار سيمون في ما يتعلق بالمرأة. "وكان منفتحاً على العلم الأوروبي والأفكار الثورية والتحررية التي تدعو إلى رقي المجتمع والأخذ بركاب العلم وتعليم المرأة والتحرر من القيود البالية"[1]. ورأى أن للصحافة وظيفتين: اجتماعية وسياسية[2]. واعتبر أن البيت والمدرسة والصحافة هي أدوات النهوض في الشرق. ومن خلال الصحافة كان يريد الترويج لأفكاره في إصلاح البيت والمدرسة. وشكلت قضايا المرأة والعائلة، بالنسبة إليه، جوهر الوظيفة الاجتماعية.

ويكتب أنطون في مقاله الافتتاحي: "أهم أغراض هذه المجلة ("الجامعة") غرضان مرتبطان متحدان، الواحد أدبي والثاني سياسي. الأول البحث في ما يكون فيه صلاح حال الأمة العثمانية والمصرية أدبياً، والثاني في ما يكون فيه صلاح حالها سياسياً. وكلا الأمرين، في رأينا، منوط بصلاح التربية. أتطلبون هيئة أدبية فاضلة؟ ربّوا المرأة لتربي أبناءها تربية فاضلة، فيكون منهم هيئة اجتماعية فاضلة.

---

[1] "فرح أنطون"، ميشال جحا. صفحة 19.

[2] ـ من دون أن ننسى أن الصحافة في ذلك الوقت كانت عملاً تجارياً مجزياً. ومن أمثلة النجاح آنذاك: الأخوان تقلا، ويعقوب صروف، وفارس نمر، وجرجي زيدان وغيرهم.

أتطلبون هيئة سياسية فاضلة؟ ربّوا المرأة لتضع لكم في نفوس الأمة ذلك الأساس الوطيد الذي يمكنكم أن تبنوا عليه بعد ذلك الفضائل السياسية..."[1].

صحيح أن أنطون يركز في مقاله هذا على التربية ودورها في ترقية حياة المرأة، وبالتالي حياة المجتمع، فتحرير المرأة ينطلق من تعليمها وفق مواد محددة. لكنه في الوقت نفسه يربط الاجتماعي بالسياسي، وإن كان يتجنب الدعوة المباشرة إلى انخراط المرأة في السياسة، ذلك أنه يعتبر أن مكان المرأة الحيوي والفاعل هو بيتها[2]. فالعمل السياسي بالمفهوم المتعارف عليه كان سابقاً لأوانه في تلك الفترة المبكرة، وفي تلك الظروف الاجتماعية المتزمتة. غير أن نظرية الإصلاح السياسي والاجتماعي ظلت عنده "مرهونة بأمر إصلاح المرأة وتعليمها. وفي الواقع فنحن قلما نجد عدداً من جامعته يخلو من بحث حولها"[3]. ولعل أنطون أدرك مع الوقت، خصوصاً بعد مناظرته الشهيرة مع الشيخ محمد عبده والحملة الشرسة التي تعرض لها شخصياً وأصابت "الجامعة" بشظايا قاتلة، أن من الأفضل له ولمشروعه التنويري تجاه المرأة أن تكون هناك مجلة خاصة بالنساء تشرف على تحريرها إمرأة... "فسارع إلى إنشاء مجلة "السيدات والبنات" لأخته روز، حيث تخفّى وراءها، وكتب على صفحاتها صراحة ومداورة كثيراً من المقالات التي تعنى بشأن الأنثى، فتاة أو زوجة أو أماً، متحدثاً عن ضرورتها في التربية والتعليم على صعيد البيت، وعن أهميتها الحياتية على صعيد الحياة الاجتماعية"[4]. وهذا ما

---

[1] "الجامعة"،العدد الأول، 15 آذار سنة 1899.

[2] Donald M. Reid, The Odyssey of Farah Antun. Page 95.

[3] . مارون عيسى الخوري، "في اليقظة العربية: الخطاب السوسيوسياسي عند فرح أنطون". دار جروس برس . طرابلس 1994- صفحة 126.

[4] المرجع السابق، صفحة 127.

أكده مراراً في عدد من المقالات[1]: "جعلنا همّنا منذ أمسكنا القلم في الشرق النداء بهذه الحقيقة البسيطة: نقوا العائلة ورقوا أخلاقها قبل كل شيء فإن هذا هو الإصلاح الحقيقي في الأرض. وإلا فكل المدارس الكلية وكل العلوم الأرضية والسماوية وكل الإصلاحات الزراعية والصناعية والتجارية لا تغني فتيلاً ولا تقدّمنا خطوة واحدة. ذلك لأنها لا تكون قد حصلت بواسطتنا بل بواسطة غيرنا فتكون ثوباً مستعاراً لنا. وتحت هذا الثوب اللامع البراق يكون ما يكون".

"معركة" ابن رشد

حملت مجلة "الجامعة" الأفكار التي آمن أنطون بأنها لازمة للنهوض بالمجتمعات "الشرقية"، وفي مقدمها العلم وأولوية العقل. "وصار فرح أحد ثلاثة زمانه: "المقتطف" للعلم، و"الهلال" للتاريخ، و"الجامعة" للثقافة الشاملة"[2]. وفي حين سعى بعض كتاب تلك الفترة إلى التوفيق بين الحديث والقديم، وبين الإبداع والتقليد، وبين العقل والنقل... كان أنطون حاسماً في تلك المسائل لكن من دون تعصب. وعمد إلى استخدام فن الرواية بهدف إيصال أفكاره إلى أوسع قطاع ممكن. فأصدر بين 1903 و1904 الروايات التالية: "الدين والعلم والمال" (أو المدن الثلاث)، و"الوحش الوحش الوحش" (أو سياحة في أرز لبنان)، و"أورشليم الجديدة" (أو فتح العرب بيت المقدس). ونلفت الانتباه إلى ارتباط زمن صدور تلك الروايات بالمعركة الفكرية التي خاضها مع الشيخ محمد عبده سنة 1902.

في حزيران من تلك السنة، حمل العدد الثامن من السنة الثالثة لمجلة "الجامعة" مقالة مطولة وضعها أنطون حول حياة ابن رشد وفلسفته ومبادئه

---

[1] مجلة "السيدات والبنات"، الجزء 8 . تشرين الثاني 1903.

[2] مارون عبود، نقلاً عن "أعلام النهضة الحديثة– الحلقة الأولى". صفحة 169.

العقلانية، أنهاها بعقد مقارنة بين طبيعة الاضطهاد في النصرانية والإسلام. ووصل إلى خلاصة مفادها أن التسامح في الدين الإسلامي "أصعب" منه في الدين المسيحي[1]. وما كان يدري يومذاك أن هذه المقالة التي أرادها تعريفية تثقيفية ستؤدي من جهة أولى إلى مناظرة فكرية من أرقى المناظرات مع الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في تلك الفترة، ومن جهة ثانية إلى حملة تحريض طالته شخصياً كان وراءها مواطنه الطرابلسي الشيخ محمد رشيد رضا (1865 . 1935) صاحب "المنار" التي حملت ردود عبده[2].

ستة ردود وست إجابات كانت حصيلة المناظرة بين فرح أنطون ومحمد عبده، وأسفرت عن صدور كتابين مهمين: "إبن رشد وفلسفته" لأنطون، و"الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية" لعبده. غير أن الأجواء غير السليمة التي أحاطت بهذه المناظرة أخرجت النقاش عن محوره الفكري الرصين. "... نتيجة هذه الحادثة كانت بالغة السوء على "الجامعة" التي أخذت مئات من أعدادها تُرد إلى إدارتها بلفظة "مرتجعة مع الشكر"، الأمر الذي قلل من نسبة مشتركيها، وبالتالي قزّم من دخلها المادي، فما عادت تقوى على سد نفقاتها الكثيرة"[3]. وكانت موجة الانتقادات ضد فرح متوقعة لأنه "أول كاتب مسيحي يجاهر بالدعوة إلى تأويل علمي للقرآن"[4]. ونتيجة لذلك أعلن توقف "الجامعة" عن الصدور لأنه منكبٌ على تأليف كتاب عن إبن رشد! (صدر الكتاب سنة 1903).

---

[1] "فرح أنطون: المؤلفات الفلسفية". دار الطليعة . بيروت1981. صفحة 9.

[2] شمعون بلاص، "الأدب العربي والتحديث الفكري". منشورات الجمل . ألمانيا 1993. صفحة 16.

[3] مارون عيسى الخوري. مرجع سابق، صفحة 82.

[4] محمد معتوق، "ولادة فكر سعاده القومي". الكتاب القومي – المجلد الأول، تموز 2015.

كانت "الجامعة" تصدر مرّة كل شهرين في سنتها الأولى، ثم أصبحت شهرية في السنة الثانية. ولم تعد منتظمة بعد ذلك (خمسة أعداد سنة 1902، ستة أعداد سنة 1903، عددان فقط سنة 1904). ولا شك في أن المعركة الفكرية مع الشيخ عبده تركت أثراً سلبياً كبيراً على توزيع المجلة. ونحن نعتقد أن قراره بتأسيس مجلة نسائية عائلية استهدف إصابة عدة عصافير بحجر واحد: إيجاد مجال عمل لشقيقته روز، اعتماد منبر جديد للتعويض عن "الجامعة" المحاصرة، بث أفكاره حول المرأة والتعليم، وأن تكون مشروعاً تجارياً. ولذلك أنشأ سنة 1903 مجلة "السيدات والبنات" في الإسكندرية. وكان يكتب فيها باسم مستعار "وكأن الرجل كان يحاول من وراء ذلك استكمال مشروعه الفكري، فبينما هو يلح في "الجامعة" على الشأن السياسي والاجتماعي عامة، تختص مجلة "السيدات" بالجانب النسائي وأهمية تعليم المرأة وتحريرها وتوجيهها بما ينسجم مع دورها البيتي والاجتماعي والإنساني سواء بسواء"[1].

صدر العدد الأول من المطبوعة النسائية في 11 نيسان باسم "مجلة السيدات والبنات". لكنها توقفت عن الصدور في عامها الثاني، ثم عاودت الظهور في عامها الثالث بعنوان "مجلة السيدات". وظلت تصدر حتى سنة 1906. ومن المؤكد أن مشروع إصدار مجلة نسائية عائلية كان من بنات أفكار فرح أنطون الذي، على ما يبدو، أراد مطبوعة مستقلة ذات توجهات تربوية حديثة ترافق مجلته الأساسية "الجامعة". أما سبب تسمية المجلة فنعرفه في العدد السادس (أيلول 1903)، حيث ورد السؤال التالي: "لماذا سميتم المجلة "مجلة السيدات والبنات"، فهل البنات لسن سيدات؟" وكان الجواب: "في اللغة العربية لا توجد كلمة خصوصية للسيدة المتزوجة والإبنة الغير متزوجة، فاصطلحنا في المجلة على

[1] مارون عيسى الخوري، مرجع سابق، صفحة 78.

تسمية المتزوجات "سيدات" إذ لهن منازل يسدن فيها. وأما الغير متزوجات فهن بنات كما يسميهن الناس في كل مكان. وفضلاً عن ذلك فإن المجلة غير مخصصة بالعائلات فقط بل بالمدارس أيضاً. وتلميذات المدارس ينادين دائماً بكلمة "بنات" وهذا سبب التسمية".

وعلى مدى أعداد سنتي الصدور اللتين شكلتا عمر مجلة "السيدات والبنات" بين 1903 و1906 في الإسكندرية (كانت المجلة تغيب لأشهر متتالية في بعض الأحيان)، فإن مصيرها ظل مرتبطاً بمصير مجلة "الجامعة"، تتوقف مؤقتاً عندما تُجبر الظروف السياسية والفكرية "الجامعة" على التوقف لفترة من الزمن، وتغيب نهائياً عندما يقرر فرح أنطون السفر إلى الولايات المتحدة الأميركية كي يجرب حظه الصحافي هناك.

تجربة أميركا

يختلف الباحثون في تحديد الأسباب التي دفعت فرح أنطون لنقل نشاطه الصحافي إلى نيويورك. يقول بعضهم إن الدعوة التي جاءت من أحد أقربائه في أميركا لإعادة إصدار "الجامعة" في نيويورك شكلت خشبة إنقاذ من الأجواء الخانقة التي أخذت تحيط به في مصر. أما وديع فلسطين فيعطي رأياً أخر بقوله: "هناك من اختاروا الهجرة فراراً من منغصات الحياة مثل الأديب فرح أنطون الذي ضاق بملاحقة سيدة من سكان حي شبرا، ولم يجد مفراً منها إلا بالهجرة إلى أميركا"[1]. ومهما كان الدافع الحقيقي، فقد قرر فرح التلبية على الفور، وانتقل إلى نيويورك

[1] وديع فلسطين، "من مقالات وديع فلسطين في الأدب والتراجم". صفحة 77.

سنة 1905 على أن تنضم إليه لاحقاً[1] شقيقته روز وخطيبها نقولا الحداد. وقد صدر العدد الأول من "الجامعة" الشهرية في الأول من تموز سنة 1906. وبعد تسعة أعداد، أعلن أنطون عن إصدار "الجامعة" اليومية في كانون الثاني سنة 1907 بشراكة مع أحد التجار السوريين في نيويورك ليرأس تحريرها الحداد، وتساعده فيها روز، إلا أنها لم تعمّر سوى خمسة أشهر. وهكذا فإن "الجامعة" بصيغها الثلاث الشهرية والأسبوعية واليومية لم تستمر طويلاً، إذ قضت نحبها بالعدد العاشر من السنة السادسة بتاريخ تشرين الثاني سنة 1908.

في هذه الأثناء، كانت أحداث عاصفة تجري في كواليس السلطنة العثمانية. فقد تمت عملية خلع السلطان عبد الحميد (1842 – 1918) في 27 نيسان 1909 بموجب فتوى من شيخ الإسلام في إستنبول، وبُويع أخوه محمد رشاد (1844 – 1918) بالخلافة. فعمد على الفور إلى إطلاق الدستور الذي كان قد سنّه الصدر الأعظم الإصلاحي مدحت باشا (1822 – 1884). وما أن وصلت هذه الأخبار إلى نيويورك، حتى استبشر أنطون خيراً، وأعلن في تموز سنة 1909 أنه قرر العودة إلى مصر ليكون قريباً من قضايا الوطن. وتُعتبر تلك الخطوة اعترافاً غير مباشر بأن المغامرة الصحافية في أميركا قد فشلت فشلاً ذريعاً.

والحقيقة أن وجود فرح أنطون ومطبوعته في الولايات المتحدة لم يكن موضع ترحيب لدى قطاع معين من الجالية السورية، خصوصاً في نيويورك. ونحن لا نعرف بالتفصيل أسباب عدوانية بعض المطبوعات اللهم سوى التنافس المهني، والحسد المرضي. والغريب أن التهجمات وصلت إلى حد التجريح

---

[1] يقول دونالد ريد إن روز ونقولا تزوجا في القاهرة قبل السفر إلى أميركا (صفحة 117 من مرجع سابق)، ويذكر أن فرح لم يكن مرتاحاً في البداية لهذا الزواج لأن نقولا كان قد أصدر كتاباً عن الحب والزواج سبق لمجلة "الجامعة" أن وصفته بأنه مناف للأخلاق.

الشخصي، كما في جريدة "الكون" الصادرة في نيويورك لصاحبها نجيب أنطون صوايا: "فيا فرح أنطون يا حية التين يا شيطان الشقاق ويا رسول السوء ويا منذر بالويل ويا غراب البين ويا بوم الخراب..."[1]. وقد واصلت الجريدة تشهيرها وبذاءتها حتى بعد أن غادر فرح عائداً إلى مصر.

عاد فرح، ومعه شقيقته روز وزوجها نقولا، إلى القاهرة في أواخر صيف 1909. وبدأ على الفور العمل لإحياء "الجامعة"، فأصدر في مطلع كانون الأول سنة 1909 العدد الأول من السنة السابعة للمجلة. ثم أصدر بعد شهر العدد الثاني (كانون الثاني 1910). وبهذين العددين غابت "الجامعة" إلى غير رجعة. ومع أنه واصل النشر في مطبوعات أخرى منها "الجريدة" و"مصر الفتاة" و"المحروسة" و"البلاغ المصري" و"الوطن" و"الأهالي" و"الأهرام" وغيرها، إلا أن ما تبقى من سنوات عمره وظّفه في تأليف المسرحيات والتمثيليات والاستعراضات الغنائية وترجمة أعمال أدبية فرنسية متنوعة.

مجلة للمرأة وللعائلة

عندما توفي فرح في 4 تموز 1922، كتبت مجلة "الهلال" تقول: "إن الجامعة خير آثاره، ونتاجه بعدها دونها قيمة"[2]. يومها ردّت روز أنطون على هذا المقال بقسوة. ولا شك في أن مجلدات "الجامعة" السبعة، والروايات التي أصدرها خلال تلك الفترة (1899 – 1906)، هي مقياس تقييم عطاءات فرح وتحديد مكانته النهضوية المميزة. ويبدو أن نتاجه هذا أتاح لأنطون سعاده (1904–

[1] زودني الدكتور سليم مجاعص بصور لبعض أعداد "الكون" (شباط وحزيران 1909).

[2] "أعلام النهضة الحديثة . الحلقة الأولى". صفحة 171.

1949)، مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه أن يضعه في مصاف رواد النهضة أمثال الدكتور خليل سعاده وجبران خليل جبران (1883 –1931) وفيليب حتي (1886 –1978)... إلخ. يقول سعاده في مقال بعنوان "ذكرى سوريين عظيمين"[1]: "في المقالة الافتتاحية لـ"سورية الجديدة" الصادرة في عددها الأول، ذُكر هذان النابغتان (الدكتور خليل وجبران) وذُكر معهما العلامة المؤرخ فيليب حتي، وحُسب الثلاثة طلائع للنهضة السورية القومية. واليوم نضيف إليهم نابغة رابعاً أظهر التنقيب الجديد أنه يستحق أن يُحسب من طلائع النهضة القومية هو المفكر الاجتماعي فرح أنطون. فهؤلاء الأربعة عملوا مستقلين، ونشروا أبحاثاً تستحق الدرس والعناية نظراً للقيمة الفكرية العالية التي تضمنتها".

لكن معظم الباحثين الذين تناولوا نتاج فرح أنطون في مرحلته "الذهبية"، تجاهلوا دوره الحيوي في مجلة "السيدات والبنات" التي أنشأها سنة 1903 وتولت رئاسة التحرير فيها شقيقته روز. ومع أنهم كانوا يعرفون أن فرح كتب فيها مقالات وقصصاً متنوعة، إلا أنهم لم يتعاملوا معها بما تستحق من اهتمام. ونحن نعتقد بأن ما نشره فرح في هذه المجلة يكشف عن جوانب مختلفة من فكره النهضوي، ويتكامل مع أغراضه الاجتماعية التي عبّر عن جانب منها في "الجامعة". ولذلك نرى أن دراسة دوره في "السيدات والبنات" وما نشره فيها تستحق عناية خاصة نظراً إلى حساسية المجتمع المصري إزاء المسائل التي تضمنتها.

صدر العدد الأول من المجلة باثنتين وثلاثين صفحة. ومن المؤسف أن المجلد المتوافر في دار الكتب الوطنية في القاهرة "خسر" الصفحات الأربع الأولى مع الغلاف من العدد الأول، ولم نتمكن من العثور على هذا العدد في دور الكتب

---

[1] أنطون سعاده، "ذكرى سوريين عظيمين"، "الزوبعة" العدد 19 تاريخ 30 نيسان 1941. "الأعمال الكاملة . الجزء الرابع". صفحة 213.

الأخرى أو مراكز الأبحاث المتخصصة. لكن اعتماداً على العدد الثاني الكامل، نرى أن العنوان جاء على خلفية رسم يصوّر ملاكاً حارساً على شكل امرأة تقود بيدها الحانية طفلاً، وإلى جانب الرسم العبارة التالية: "ملاك الأم يحرس ويرشد النسل البشري في العالم"، ثم يرد القول المشهور "الجنة تحت أقدام الأمهات". وفي صدر الغلاف العبارتان التاليتان: "تُقاس درجة مدنية الأمم من النظر إلى نسائها. فحيثما يكون علو الهمم والإقدام والارتقاء، فهنالك النساء مالكات"، و"إذا أردتم إصلاح الهيئة الاجتماعية فاصلحوا النساء. وبهذا الإصلاح يُصلح الجنس البشري لأنهن مربياته ومدرباته". وتعرّف المجلة نفسها بأنها "مجلة نسائية للعائلات لصاحبتها روزه أنطون".

ومنذ البداية، أوضحت المجلة في عددها الأول أن صاحب "الجامعة" سينشر مقالاته موقعة بثلاثة أنجم (***)، في حين أن بقية المقالات غير الموقعة ستكون بقلم صاحبة "السيدات والبنات". وقد عادت الإدارة لتؤكد هذا الأمر في العدد الرابع (تموز 1903)، حيث نشرت سؤالاً لإحدى القارئات: "ما معنى وضع ثلاثة أنجم تحت بعض المقالات في المجلة؟" وأجابت عليه: "راجعي الجزء الأول تعرفي أن معنى ذلك أن المقالة الموضوعة تحتها ثلاثة أنجم هي بقلم صاحب مجلة "الجامعة" وذلك تمييزاً لها عن المقالات التي تكتبها صاحبة المجلة".

ويبدو أن هذه التساؤلات كانت تخفي شيئاً أبعد يتمثل في شكوك لدى بعض الأوساط الصحافية والأدبية في أن تكون روز هي بالفعل كاتبة تلك المقالات بوجود شقيقها فرح ذي الباع الطويل في العمل الصحافي! ولذلك نجد هذا الأخير يكتب في العدد الخامس (آب 1903) في باب "النساء المظلومات" حواراً بين عدد من النسوة يرّد من خلاله على تلك التقولات. وهو يضع على لسان إحدى السيدات العبارات التالية: "والكلام بيني وبينك أنني سمعتها وأنا داخلة تقول

لصاحب "الجامعة" شقيقها: بما أن من لا يعرفني يقول إنك أنت الذي تحرر مجلة "السيدات" كما تحرر "الجامعة"، فالأوفق أن نجعلهم صادقين وأتنازل أنا عما أجده من العناء في تدبير المواد وكتابتها".

ثم يعطينا فرح في هذا المقال صورة عن آلية العمل كما رأتها السيدة ذاتها: "قلت: فاستنار فكري هنيهة أيتها العزيزة كليمة، وذكرت حادثاً صغيراً حدث في إدارة "الجامعة" منذ مدة. فقد كنت هنالك مع صديق لمنشئ "الجامعة" من سوريا. وكان الصديق يقرأ على مقعد وصاحب "الجامعة" يصلح على مائدته بضع أوراق في يده. ولما فرغ من ذلك التفت إلى صديقه وقال له: أنظر هذه الأوراق قبل أن أدفعها إلى مرتبي الحروف. هذه "أصول" مجلة "السيدات والبنات". وقد كتبتها صاحبتها بقلم رصاصي وأنا أمررت عليها الآن قلمي بحبر أحمر. فخذ وقلبها لتعلم مقدار التصرف الطفيف الذي يُتصرف بها. فتناولت أنا الأوراق الممدودة نحونا، فوقعت يدي على صفحة نُشرت في الجزء الرابع عنوانها "الأطفال وتربيتهم الجسدية – الشهر الرابع" فما وجدت فيها سطراً محذوفاً ولا سطراً مضافاً، وإنما هنا كلمة مغيّرة وهناك كلمة محذوفة أو مضافة".

ويضيف صاحب "الجامعة": "إن صاحبة المجلة تتعب في تحرير مجلتها تعبي في تحرير "الجامعة"، فهي في كل يوم تصرف أكثر أوقاتها في مطالعة الكتب والمجلات الإنكليزية والأميركية التي تردها. وقد طالعت في أسبوع واحد عشرين مجلة مختلفة تختار منها المجلات التي يجب أن تعتمد عليها. وفي أثناء مطالعتها هذه تضع علامات بقلم رصاص على أهم المواضيع التي تعثر عليها. ثم تأخذ أبواب المجلة باباً باباً وتشرع في الكتابة لها. وكلما فرغت من باب تناولت باباً، فلا يأتي العشرون من الشهر حتى تجتمع عندها مجموعة مقالات وفصول وشذرات. وهي مواد الجزء القادم. فأتناولها منها قبل انتهاء الشهر ببضعة أيام.

وبعد أن أمر عليها القلم كما ترى أدفعها لمرتبي الحروف. فليس ثمت مجال لسوء الظن والمزاح الذي لا محل له في شأن كهذا الشأن، لأنني لست من الذين يرضون الرياء لأنفسهم فكيف لأكرم الناس عليهم. ولا صاحبة المجلة تجيز لها نفسها أن ترضى بهذه المنزلة".

ويعود فرح إلى الموضوع ذاته في العدد السابع من السنة الثانية (أيار 1906) ليقول تحت عنوان "عودة مجلة السيدات" في بيان إلى القارئات والقراء قبيل سفره إلى نيويورك: "وإذا كان أحد يخسر في هذا الانتقال فهو أنا. ولست أريد بذلك أنني أفقد الوطن والأهل والخلان فقد تكلمت عن خسارتي هذه بأسف وكآبة في المنشور الملحق بهذا الجزء. وإنما خسارتي التي أريد أن أشير إليها هنا في صدد مجلة السيدات هي فراق شقيقتي صاحبة المجلة.

"أن بعض ذوي الصحف والألسنة المازحة الذين لا يعرفون صاحبة المجلة ضايقوها في المدة الماضية بإشارتهم تلميحاً أو تصريحاً إلى أنني أنا الذي أتولى تحرير المجلة برمتها وأن صاحبتها ليس لها شيء فيها غير الاسم كما كان ذلك لبعض من تقدمنها من الكاتبات العربيات. وقد كانت هذه التهمة تؤلمها في بدء الأمر ثم تعودت عليها. فنعم أنا أساعدها في ترتيب المواد وتنقيحها وكتابة الفصول الموقعة بهذه العلامة (***) أي ثلاثة أنجم كما تعلم قارئات هذه المجلة. ولكن الذين يذكرون مساعدتي هذه لها لا يعلمون أنني مديون لها بمساعدة إن لم تكن أكثر منها فمثلها. فليعلموا الآن أنني لم أطبع سطراً حتى الآن في "الجامعة" وكتبها إلا بعد أن أطلعت هي عليه ونظرت فيه. وكم من مرة في المناظرات الصعبة والمواقف النحيفة غيّرت عزمي من شيء إلى شيء"! إذن نحن أمام جهد مشترك في إصدار المجلة.

ويبدو أن روز كانت على دراية بذلك الواقع المؤلم، إذ نراها بعد سنوات تقول في محاضرة بعنوان "تأثير الأم في تربية الأولاد": "حتى إذا عملت المرأة عملاً خارجاً عن دائرة اختصاصها نسبوه للرجل لا لها. فإذا كتبت أو ألفت أو نظمت قالوا الرجل هو الذي كتب وألف ونظم (...) وكم كان هذا سبباً ليأس النساء في شرقنا، مع أن النجاح في فنون الكتابة والإنشاء والنظم إلى غير ذلك ميسور للمرأة كما هو ميسور للرجل على السواء". (مجلة "السيدات والرجال"، العدد السابع، السنة السادسة، أيار 1925).

ابتداء من العدد الأول، نجد باباً ثابتاً تحت عنوان "النساء المظلومات" كتب الحلقة الأولى منه فرح بتوقيع (***)، وقد استعار شخصية إحدى السيدات لمخاطبة صديقة متزوجة حديثاً. ومن خلال التنصّت على حديث السيدة المتزوجة، والرسالة الموجهة لها من صديقتها، نتلمس بوضوح أهداف الأخوين أنطون من مجلتهما. تقول السيدة المتزوجة : "نحن البنات أيتها الرفيقة ندرس في المدارس التاريخ والجوغرافيا ويحشون ذاكرتنا بأسماء البلدان في كل مكان، ولكنا لا ندرس فن تربية الأولاد ولا علم أخلاق الرجال. إسمعي جيداً أيتها العزيزة، إننا ندرس الصرف والنحو وأحياناً الشعر، ولكننا لا ندرس صناعة تدبير المنزل والمطبخ والمائدة. واسمعي أيضاً: إننا ندرس الفرنسوية والإنكليزية والإيطالية وحتى اللاتينية، ولكننا لا نُحث على الرياضة الجسدية ولا ندرس علم حفظ الصحة الذي هو من المبادئ الأولية التي تحتاجها أم العائلة".

ويختم فرح رسالته المقنعّة باقتراح "دواء" لما تشكو منه السيدة المتزوجة، فيكتب قائلاً: "وهذا الدواء هو إنشاء مدرسة مخصوصة لتعليم ما يجب معرفته على كل فتاة. ويكون في هذه المدرسة الطبخ وتربية الأولاد الأدبية والجسدية ودرس أخلاق الرجال وإدارة شؤون المنزل وتنبيه عاطفة الإحسان في نفس الفتاة،

وتدبير الصحة وترويض الجسم أتم ترويض، وتعليم مبادئ الكيمياء المنزلية والاقتصاد في النفقة، وتحبيب العمل إلى الفتاة والشغل اليدوي والتصوير وشيء من الموسيقى . مقدمة على كل شيء سواها من الدروس. ولا ريب أن مدرستك هذه تخدم الشرق أنفع خدمة لأنها تكون مثالاً لمدارسه وتفيد بنات جنسك أكبر فائدة".

لكن بعد أن كانت "مجلة نسائية للعائلات والمعلمين والمعلمات" في سنتها الأولى، نجد أنها باشرت سنتها الثانية بأن "أصبحت مجلة نسائية عائلية علمية أدبية فكاهية" (تشرين الثاني 1904). وهذا ما يؤشر إلى تبدل طفيف في رسالتها التحريرية، سنلاحظه في طبيعة المواد التي تنشرها.

حافظت المجلة على وتيرة صدورها المنتظم حتى العدد التاسع (كانون الأول 1903) عندما تأخرت عن موعدها لأسباب أشارت إليها الإدارة في النص التالي: "سبب تأخير هذا الجزء . قبل صدور هذا الجزء نشرنا إعلاناً أظهرنا فيه سبب تأخير هذا الجزء ووضعنا هنا في طيه نسخة أخرى منه. وقد سرنا أن الكريمات من القارئات والكرام من القراء . وكلهم كريمات وكرام . قد قبلوا عذر المجلة في انتظارها هذه المدة لبينما انتهى تأسيس مطبعة الجامعة التي تصدر الآن فيها". والحقيقة أن هذا التأخير مرتبط بما كان يجري في مجلة "الجامعة"، إذ جاء في إعلان آخر ظهر في أعلى الصفحة ذاتها: "مطبعة الجامعة . أنشأتها حديثاً (إدارة مجلة الجامعة) وجمعت فيها كل ما يلزم من الآلات الكبيرة والحروف المتنوعة العربية والإفرنجية والنقوش والمعدات. وهي تطبع بغاية الاتقان وبأسعار معتدلة كل ما يُطلب من المطبوعات التجارية والكتب والجرائد والمجلات باتقان ونظافة".

ويبدو أن المرحلة الانتقالية هذه، ومصاعب أخرى عانتها مجلة "الجامعة" آنذاك، تركت آثاراً سلبية على مواعيد صدور "السيدات والبنات". فابتداء من العدد

التاسع، غاب عن ترويسة الصفحة الأولى تاريخ الصدور، وتم الاكتفاء بذكر رقم الجزء (العدد) والسنة فقط. وترافق ذلك مع تراجع ملحوظ في مساهمات فرح في المجلة سواء من حيث الكم أو من حيث النوع. فقد كان يخص الأعداد الأولى من "السيدات والبنات" بالعديد من القصص الموضوعة، في حين نراه في العددين الحادي عشر والثاني عشر ينشر ملخصات لعملين روائيين له منشورين سابقاً هما "أورشليم الجديدة" و"بولس وفرجيني". واكتفى كذلك بنشر ترجمات موجزة لـ "أخبار نساء الغرب"، وملخصات لـ "نساء العرب وأخبارهن"...

والظاهر أن المصاعب المالية والسياسية التي أحاطت بمجلة "الجامعة" آنذاك، تركت تأثيرات سلبية على شقيقتها "السيدات والبنات". فقد صدر العدد الرابع (السنة الثانية، شباط 1905) بأربع وعشرين صفحة. ولجأت المجلة للمرة الأولى إلى نقل قصة مترجمة (عروسة بدون عريس لمكسيم غوركي) عن جريدة "المناظر". وتواصل التراجع في العدد التالي، إذ نشر فرح على تسع صفحات ترجمته لقصة "ماري في الآستانة" للمستشرق شلمبرغر. وتضمن العدد كذلك موضوع "تعليم البنات في مصر" نقلاً عن تقرير اللورد كرومر. ثم عادت المجلة إلى اثنتين وثلاثين صفحة في العدد السادس (السنة الثانية)، ونشرت في صفحتها الأولى ترجمة كتاب "المرأة في القرن العشرين" للفيلسوف الفرنسي جول سيمون. والجدير بالذكر أن هذا الكتاب كان من بواكير ما ترجمه فرح "في صباه".

ومع أن "السيدات والبنات" استعادت حجمها المعتاد في العدد السادس (السنة الثانية) إلا أن ذلك كان إنتفاضة مؤقتة، إذ أنها توقفت بعد ذلك عن الصدور لمدة سنة تقريباً لتعود بالعدد السابع (السنة الثانية) في أيار سنة 1906. وقد وزّع فرح مع هذا العدد منشوراً شرح فيه سبب انقطاع "الجامعة" طيلة سنة 1905. كما كتب مقدمة موجهة "إلى حضرات قارئات مجلة السيدات في مصر

وخارج مصر" قال فيها: "ذهبت مجلة "السيدات" في أثناء هذه المدة في تيار "الجامعة"، فكم من مرّة رامت صاحبة المجلة إعادة إصدارها وأنا أرجو منها أن تؤجل ذلك لسببين: الأول خوفي من غضب قراء "الجامعة" متى رأوا صدور مجلة "السيدات" وانقطاع مجلتهم. ولذلك قلت لها إنني لا أحرك ساكناً في مجلة "السيدات" قبل أن تتحرك "الجامعة". والغرض الثاني هو أنني كنت مستاء من انقطاع "الجامعة" ولا عزيمة عندي ولا صبر على التفكير بغيره. أما الآن وقد تأهبت "الجامعة" إلى الظهور أشد عضداً وأرفع صوتاً مما كانت من قبل، فإن مجلة "السيدات" تعود إلى قارئاتها الكريمات وقرائها الكرام أشد عضداً وأرفع صوتاً أيضاً".

وأوردت المجلة في أسفل صفحتها الأخيرة التنويه التالي: "فرغنا الآن من أمر "الجامعة" (قرار الانتقال إلى نيويورك)، أما مجلة "السيدات" فإنها تبقى الآن في مصر لبقاء صاحبتها فيها. وسيصدر الجزء الأول منها بعد 20 يوماً من صدور هذا المنشور لأنها الآن تحت الطبع. وإدارتها ومراسلاتها ووكلاؤها في مصر وخارج مصر ما زالوا كما كانوا دون أن يغيّر فيها شيئاً انتقال شقيقتها "الجامعة" من الإسكندرية إلى نيويورك. وصاحب "الجامعة" الذي تعب مع صاحبة المجلة في غرس تلك الشجرة اللطيفة سيوالي رسائله ومقالاته إليها من نيويورك في كل جزء من أجزائها".

لكن أبرز ما في هذه المرحلة أننا بتنا أمام كاتب جديد في "السيدات والبنات". وقد نشرت المجلة التوضيح التالي: "كل ما ينشر بغير قلم صاحبة المجلة يمضي بإمضاء. أما صاحب "الجامعة" فيمضي هكذا (***) وكاتب آخر يمضي هكذا (...)". ومن المؤكد أن هذا المحرر هو نقولا حداد الذي أصبح في تلك المرحلة جزءاً أساسياً من حياة المجلة وحياة صاحبتها، وقد ساهم بفعالية في

مواصلة إصدار "السيدات والبنات" بعد أن غادر فرح مصر قاصداً الولايات المتحدة الأميركية.

وسارت الأمور على هذا المنوال حتى العدد الثاني عشر (أيلول 1906) الذي ختم السنة الثانية من عمر "السيدات والبنات". وفي هذه المناسبة، نشرت المجلة إعلاناً تحت عنوان "ختام السنة الثانية" قالت فيه: "انتهت والحمد لله سنة المجلة الثانية. وما كتبه إلينا بعض القراء والقارئات وبعض الصحافيين من رسائل الاستحسان والتنشيط دلنا على أنها أحسنت خدمتها وأصابت الغرض الذي ترمي إليه في نشر المبادئ القويمة والتعاليم النافعة بشأن الجنس اللطيف". وأضافت تقول تحت عنوان فرعي عن "تحسين المجلة في سنتها الثالثة": "تنتقل الآن المجلة من طور الطفولية إلى عهد الصبوة واستقبال الشبيبة. ولذلك يطمع القراء أن يروها في سنتها الثالثة أكبر بدناً وأسمى فكراً، ولذلك نعدهم أنها ستظهر إن شاء الله زائدة ثماني صفحات. وستفتح أبواباً نسائية جديدة وتلتفت بالأكثر إلى المواضيع العملية وتقلل من المباحث النظرية لكي تكون إفادتها محسوسة. ولا تدخر جهداً في وضع بعض الرسوم عند الاقتضاء تزييناً لها. ثم أنها لا تضن بتحسين ورقها وطبعها وزخرفته بحيث تكون شهية لعيون القارئات والقراء. وبالإجمال ستظهر بعون الله بثوب قشيب بهيج".

لكن هذه الأفكار الطموحة لم ترَ النور. فقد حزمت روز ونقولا حقائبهما ملتحقين بفرح في نيويورك لمعاونته في مشروع إصدار مجلة "الجامعة" أولاً، ثم جريدة "الجامعة" اليومية ثانياً. وقد ذكرنا أعلاه أن المغامرة الأميركية فشلت فشلاً ذريعاً. وعندما عاد الثلاثة إلى القاهرة، ابتعد نقولا وروز عن العمل الصحافي مؤقتاً، في حين حاول فرح أن يحيي "الجامعة" مجدداً... غير أنها لفظت أنفاسها الأخيرة بعددها الصادر في كانون الثاني 1910.

رسالة واحدة وأساليب متنوعة

حاول فرح أنطون أن يوازن في مجلة "السيدات والبنات" بين رسالته الاجتماعية التغييرية من جهة وإعطاء القراء (أناثاً وذكوراً) ما يتوقعونه من جهة أخرى. ولذلك نلاحظ في المقالات والقصص والأخبار التي نشرها جانبين متكاملين في شخصيته المهنية: فهو الصحافي القادر على تقديم مواد جذابة لقطاع واسع من القراء، وفي الوقت نفسه تمرير أفكاره المناسبة لترقية المجتمع من خلال تعليم المرأة وتهذيبها. ولتحقيق هذه الأهداف، اعتمد على تشكيلة من الأساليب الأدبية، كل واحد منها يتناسب مع المسألة المطروحة. والغاية المركزية أن تحمل المجلة الممتع والمفيد، على أمل أن تُسهم في مهمة التغيير.

وتظهر بصمات فرح في معظم أبواب المجلة: النساء المظلومات، نساء الشرق، أخبار نساء الغرب، أشهر النساء، القصص القصيرة، النوادر... لكنه تطرق أيضاً إلى موضوعات "غير نسائية". إذا جاز التعبير . وإن كانت تصب في السياق المجتمعي الأوسع: المطالعة المفيدة، أسلحة الحياة . قوة المقاومة، المدارس التي نحتاج إليها، مسألة السوريين في أميركا، السوريون في مصر، وغيرها. وإلى جانب تلك الأبواب الثابتة، قدّم فرح للمجلة ترجمات عديدة خصوصاً من الأدب الفرنسي. ويلفت النظر في هذا الشأن أن بعضها سبق وأن نشر في مجلة "الجامعة".

ويستحق باب "النساء المظلومات" وقفة متأنية، لأن فرح يتلبس فيه شخصية امرأة تخاطب صديقاتها وقريباتها، وتناقش معهن مسائل الزينة والرقص والملابس والدوطة (المهر) ومعاشرة الشبان والخطوبة والزواج والعمل والدراسة...

إلخ. وقد حقق هذا القسم نجاحاً ملحوظاً، ذلك أن فرح إستند إلى خبرته الروائية فتحولت الرسائل والحوارات إلى نصوص قصصية مشوّقة.

لا شك في أن غرض وجود بعض أبواب المجلة يقتصر على التسلية والترفيه، في حين أن بعضها الآخر يتضمن رسائل تثقيفية بطريقة غير مباشرة. وإذا أخذنا أبواب "نساء الغرب ونساء الشرق وأشهر النساء"، فسوف نقرأ فيها معلومات عامة اختارها فرح ليعرّفنا إلى شخصيات نسائية مميزة، في حين أن هدفه الأبعد هو تشجيع النساء في العالم العربي على اتخاذ تجارب هاتيك النسوة كنماذج تُحتذى.

ولم تستطع مشاغل فرح التأسيسية في مجلة "السيدات والبنات" من تحييد تداعيات المعركة الفكرية مع الشيخ محمد عبده وتأثيراتها عليه. فنراه يعود إلى الموضوع مداورة: "كثيراً ما سمعنا أن الناس قد سئموا مناظرات الجرائد لانقلاب هذه المناظرات إلى مهاترات في أكثر الأحيان. ولذلك يرمون الصحف الشرقية بأنها منفردة في هذا السبيل. وهذا خطأ وظلم لأن المناظرات والمزاحمات بين الجرائد عامة في كل البلاد التي فيها جرائد. إنما يختلف في الغرب أسلوب مناظراتهم عن أسلوب الشرق"[1]. لكنه يستدرك في العدد الذي يليه، عندما يكتب مقالاً بعنوان "المدارس التي نحتاج إليها"، فيقول: "إن إدارة هذه الكليات الصغيرة تُلقى مثلاً إلى رجل قادر كالأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية"[2].

بذل فرح جهوداً جبارة لتثبيت وضع "السيدات والبنات" في سنتها الأولى، وأسبغ عليها الكثير من شخصيته وأفكاره. ومن الصعب أن لا ننظر إلى هذه

---

[1] مجلة "السيدات والبنات"، الجزء السابع . تشرين الأول 1903.

[2] المرجع السابق، الجزء الثامن . تشرين الثاني 1903.

المجلة كرديف متنوع لمجلة "الجامعة". فالقاسم المشترك بينهما هو فرح أنطون بمشروعه النهضوي الذي أخذ يترنح آنذاك تحت وقع هجمات التيارات التقليدية. لعله رأى في "السيدات والبنات" نافذة مفتوحة إلى قلب المجتمع وعقله، فأعطاها كل ما يستطيع قبل أن تدفعه الظروف نحو القارة الأميركية. وهذا ما أكدته روز أنطون عندما وصفت تأثير شقيقها في حياتها بالعبارات التالية التي سجلتها في العدد التذكاري الخاص بتأبين فرح، والذي أصدرته مجلة "السيدات والرجال" في أيلول سنة 1923:

"وكان الأخ العزيز القدوة الصالحة لي والمرشد الحكيم والمعلم الصادق. فقد درست عليه أكثر مما درست في مدرستي، وتعلمت منه مبادئ وآداباً أكثر مما تعلمت في مدرسة الاختبار، وقد كسبت منه أخلاقاً وفضائل أكثر مما كسبت من سائر أهلي لأني بعد خروجي من المدرسة لم يكن غيره عشيري وسميري. فكل أدب أزدان به الآن كان منه وكل خلق أتحلى به كان مقتبساً من أخلاقه. وكل علم أعلمه كان من بحر علمه. وإذا أحسنت عملاً فالفضل فيه له. وقد كان لي في عواطفه مرآة الحب الصادق الطاهر. ومن روحه تشع في قلبي أشعة هذا الحب".

تمهيد

تعامل فرح أنطون مع مجلة "السيدات والبنات" في مرحلتها الأولى بين 1903 و1906 باعتبارها فترة انتقالية بين حدثين مفصليين في حياته المهنية والفكرية. الحدث الأول ما عُرف بـ "معركة ابن رشد" التي خاضها ببراعة وشجاعة بوجه الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية حينذاك، إلا أن الثمن الباهظ الذي دفعه نتيجة تلك المواجهة كاد أن يُنهي مجلته "الجامعة". والحدث الثاني، المتأثر إلى حد بعيد بتداعيات الحدث الأول، كان قرار الانتقال إلى الولايات المتحدة الأميركية لإصدار "الجامعة" من نيويورك.

لذلك فإن المقالات والقصص والترجمات التي عثرنا عليها في "السيدات والبنات" تحمل طابع الفترة الانتقالية، من حيث أنها تحاول الدمج بين الجدية في تناول المسائل الاجتماعية من جهة والترفيه والتسلية من جهة أخرى. ولذلك فإن تقييم نتاجات فرح المنشورة هنا يجب أن يأخذ في الاعتبار الظروف التي أحاطت به بعد "معركة ابن رشد". إضافة إلى ضرورة إرضاء الجمهور الذي تتوجه إليه المجلة، وهو يتكون إجمالاً من نساء الطبقة المتوسطة خصوصاً بين الجاليات الأجنبية في مدينة الإسكندرية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

أما الجالية الشامية فقد توزعت في أنحاء المدينة، واستقرت الطبقات الميسورة في ضاحية "نص البلد" أو في أحياء "الرمل"[1]. وسنلاحظ في مقالات

[1] فارس يواكيم، "الأسراب الشامية في السماء المصرية". دار ميريت، القاهرة 2022. صفحة 19.

فـرح إشـارات عـدة إلـى "الرمـل" حيـث تـدور حـوارات النسـاء اللـواتي يـتكلم فـرح بألسنتهن.

خلال السنة الأولى من عمر "السيدات والبنات" (1903 . 1904) انغمس فرح في شؤون المجلة بشكل كامل. ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا إنه رسّخ بصماته في أقسامها المختلفة. ويخرج القارئ بانطباع قوي أن فرح كان يخوض التحدي الكبير في تحويل المجلة إلى منبر متمايز يقف إلى جانب "الجامعة" المحاصرة. ولعله أراد الابتعاد عن النقاش الديني والسياسي الذي أوصله إلى حافة الهاوية، فانتقل إلى مسائل التربية والتعليم والسلوكيات الاجتماعية. ومع ذلك لم يتخلَ فرح عن قناعته الثابتة في حرية الفكر مهما كانت الظروف.

كتب فرح للمجلة بغزارة في السنة الأولى، معدل ثلاثة مقالات في كل عدد. وكما ورد معنا في سياق البحث، كان يوقع بثلاثة أنجم (***) أو "صاحب الجامعة". وقد أخذ في اعتباره أنه يخاطب شريحة معينة من القارئات والقراء، فسعى إلى نوع من التوازن بين الأهداف الاجتماعية التي يريد الدعوة إليها وبين الأهمية المهنية لإنجاح المجلة تجارياً.

يتجاوز عدد المقالات المنشورة هنا الثلاثين مادة ما بين قصص موضوعة أو مترجمة، ومقالات فكرية واجتماعية، وحوارات نسائية. وقد قسمناها على الشكل التالي: فكر، أدب، نسائيات، قصص، مجتمع، ومشاكل مهنية تتعلق بـ"الجامعة" و"السيدات والبنات". كما نعيد نشر كلمة تأبين ألقاها محمد لطفي جمعة في مأتم فرح (تموز 1922). وهي أشبه ما تكون بعرض سريع لسيرة حياة فرح من صديق لازمه معظم حياته.

يتفق معظم الذين تناولوا حياة فرح أنطون أن سنواته الأخيرة كانت صراعاً يومياً لتأمين لقمة العيش، وذلك على حساب عطاءاته الفكرية التي وصلت ذروتها مع "الجامعة". ويعطينا عباس محمود العقاد[1] صورة محزنة عمّا بلغه فرح في تلك الفترة: "... ثم تقلبت به صروف، وألمت به محن، وتجرع من مرارة الخيبة مراراً. وطُلب إليه، وهو بين الأسى والرجاء، أن يترجم أو يكتب للمسرح فلبى. وبدأ بداءة حسنة، ولكن لم يحقق بغيته ولم يصنع شيئاً يليق به أو يُضاف إلى محاسنه". ويتابع العقاد قائلاً إنه لم يجد في تلك الأعمال "أثراً لفرح أنطون الذي نعرفه، ولا علامة على ملكته السامية ومكانته الأدبية".

لذلك فإن مقالات فرح التي نعيد نشرها تُشكل جسراً يربط ما بين المرحلة الذهبية (1899 –1902) ومرحلة الأفول (1910 – 1922)... وقراءتها يجب أن تتم على هذا الأساس.

[1] عباس محمود العقاد، "رجال عرفتهم". كتاب الهلال، تشرين الأول 1963. صفحة 206.

كلمة الوداع الأخير

دمعة على قبر

إنني أحاول الكلام منذ برهة ولا أستطيع. ولا غرابة إذا ارتجّ عليّ وتبلبل لساني لدى هذا الموقف الرهيب. فإنني الآن فريسة لانفعالات نفسية لا أستطيع مقاومتها ولا أقدر أن أسبر غورها. فإن نفسي لم تكن تحدثني في أشدّ أوقاتها انقباضاً وألماً إنني سأقف هذا الموقف الأليم راثياً ومؤبناً هذا الأخ الصديق والرفيق القديم. إنكم الآن لا ترون إلا جثة هامدة وجسداً بالياً ولكنني أنا أعرف قدر النفس العالية والقلب الكبير والعقل الراجح التي كان هذا الجسد الفاني وعاءً وغلافاً لها. إنني لا أستطيع أن أتخيّله ميتاً حتى حيال هذه الحقيقة الواقعة لأن حياته كانت في فكري قوية وخالدة. بل إن هذا الفكر جاء لعقلي من اعتقاد راسخ وهو أن ذلك الراقد أمامكم من الموتى الذين لا يموتون ولو ماتوا! إنه يموت موت الجسد ولكنه يحيى حياة الروح والعقل. ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن حياته الحقيقية قد تبتدئ بعد الموت!

يا أخي وعزيزي وصديقي فرح! بأي لسان أرثيك ومن أية جهة أبدأ الكلام فيك؟ أفي تاريخ حياتك وهو صحيفة ناصعة البياض كتبت فيها أسطراً لامعة بجدّ السنين وجهاد الليالي والأيام؟ أم أتكلم في خلقك وخلالك الطيبة وقلبك الكريم؟ أم

في ثمرات فكرك التي غرست بذورها وتعهدتها في زرعها ونشرتها مع الرياح ليستفيد منها الشرق والعالم العربي أجمع؟

لقد عرفتك منذ عشرين عاماً، وما أنسى لا أنسى تلك الساعة الباقية في ذهني التي قضيتها في محادثتك لأول مرة في بيتك في رمل الإسكندرية. لقد سافرت من القاهرة لأجل زيارتك ولم يكن لي في الإسكندرية غرض آخر – نعم أنها مسقط رأسي وبها أهلي وعشيرتي. ولكنني قصدتك قبل أن أقصدهم وزرتك قبل أن أزورهم وفرحت بلقائك قبل أن أفرح بلقائهم. وشعرت وأنا إذ ذاك في عنفوان الفتوة أنك أنت أقرب إليّ منهم لأن العقل والقلب هما القوتان المحركتان في العالم. والعلاقة التي تربط الرجال بعقولهم وقلوبهم أقوى ألف مرة من علاقة الدم والقرابة. إن علاقة الدم والقرابة قد تأتي مصادفة وعرضاً ولكن علاقة الصداقة تكون دائماً مقصودة ومنوية. تأتي دائماً بعد البحث والتنقيب، فهي لا تنفصم عروتها ولا تؤثر فيها العوامل الخارجية. إن علاقة القرابة والدم قد تصحبها أغراض ومطالب مادية وتقربها أسباب تحوم حول المنفعة. ولكن علاقة العقل والقلب تكون دائماً خالية الغرض لا تشوبها غاية مادية ولا غرض نفعي. من هذا النوع كانت صداقتنا ولأجل هذا السبب عاشت ودامت وأينعت وازدهرت وأثمرت. بل هي دائمة الآن ولا تنقطع. فإن صورتك وآثار عقلك وحكمة فكرك لا تبرح نفسي ما حييت!

لا أنسى ذلك اللقاء الأول إذ لقيتك في بيتك الجميل الصغير على شاطئ البحر في الإبراهيمية وأنت في وسط أوراقك وكتبك يبدو عليك النشاط المصحوب بالرزانة والسكون وهو صفة الرجال الذين يشعرون بقوتهم ويرون طريقهم فلا يبددون القوة ولا يضلّون الطريق. وكنت تعيش عيشة بيتية راضية مرضية محوطاً بوالدتك الجليلة الحزينة وإخوانك. فتحادثنا في كل شيء وتبادلنا الأفكار في العالم والنفس والوجود وواجب الوجود والعقل والعلم والوطن، وذكرنا عظماء الرجال

وتكلمنا في الشعر والأدب... ثم افترقنا ولكن بعد أن أمضينا عقد صداقة ووفاء دائمين. وكنت إذ أراك وأحادثك للمرة الأولى كأنني عرفتك منذ أجيال لا عدد لها أو كأننا التقينا في عالم سابق على هذا العالم. قد يكون هذا الإحساس خيالياً أو خادعاً. ولكنه على كل حال دليل قوي قاطع على ما شعرت به نحوك من شدة الحب والتفاهم. ثم صافحتك وخرجت إلى الطريق أتنسّم رائحة البحر والأشجار وأنظر في وجوه الناس وأتمعن في الأشياء بنظر وإحساس جديدين لأنني وجدت فيك ذلك الصديق الحبيب والرفيق العزيز الذي تدوم صداقته ما دامت الحياة.

إنني الآن استعرض تاريخ حياتك كما رويته لي أنت مراراً عديدة، إذ قدمت إلى هذه البلاد وأنت في زهرة الشباب وجئت في أواسط العقد الثالث من عمرك، ولكنك جئت بكاهل مثقل بالهموم فقد فقدت أخاك الأصغر الذي كنت تنوي أن تركن إليه إذا اشتدّ عوده. فخانتك الأقدار فيه كما خانتك بعد ذلك في أمور كثيرة. قضى ذلك الأخ العزيز الصغير الذي لم تنسه طول حياتك والذي أهديت إلى روحه أجمل كتبك والذي كنت تقسم به القسم الأعلى إذا أقسمت يوماً في شأن من الشؤون.

من أول يوم اشتغلت بالتحرير والتحبير والدرس والتأليف والتعريب والنشر، فحررت جريدة "صدى الأهرام" في الإسكندرية حتى كاد الصدى يتغلب على الصوت في القاهرة، فانتزعه منك من يملك الاثنين معاً. وكان ذلك لحسن حظ الأدب والعلم في الشرق العربي، فأنشأت مجلة "الجامعة العثمانية" وكنت تجعل من هذا العنوان برنامجاً عقلياً وسياسياً معاً. ولم تحد يوماً في مجلتك عن تلك الخطة، فقد كانت رغبتك متجهة نحو توثيق عرى الاتحاد بين جميع الشعوب التي تحكمها الدولة العثمانية، وهذه فكرة عملت لها بقلمك وفكرك طول حياتك.

بدأت المجلة بمباحث أدبية وتاريخية، ولكن لا كتلك المباحث التي تملأ بها صفحات المجلات التجارية بل بمباحث جديدة طلية شيقة جعلت لك في كل قارئ صديقاً. وفي صفحات تلك المجلة اكتشفتك لأول مرة، وإنني أعلم بيقين أن كثيرين من أرباب المجلات العتيقة التي ثبتت أقدامها في الشرق العربي اهتزوا لمجلتك وحسبوا لها ألف حساب. وسمعت من رجل لا يعرفك أن عدد النسخ الذي كان يرسل بالبريد من مجلتك بعد السنة الأولى كان يعادل أو يربو على عدد النسخ التي تصدرها المجلات التي قضت عشرات السنين قبلك في اكتساب ثقة الجمهور بالانتظام في الظهور والكتابة في الأمور التي ترضي العامة. وكنت بجانب تلك المجلة الجامعة العامرة تؤلف وتترجم وتنشر كتباً مفيدة لذيذة قائمة بذاتها، وهي طريقة مبتكرة في الشرق ونفعها عميم لا يقدر. فنقلت إلى قراء العربية كتب بول وفرجيني والكوخ الهندي وتاريخ الثورة الفرنسوية باسم نهضة الأسد ووثبة الأسد وفريسته، وتقصد بالأسد الشعب الرابض الصابر المنتظر الذي إذا غضب نهض ووثب ثم افترس.

ثم بدأت لـ"الجامعة" فترة ذهبية وعهد جديد سعيد إذ أخذت تمهد الطريق للمباحث الفلسفية الجديدة والقديمة، فنقلت أولاً حياة المسيح وأعمال الرسل تأليف أرنست رينان لقراء العربية وأدخلت في عقولهم مبادئ الإدراك الديني المصحوب بالتسامح. فأزعجت المتعصبين ولكنك لم تغضبهم. ثم تناولت بعض فلاسفة العرب، فترجمت إبن رشد وشرحت مبادئه. وقد أثار بحثك سروراً وغضباً في قلوب الكثيرين. ولم يعرف قدرك من رجال هذا العصر (أوائل القرن العشرين في مصر) إلا رجل فذّ قوي العقل والفكر كريم القلب واسع الرأي متعمق في العلم والدين بل يصح أن يسمى لوثير الإسلام أو رينان ذاك الزمان وهو المغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية. فبدأ يناقشك ويجادلك في رفق ولين واحترام، ويكتب لك الكتب الخاصة معبراً فيها عن احترامك وإجلالك وإعزازك.

فكفاك يا أخي فخراً أنك عرّفت القراء في ذلك الوقت بابن رشد وفلسفة ابن رشد وآراء ابن رشد، وإن الذي انبرى لمباحثتك ومناظرتك في الأعراض لا في الجواهر أكبر رجل معاصر في الإسلام. وكأنك أردت أن تنفخ في بوق الإصلاح من جهتين، فترجمت رينان ومؤلفاته وشأنه في الإصلاح المسيحي شأنه، ثم ترجمت ابن رشد وقدره في الحرية الفكرية الإسلامية قدره.

كانت مجلة "الجامعة" لا تصدر بانتظام. هذا حق لأنك أنت وحدك كنت تؤلف وتترجم وتباشر الطبع والنشر والتوزيع، وهي أعمال تحتاج في غير بلاد الشرق إلى جملة أيدٍ متعددة متعاونة. ولو قلنا اليوم لمدير إحدى المجلات الفرنسوية أو الألمانية "عليك أن تقوم بما كان يقوم به فرح أنطون منذ عشرين عاماً بمفرده"، لحطم الأقلام ومزق الأوراق وسعى بطلب الرزق والمجد من سبيل آخر. ولكن الشرق الحزين، الشرق الجاهل، الشرق الذي يطلب كل شيء ولا يبذل شيئاً يطلب الجمع بين المتناقضين. والأعجب أن أهل الشرق يدهشون إذا ظهرت نتيجة التناقض!

كانت نتيجة التناقض في حياتك الأولى أنك سئمت مصر والأدب وشددت رحالك إلى أميركا في طلب المثل الأعلى لا في طلب الغنى والمال كما صنع غيرك، وليتك فعلت أو على الأقل ليتك حاولت الجمع بين الاثنين كما يصنع كل حريص في هذه الدنيا. إنك لم تفعل لأنك كنت شديد الحرص على شيء آخر شديد، الحرص على تلك النار المقدسة التي تشتعل في صدرك. كنت شديد الغيرة عليها لعلمك بقيمتها، وهي لعمرك التي أحرقتك بلهيبها وجذبتك في نهاية الأمر إليها، هي تلك النار التي يسميها البوذيون "نارفانا" وترجمتها أنت في حديث لك بنار الغناء.

ولكنك لم تركب البحر ولم تعزم على الرحيل إلا بعد أن ألفت ما لو تركه جملة رجال لخلد ذكرهم مدى الدهور. ألفت تلك القصص الخالدة أورشليم الجديدة والوحش والعلم والمال، ونقلت إلى قراءة العربية مبادئ فردريك نيتشه الفيلسوف الألماني فنشرت اسمه في سنة 1904 ولم يكن أحد من أصحاب المجلات والجرائد قد ذكره قبلك في سائر الأقطار العربية.

ركبت البحر ولا يعلم أحد إلا أهلك وأقرب المقرّبين إليك في أي ظروف محزنة ركبته، كأن الأقدار تغالبك في كل خطوة تخطوها. ولكنك تغلبت وتقويت وتشجعت وأبحرت، فقصدت فرنسا أولاً. وإن طبيعتك يا أخي لا تخونك فأنت المهاجر في سبيل الأدب والفن والمثل الأعلى قصدت تواً مدينة شامبيري حيث يوجد ذلك البيت الصغير Les Charmettes الذي كان يسكنه جان جاك روسو وصديقته مدام دي وارنز. وهناك بعد أن أجلت بصرك في غرفه واستعدت بفكرك ذكرى الفيلسوف الشقي الحظ الذي كان سعيداً بين جدرانه، كتبت في دفتر الزائرين في ذلك السجل الذي يجمع أفكار القاصدين من عشاق روسو أو غواة الضرائب، كتبت بقلمك كلمتين صغيرتين En allant en Amerique ولا فائدة في ترجمة هذه الجملة فإن قواميس العالم لا تؤدي معناها. وقد اكتشفتها بنفسي بعد كتابتها بثلاث سنين إذ كنت أقلب صفحات هذا الكتاب الذي ترك فيه كل زائر جملة تدل على فكره. ما كان أعظم سرورك ودهشك إذ أخبرتك بما قرأت إذ التقينا في باريس في صيف 1909، وما كان أعظم حزنك إذ اخبرتني منذ بضع سنين أن هذا البيت بما فيه قد التهمته النار واختفت باختفائه آثار جان جاك وزائريه.

لا أعرف الشيء الكثير عن إقامتك في أميركا لأن حياة الجد والعمل والجهاد المتواصل شغلتك عن الشرق وبنيه، فلم تخاطبني إلا مرة واحدة دعوتني فيها إلى ركوب كاهل المحيط لنعمل معاً في حياة الفكر الشرقي. ولكن يداً غادرة

خائنة عبثت بهذا الخطاب ومنعته عني إذ كنت في باريس ولا يعوقني عن الوصول إليك إلا عبور البحر. ولشدة ما كانت نفسي تحدثني بالذهاب إليك قبل أن أقرأ هذا الكتاب ودون أن أعلم بوجوده، وهذا دليل على مقدار تبادل شعورنا وعواطفنا.

التقينا في باريس في صيف 1909 على حافة "كافيه دي لابيه" في ظل الأوبرا، فحييتني بكلمات إنجليزية هي بلا ريب أظهر أثر لإقامتك في أرض كولمبوس. ثم تحادثنا فوجدتك لم تتغير ولم تتحول ولم تؤثر في نفسك الشامية حياة المادة الجافة التي يعيشها الأميركان في بلادهم. وجدتك كما فارقتك تفضل حياة العقل والعلم على كل شيء وتبذل في سبيلها كل شيء. فذكرت لك فضلك في أنك لم تقطع عني المجلة والجريدة يوماً واحداً، وكان هذا أجمل عذر في قطع حبل المراسلة.

في أميركا كتبت تلك المقالة الخالدة "في ظل شلالات نياغرا" وأنني اعتبرها من أقوى وأجمل وأنفع ما كتب في العالم بأية لغة من اللغات. وآسف على أنها لم تنشر وتعمّ بين جميع الناطقين باللغة العربية[1]. في أميركا سعيت لأبناء وطنك لتوجد لهم أباعد ومساكن خاوية ومزارع يعيشون من ثمارها. في أميركا ربحت صداقات قوية واكتسبت عداوات أيضاً. وأي الناس بل أي المفكرين يا أخي لا يصادق ويعادي في هذه الحياة؟ أن الصفات التي تفيدنا الأصدقاء والأحباب هي ذاتها التي تفيدنا الأعداء والمخاصمين. وأي رجل في الدنيا ليس له إلا أصدقاء؟ إن البله والمعتوهين والحمقى هم فقط الذين لهم أصدقاء، إذ ما الفائدة من معاداتهم بل لأي سبب يعاديهم الناس؟ وكذلك المتهوسون هم الذين لهم أعداء فقط. أما بقية الرجال الذين يفهمون الحياة ويعرفون أقدار أنفسهم ويحافظون على

[1] نشرناها في صدر هذا العدد.

كرامتهم ويدافعون عن حقوقهم يوجدون حتماً لأنفسهم أصدقاء وأعداء معاً، وكنت أنت من هؤلاء الرجال.

في باريس كانت شقيقتك مريضة وراقدة في مخالب الحمى، وكانت قوتك مشتتة وأفكارك مبعثرة. أثر أميركا في كفك وطعم الشرق في فمك، والآمال مبهمة والأفق يكاد يكون مظلماً. ولكن هذا كله لم يمنعك من قضاء ليالي بطولها تقرأ كتب الفلسفة حتى مطلع الفجر. فقد ظهر إذ ذاك كتاب Ecco issmo آخر مؤلفات نيتشه فلم يغمض جفنك حتى أنهيت قراءته. وكم أخبرتني أن والدتك الحزينة كانت تدخل عليك في غرفة العمل في الساعات الأولى من الفجر لتنهاك عن الاستمرار في قتل نفسك بمواصلة البحث والدرس. ولكن هذا النصح لم يكن منتجاً، فإنها إن نهتك يوماً فسوف تخالف نهيها أياماً وليالي طوالاً حتى تقطع سياحة هذه الدنيا في أقصر زمن!

في باريس جمعت بينك وبين المغفور له محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني، فلما عدت إلى مصر قمت بتحرير "البلاغ المصري" أولاً لمؤسسه المرحوم الأستاذ اسماعيل بك شيمي. ثم انتقلت إلى "اللواء" ثم إلى "مصر الفتاة". وفي كل جريدة من تلك الجرائد كنت تدافع عن الحق وعن الوطن، أي عن مصر التي عددتها لنفسك وأهلك وطناً ثانياً. ولم يتحول مذهبك يوماً ولم يتغير رأيك ساعة. كنت تكتب باعتقاد وإخلاص وتنصر الحق أنّى كان. فانتصرت لنا ولمبادئنا الوطنية في أحرج مواقفنا، وانتصرت للعمال في إضرابهم، وانتصرت للشعب على السلطة وللحق على القوة وللمحكومين على الحاكم المستبد. في الوقت الذي كان فيه كثيرون من النزلاء الشرقيين يستبيحون كل منكر ضد مصر والمصريين، كنت أنت ونفر قليل من الرجال المباركين تعرفون لمصر جميلها وتأخذون بيدها في شدتها. وهذا جميل نذكره لك ولا ننساه.

ثم تطور فكرك ورأيت أن التمثيل أعظم قوة لنشر المبادئ، وأنت تعلم أنه المرحلة الأخيرة في حياة المؤلف. فقصدت بابه وألفت فيه روايات كانت فاتحة الطريق لغيرها من نوعها، مثل صلاح الدين ومملكة أورشليم ومصر الجديدة. ونقلت إلى العربية جملة صالحة من روايات الإفرنج من قديم وحديث. فمن أوديب الملك حيث يتجلى جلال التراجيديا القديمة، إلى الساحرة حيث تظهر فضل العرب في إسبانيا وظلم محكمة التفتيش. ثم اتجه نظرك إلى إدخال نوع جديد من التمثيل فاقتبست كرمن وكرمنينا ونايس وروزينا وأدنا وغيرها. ورأيت بين يديك وأنت مشرف على الموت رواية مصرية جديدة اسمها "أبو الهول يتحرك" تعبر بها عن حركة مصر ونهضتها. ولقد رحلت أيضاً في سبيل الفن الجميل. فمنذ ثلاث سنين سافرت إلى سوريا تصحبك فرقة تمثيلية وطفت المدن والعواصم، ووجدت في كل قرية بل في كل بيت صديقاً لك عرفك عن طريق كتبك. ولما عدت أخبرتني أنك زرت البيت الذي ولدت فيه وقلت: "رأيت بعين الرجولة بيتاً صغيراً كنت أراه بعين الصبي كبيراً جداً". وكنت تتكلم بحزن كأنك تشعر أن هذه الزيارة كانت زيارة الوداع الأخير.

ولما عدت من سوريا شهدت الحركة الوطنية المصرية، فبهرك جمالها وحركت نخوتك قوتها وجلالها، وتمنيت لمصر كل شيء على يد رجالها العاملين. وإذ كانت الحركة في عنفوانها قضت الظروف عليك بالارتحال من جديد، فسافرت إلى طرابلس الغرب وتونس في سبيل الفن الجميل. فتقدم إليك الأدباء والعلماء في كل مكان وألحّوا عليك بالبقاء بين ظهرانيهم وقالوا لك إن كل مكان يعد لك وطناً ولست غريباً في أي بلاد من بلاد العالم. ولكن مصر التي كنت تحبها، مصر التي فيها أهلك وأحبابك، مصر ذات السحر الذي يجذب النفوس والقلوب جذبتك إليها، ولكن واأسفاه لتموت وتدفن في ثراها.

قبل موتك بعام واحد تقريباً اشتركت في العمل لأجل مصر، وكتبت في جريدة "الأهالي"، وهي إذ ذاك لسان حال رجل مصر الوحيد في هذا العصر، مقالات جديرة بأن تكتب بماء الذهب. وكنت تتواضع فتمهرها بإمضاء مستعار موفق "فران" من كل اسم من اسميك حرفان. ولكن هذا "الفران" كان يصنع خبزاً للعقول والنفوس فنعم الفران ونعم الخبز. وكم زرتك في تلك الجريدة فوجدتك منكباً على مكتبك والعرق يتصبب من جبينك وصفرة المرض تعلو وجهك وآلام القلب تعاودك من لحظة لأخرى. ولكنك لا تبالي وتمر على تلك العلائم، علائم الموت الداهم مرور البطل الشجاع الذي لا يجعل لنفسه شأناً في سبيل مذهبه. وعندما كان كثيرون من أبناء مصر منصرفين عنها، وبعضهم وأسفاه يعمل على أذاها، كنت أنت أيها الغريب عنها بمولدك تدافع عنها دفاعاً أشدّ من دفاع أبنائها. عندما كان الآخرون يلعبون بذهب المعز كنت أنت لا ترهب سيفه! فما أعظم هذا الفضل لك علينا وما أجمل هذه الذكرى.

والآن يا أخي أنت راقد هنا وقد خلا جسمك من نفسك، ولكن العالم لم يخلُ ولن يخلو من روحك وآثارها المنتشرة في جميع أرجائه!

لقد عشت عيشة الفيلسوف ومتّ موتة الفيلسوف. وها نحن فئة قليلة من الأقارب والأحباب حول قبرك لأنك لم تكن من هؤلاء الذين تتحرك في ركاب نعشهم المركبات الضخمة والسيارات الفخمة ويسير في جنازتهم ذوو النفاق والخديعة. ولكن هؤلاء سرعان ما يُنسى ذكرهم وتُطوى سيرتهم. ولكنك وأمثالك لا تنسون ولا يُطوى سجلكم ما دامت في الدنيا جماعة تنطق بالعربية.

لقد قالوا لك في الصلاة إذهب إلى الجنة ونم في أحضان السيد المسيح. وأنا أقول لك كلمتي أيضاً لأنني أقرب إليك وأحب وأعرف بقلبك من هؤلاء الذين قالوا... أقول لك اذهب إلى حيث ذهب قبلك أرسطو وأفلاطون وروسو ونيتشه

ومحمد عبده، اذهب إلى المكان الذي يلتقي فيه الحكماء والمفكرون إن كانوا يلتقون بعد هذه الحياة... فإن كانت الجنة فاذهب إليها، وإن كان هناك مكان آخر فهو أحب إليك وإليّ من نعيم لا نجد فيه نفوس أحبابنا الذين عرفناهم وعشقناهم عشق الفكر الحر والعقل المشتعل.

وداعاً أيها الأخ الحبيب والصديق المرشد والأديب الكامل. وإنني أختم رثائي بقبلة أضعها جاثياً أمامك على جبينك!

محمد لطفي جمعة

ذكرى صداقة دائمة

يوليو 1902- يوليو 1922

الجزء 10، سنة 3. آب 1922

مسائل فكرية

أسلحة الحياة

(1) قوة المقاومة

الحياة كالحرب. يقوم فيها القوي ويسقط الضعيف. ولذلك يكون رأس واجبات الأب والأم جعل أولادهما أقوياء وتسليحهما بالأسلحة التي تنيل النصر في ميدان الحياة. هذه الأسلحة عديدة نذكر هنا بعضها على التوالي:

والسلاح الأول قوة المقاومة. وهو في الحقيقة أول الأسلحة وأهمها للذي يروم الانتصار في هذا الجهاد ولكن ما هي هذه القوة وما معناها. هل معنى قوة المقاومة أن يتخاشن الإنسان ويتصلّب لمقاومة كل ما يخالف مصلحته ويعاكس أمياله. كلا فإن هذا خشونة لا مقاومة. وصاحب هذه القوة إذا انتصر بها مرة أو مرتين فإن مصيره الانخذال لأنها تجعله مكروهاً إلى جميع الناس. وإنما نعني بقوة المقاومة أمراً آخر.

قوة المقاومة عندنا ثلاثة أنواع: "القوة البدنية" و"القوة العقلية" و"القوة الأدبية".

القوة البدنية

فقوة المقاومة البدنية هي تعوّد الإنسان على مشاق الحياة وشظفها. وبهذه العادة يصبح قوي الجسم فلا أقل ريح توهن عزمه ولا أقل اعتلال يصرعه على الحضيض. ومن يكون بقوة كهذه القوة لا يخشى للعناصر بأساً ولا بطشاً. فهو يخوض أهوال البرد والأمطار والصواعق والمخاطر توصلاً إلى غرضه. إذا كان مسافراً وفرغ زاده أتم سفره باشاً مسروراً لأنه قادر على احتمال الجوع. وإذا لم يصل إلى المدينة قبل الفجر رقد مسروراً تحت قبة السماء منتظراً طلوع الشمس. وإذا جدّ في السير فساعة واحدة في الراحة كافية لإراحة جسمه. وإذا اشتغل ليلاً ونهاراً فإنه لا يمل. فلا ريب أن من تكون هذه حالته لا تقف في وجهه صعوبة في هذه الحياة.

القوة العقلية

أما قوة المقاومة العقلية فهي للعقل بمنزلة القوة الأولى للجسم. أي أن لا يفشل الإنسان وتذهب ريحه عند أول خيبة يقع فيها. فإن من يكون هذا شأنه لا ينجح في شيء على الإطلاق. وهذا ما يسمونه الثبات والمثابرة. فمن تكون له قوة المقاومة العقلية يقاوم المصاعب التي تعترض طريقه ولا ينفك عنها حتى يدوسها أو يزيلها. والتاريخ يثبت أن أعاظم المكتشفين والمخترعين لم يقوموا وينهضوا إلا بوجود هذه المقاومة في قواهم العقلية. وكم من رجل قاومه عصره واضطهدوه فثبت على اضطهادهم بقوة المقاومة التي لعقله فانتصر عليهم. وكم من المكتشفين باعوا كل ما ملكته أيديهم وعاشوا برهة في الفقر تأييداً لاكتشافهم وإظهاراً له فانتهى الأمر بانتصارهم وغلبتهم.

القوة الأدبية

أما المقاومة الأدبية فربما كانت أهم هذه القوات كلها. إذ عليها تتوقف صحة نفس الولد وآدابه وأخلاقه. ويراد بها قوة تُغرس في أخلاق الولد فلا تتركه يتحوّل عن المبادئ الكريمة التي يشبّ عليها في عائلته أو في مدرسته. فكأنها منارة تضعها في نفسه يد أمه اللطيفة فتنير داخله ما دام حياً وتبدّد كل ما يعرض له من الظلام. مثال ذلك أن الولد يكون في بدء حياته في حضن أمه وأبيه. فيكون أهله لا شغل لهم غير مراقبته وتدريبه في طريق الأدب والفضيلة وحسن السلوك بين الناس. فترى الولد في هذا السنّ ملاكاً صغيراً جميلاً لطيفاً. ولكن بعد سنة أو سنتين يضطر الولد إلى السفر لأشغال تطرأ فيذهب إلى اوقيانوس العالم العظيم بعيداً عن أبويه. وحينئذٍ يرى أمامه التجارب والمحركات إلى الشر من كل جهة. فإذا كان لأخلاقه قوة المقاومة اللازمة ثبت على أدبه وأقام بين تلك التجارب كالوردة بين الشوك. وحينئذٍ يكون إنساناً يحق للإنسانية الافتخار به. وإذا لم يكن لأخلاقه المقاومة المذكورة سقط في التجارب المنصوبة فخاخها أمامه. فذهب جماله الأدبي وتشوهت نفسه أقبح تشويه. ومن هناك يتدرّج إلى أقصى دركات السفالة.

فعلى الآباء والأمهات أن يفتكروا دائماً إنهم لا ينفعون أولادهم كثيراً بالأموال التي يتركونها لهم ولا بالأملاك ولا بالدخل العظيم. فإن كل هذه قد يبددها الإسراف ويبذرها سوء التدبير. وإنما ينفعونهم بتلك الثروة التي هي فوق الثروات كلها لأنها مصدرها وأساسها ونعني بها قوة المقاومة التي يغرسونها في نفوس أولادهم وأبدانهم. فإلى هذا الأمر يجب أن تنصرف عناية الأمهات والآباء واهتمام المعلمين الفضلاء.

الجزء السادس، 1903

(2) قوة البشاشة

قلنا في المقالة السابقة إن "قوة المقاومة" هي أول أسلحة الحياة. ونقول الآن إن "قوة البشاشة" هي السلاح الثاني.

وما هي البشاشة؟

البشاشة هي عبارة عن ثوب من زجاج أو عاج تتقمصه نفس الإنسان فتنزلق عليه كل أحزان الحياة وهمومها وغمومها دون أن تعلق بها كما تزلق نقط المطر على زجاج النوافذ. فالرجل الباش قوي دائماً. لأن البشاشة تنشأ عن القوة كما أن السخط والغضب والاهتمام الشديد تنشأ عن الضعف. وهذه قاعدة مطردة. فكلما رأيت رجلاً يبش ويهش حتى في أصعب المواقف وأشد المتاعب فكن على ثقة من قوته وثبات جأشه. وكلما رأيت رجلاً يغضب ويزمجر لسبب ولغير سبب فكن على ثقة من ضعفه.

يروي الإفرنج عن فرسانهم وأبطالهم المتقدمين أنهم كانوا يتقارعون بالسيوف ويقتلون بعضهم بعضاً في ساحات الحرب والنزال والابتسام على شفاههم. ومن هذا القبيل ما يُروى عن ثبات جأش اللبنانيين في معاركهم الماضية. فإن الخصم منهم كان إذا شهد خصمه منفرداً يهجم عليه وبندقيته في يده قائلاً: "صباح الخير يا أبا طنوس لا تؤاخذنا لإبطائنا في القيام بواجباتك" ثم يطلق عليه رصاصه فيصيب ساقه. فيجيبه طنوس "يسعد صباحك يا عزيز ولا تؤاخذنا أنت، ما فيه شيء من قيمتك" ثم يطلق عليه بندقيته.

فهذا الجأش الثابت والمزاج الظريف في أشد المواقف خطراً بين الجبال والوهاد أمام العدو القاتل إنما هو ضرب من الفروسية والشجاعة تطرب له أبطال المتقدمين في قبورها. ومن هذا القبيل ما روي عن بالبي العالم الفرنسوي المشهور

وهو فوق الكليوتين قبل إعدامه. فإن أحد الحاضرين التفت إليه وقال له "ما لك ترتجف يا بالبي"؟ ذلك لأنه ظن أن بالبي يرتجف من الخوف. فأجابت تلك النفس العظيمة "إنني ارتجف من البرد يا صاح"، ذلك لأن البرد كان شديداً. فأعجب لهذه البشاشة وهذا المزاح حتى أمام الموت.

وما لنا وللمتقدمين فلنتخذ على ذلك مثلاً من المتأخرين. فقد توفي منذ شهر في باريز كاتب مشهور يُدعى "غوستاف لارومه" وكانت علته داء الصدر. وكان في الأشهر الأخيرة من حياته متحققاً أنه سائر إلى ظلمة القبر ومع ذلك فإنه كان يتكلم عن ذلك بكل بشاشة وسكينة. وقد ألحوا عليه بترك عمله في جريدة الطان ليستريح ويداوي نفسه فكان جوابه أن الراحة عنده عناءٌ، وأنه ينتظر الموت وهو واقف وقلمه في يده. ولم تبدُ منه قط شكوى من آلامه وأوجاعه بل تحمّلها بكل بشاشة وكان يمزح بشأنها. وهكذا خفّف بقوة نفسه شيئاً من مصابه وقابل الموت كما يقابله الأبطال.

فما الفرق بين هؤلاء الرجال الشجعان وبين من يتضجر من الدنيا ويتذمر ويتأفف لأقل المتاعب وأصغر المصاعب. إن الفرق بين الفريقين كالفرق بين الرجال والأولاد. فالأولاد يحسبون أن الحياة ما خلقت لهم إلا لتكون مفروشة بالورد والريحان. ولذلك لا يجدون صعوبة في طريقهم حتى تتهيج أعصابهم وتثور نفوسهم فيأخذون بالشكوى من الأرض والسماء حتى من أنفسهم. فمساكين هؤلاء الضعفاء لا تلمهم لأنهم مرضى. والواجب مداواة مرضهم بدل لومهم وتقريعهم.

وكثيراً ما يكون الإنسان في موقف طلب حق فيرى من المحكمين أو الخصوم ميلاً صريحاً عن الحق فيغضب ويحتد ويقول بنزق أقوالاً تضرّ به وتنفع خصمه. وهذا خطأ محض. إن النزق لا يفيد شيئاً سوى ضحك الحاضرين منه. وبدل النزق والحدّة أجمع قواك كلها وجادل بالتي هي أحسن بكل بشاشة وهدوء.

فإن هدوءك وبشاشتك يسريان إلى نفوس سامعيك ويؤثران فيها التأثير الذي تطلبه إذا أحسنت الدفاع عن نفسك. وهكذا يكون الرجل الهادئ الباش محقاً دائماً لأنه ذو ثقة من نفسه ومن مطلبه وقادر على إقامة الدليل عليه.

وما قيل في البشاشة أمام الموت والبشاشة في معارك الحياة ومخاصماتها يُقال في البشاشة في صناعة هي اشد الصناعات حاجة إلى البشاشة، ونريد بها صناعة الكتابة.

كثيراً ما سمعنا أن الناس قد سئموا مناظرات الجرائد لانقلاب هذه المناظرات إلى مهاترات في أكثر الأحيان. ولذلك يرمون الصحف الشرقية بأنها منفردة في هذا السبيل. وهذا خطأ وظلم لأن المناظرات والمزاحمات بين الجرائد عامة في كل البلاد التي فيها جرائد. إنما يختلف في الغرب أسلوب مناظراتهم عن أسلوب الشرق. فإذا أخذت جريدة الديبا الفرنسوية مثلاً وجدت أن هذه الجريدة الخطيرة لا يمرّ عليها يوم دون أن تحمل فيه على الحكومة والوزراء حملات عنيفة. وتتقدهم نقداً شديداً "يطيّر الفراخ ويصمّ الصماخ" كما قال الهمذاني. ولكن كل انتقاداتها بشاشة في بشاشة وتهكم في تهكم. وكتّابها يقولون لماذا نغضب أنفسنا ونهيج أعصاب قرائنا من أجل مسائل لا تستحق الاهتمام كأقوال الوزير فلان والوزير فلان. وعلى هذا النسق تضرب بكف من حديد ولكن في قفاز من حرير. فتؤلم الخصم وتدميه وهي تضاحك القارئ وتلاعبه. وقد وصفها أحد كتابها يوماً فقال: "إن قلم كل كاتب فيها بمنزلة إبرة دقيقة يغرزها بنحافة في جلد الرجل المنتفخ كبرياء ودعوى فارغة فيزيل به انتفاخه كما يزول انتفاخ "البالون" بطعنة "دبوس" صغير فيه". وهو تعبير في غاية الجمال والسداد.

فيوم يدخل هذا الانتقاد الباش إلى الصحافة الشرقية ويحلّ محل الطعن والغضب والتهديد والوعيد التي هي من آثار الضعف القديم، تحصل من ذلك

فائدتان: الأولى ارتياح القراء إلى مناظرات الجرائد وانتقاداتها بدل النفور عنها، والثاني ارتقاء حقيقي في الآداب الصحافية.

وكل ذلك يكون بفضل البشاشة.

الجزء السابع، تشرين الأول 1903

(3) قوة المعدة

ذكرنا في المقالة الأولى أن أول أسلحة الحياة "قوة المقاومة"، وفي المقالة الثانية أن ثاني الأسلحة "قوة البشاشة". ولما وصلنا إلى السلاح الثالث وهو "قوة المعدة"، وجدنا أننا سُبقنا إلى هذا الموضوع في مقالة "الصحة والغذاء" المنشورة في هذا الجزء، فاكتفينا بالتنبيه إلى هذا السلاح. وسنتكلم في الجزء الآتي عن السلاح الرابع وهو "قوة النجمة".*

الجزء الثامن، تشرين الثاني 1903

*** لم يستكمل فرح هذه السلسلة.**

المدارس التي نحتاج إليها

كليات للكبار أم كليات للصغار

زار القطر المصري منذ شهرين حضرة الأستاذ الفاضل جبر أفندي ضومط مدرّس اللغة العربية والبيان في المدرسة الكلية الأميركية في بيروت لمرافقة طلبة الكلية المصريين إليها. ففي أثناء سؤالنا حضرته عن نسيب لنا في الحادية عشرة من العمر في الكلية الأميركية، دار الكلام على وجوب إنشاء مدرسة كبرى خصوصية للصغار. فقال حضرته ما خلاصته:

إن رئاسة الكلية الأميركية شاعرة بالحاجة إلى هذه المدرسة الخصوصية ولكنها لا تستطيع الإقدام عليها قبل أن يتوفر المال اللازم لها. وانشاؤها يقتضي على الأقل خمسة آلاف جنيه، وألفي جنيه نفقة سنوية توزع هكذا: ستمائة جنيه لثلاث أو أربع معلمات تتولى رعاية الأولاد وتعليمهم. وأربعمائة للرئيس. والباقي للنفقة. والمدرسة الكلية قد تتبرع بشيء من هذه النفقة إذا كان أهل الأولاد يقدمون لها ما بقي. فليت الصحافة توجه أنظار العائلات الكبيرة إلى هذا الأمر لتجعلها تقترح على المدرسة الكلية إنشاء هذه المدرسة وضمانة النفقة المذكورة.

قلنا فطوعاً لإشارة حضرة الأستاذ ضومط رأينا أن نوجه أنظار العائلات في مصر والشام إلى هذا الموضوع في هذه المجلة العائلية التي من واجباتها أن

تضع البحث في هذه المسائل فوق كل الشؤون.

إن البعض من إخواننا أصحاب الصحف والمجلات قاموا منذ مدة قومة واحدة يدعون أهل القطر وأغنياءه إلى إنشاء مدرسة كلية في مصر. وهم قسمان: فريق يطلب أن ينشئها الأميركان أو اليسوعيون على نسق كليتيهما في بيروت لأننا معاشر الشرقيين مهما أتقنا أعمالنا ومشروعاتنا لا نستطيع مجاراة الغربيين فيها إذ قوتهم هذه نتيجة تمدن قرون وأجيال لا نتيجة نصف قرن. وفريق يطلب أن تكون الكلية وطنية محضة تربي للقطر رجالاً يرفعون شأنه. فلا ريب أن الفريقين محقان في طلبهما هذا. والمزاحمة على إنشاء الكليات والمدارس ونشر التعليم خير مزاحمة مهما كان مصدرها إذ لا وحدة لمبدأ التعليم في بلادنا لتعدد عناصرنا. ولكننا نرى وجوب تقديم الأهم على المهمّ في هذه المسألة.

ونحن نعتقد أن الأهم في بلادنا الشرقية إنما هو تأسيس التربية الابتدائية الأدبية على أسس وطيدة قبل الشروع في التعليم العالي. فإن تلك التربية الابتدائية هي من قبيل وضع الأساس والتربية العالية من قبيل سقف البيت. وهل يُسقف البيت قبل أن يؤسس. فاللازم إذاً في رأينا قبل الاهتمام بإنشاء كليات شرقية جديدة إنشاء مدارس ابتدائية جديدة تصفّي روح الأمة الشرقية من كدورات حالتيها القديمة والحاضرة وتنشئ لها وسطاً جديداً نقياً ترتفع فيه النفوس وتقوى وبذلك يرتقي مجموع الأمة ويحصل التقدم المطلوب.

وقد جعلنا همّنا منذ أمسكنا القلم في الشرق النداء بهذه الحقيقة البسيطة: نقوا العائلة ورقوا أخلاقها قبل كل شيء فإن هذا هو الإصلاح الحقيقي في الأرض. وإلا فكل المدارس الكلية وكل العلوم الأرضية والسماوية وكل الإصلاحات الزراعية والصناعية والتجارية لا تغني فتيلاً ولا تقدّمنا خطوة واحدة. ذلك لأنها لا

تكون قد حصلت بواسطتنا بل بواسطة غيرنا فتكون ثوباً مستعاراً لنا. وتحت هذا الثوب اللامع البراق يكون ما يكون.

وربما يُقال أن الإصلاح الأدبي يرافق دائماً الإصلاح المادي. فإنه إذا ترقت العلوم والفنون وأنشأت المعامل وحُرثت الأرض واستخرجت المعادن وراجت المتاجر ترتقي أحوال الأمة الأدبية بارتقاء أحوالها المادية تدريجياً. وقد قال الفيلسوف تان المشهور "إن الفضيلة والرذيلة هما كالبترول والفحم بضاعة تكثر أو تقل تبعاً للمؤثرات الطبيعية". فنجيب محال أن تحصل الإصلاحات المادية بدون القوى الأدبية التي هي أساسها. قال رنان إنه يفضّل العلم على كل شيء ولكنه يفضل المبادئ الأدبية على العلم لأن الناس الأكثر حرصاً على الروح الأدبي هم أقدر الناس على ترقية العلم. فالروح الأدبي إذاً هو أساس لكل شيء في الأرض. وبدونه لا ارتقاء للبشر. وإذا ارتقوا في الفروع المادية صدفة واتفاقاً قبل الفروع الأدبية قتلت المادة فيهم كل عاطفة كريمة فصار شعارهم الإثرة والشراهة وصار معبودهم "إله القابلية". والشعب الذي تكون هذه ضالته يكون أحطّ الشعوب وأثقلها.

ومن سوء الحظ أن الشرق مع أنه كان مصدر الأديان والتصورات الغزلية الجميلة فإنه اليوم في أشد حاجة إلى ذلك الروح الأدبي خصوصاً بعدما طمت عليه مدنية الغرب وكثرت الثروة بين يديه وهاجمته جيوش المسكرات والمقامرة ومبادئ الحرية التي أسيء فهمها واستعمالها... وكل هذه معاول تهدم في بنائه. فإذا لم تنهض شعوبه لتأسيس الروح الأدبي في العائلة والمدرسة على أسس جديدة تقتضيها طبيعة العمران الجديد فإن أهله يبقون إلى الأبد خدّاماً لغيرهم وتبقى بلادهم منافذ لاستهلاك البضائع الأوروبية.

إذاً فالفائدة الكبرى التي يجب أن يهتمّ لها العقلاء هي إنشاء مدارس ابتدائية جديدة تكون فيها التربية الأدبية مقدمة على كل شيء. وهناك طريقان،

الأولى طويلة والثانية قصيرة. أما الطريق الطويلة فهي تقديم العناية بالتعليم الابتدائي على كل شيء حتى على الإصلاحات الزراعية والصناعية والتجارية، وإنفاق الملايين على إنشاء مدارس مجانية إلزامية في كل مدينة وكل قرية لتعليم جميع أبناء الأمة بلا استثناء تعليماً صحيحاً. ولكن هذا الأمر صعب الآن لعدة أسباب. ولذلك لا بدّ من الاكتفاء بالطريق القصيرة.

وهذه الطريق القصيرة تقوم بإنشاء خمس أو عشر كليات للصغار – بنين وبنات – في أهم مراكز البلاد. وقد سميناها "كليات" لا مدارس زيادة في أهميتها ودلالة على إننا ننتظر منها من الفائدة ما تنتظره الأمم الكبرى من كلياتها العلمية الكبرى. ذلك لأن الغرض منها فصل الصغار الذين يوضعون فيها عن الوسط الحالي وتربيتهم في هذه الكليات الصغيرة تربية داخلية قويمة لا اتصال لها بشأن من شؤون الحالة الحاضرة. ويدخل الولد في هذه "الكليات" من السنة الثامنة أو أكثر فتقوم مدرسته عنده مقام عائلته ويكون معلموها من السيدات وطنيات وأوروبيات ليجد الولد حنوّاً كحنو أمه. وداخل المدرسة يكون شبيهاً بمدينة مستقلة عن المدينة لأن الولد يجد فيه الأماكن الرحيبة والحدائق الجميلة والمنتزهات الواسعة فيستغني بها عن الخارج. وهكذا تكون هذه المدارس الجديدة عبارة عن حصن تأوي إليها الطهارة والفضيلة والتربية الصحيحة فلا يصل إليها شيء من شر العالم. ويمكن فيها تربية الصغار أقوم تربية أدبية يستطيع البشر إدراكها من حيث إنماء قواهم النفسية والعقلية والبدنية.

هذا هو الأساس الذي يجب إنشاؤه في الشرق ليخرج لنا الرجال الذين نطلبهم وليرقي الأمة بالتدريج ترقية فعلية. ولسنا نعرف على هذا المشروع غير أربعة اعتراضات: (الأول) أن فيه ظلماً لسواد الأمة لأن هذه الكليات الصغيرة لا تستطيع أن تربي إلا مئات من أبنائها. فالجواب بديهي وهو أن ما لا يُدرك كله لا

يُترك كله. (والثاني) أن فلاسفة أوروبا يصلون المدارس الداخلية للصغار حرباً شديدة لأنها تحرم الصغار حنو أمهاتهم. والجواب بديهي أيضاً وهو أن التربية العائلية عند الإفرنج أرقى من التربية المدرسية ولذلك يجوز عندهم ذلك أما عندنا فكل البلاء من التربية العائلية وهي ما نريد قطع تأثيره عن الولد إلا في حالات معلومة. (والثالث) ما الفائدة من تربية الصغار هذه التربية القويمة إذا كانوا عند خروجهم من هذه "الكليات الصغيرة" يتخلقون بأخلاق الآخرين لمعاشرتهم إياهم فينهدم كل ما بُني فيهم وذلك من تأثير وسطهم. فالجواب عن هذا بديهي أيضاً وهو أن الولد إذا رُبّي في تلك الكليات الصغيرة إلى ما بعد السنة الخامسة عشرة يكون قد وُضع في نفسه أساس الحياة أي غُرس في أعماق قلبه ذلك الروح الأدبي الذي هو سفينة خلاصه وخلاص الأمم جمعاء. فهو حينئذٍ قادر بشيء من المراقبة من أهله أن يعبر على سفينته بحر الحياة إلى سن الشباب أي إلى السن الذي تنضج فيه أخلاقه وتركز فيه من التغيير والعثار. وفضلاً عن هذا فإن هذا الاعتراض إذا جاز الخوف منه على الفتيان فلا يُخشى منه على الفتيات لأن الابنة حين خروجها في ذلك السن من كليتها الصغيرة تكون مستعدة لأن تكون أمّاً.

وأعظم حاجاتنا اليوم هي إلى أمهات كهذه الأم. ذلك لأنها تجعل عائلتها مدرسة مفيدة على نسق الكلية التي ربيت فيها بآدابها وروحها وجدّها وجمالها. ومن هذه الجهة على الأخص تكون فائدة هذه "الكليات الصغيرة" لا تُقدر ولا تُثمن. (والرابع) قولهم من أين نجيء بمعلمات ومعلمين قادرين على تولي إدارة هذه الكليات الصغيرة لجعلها في الدرجة المطلوبة. فالجواب أن إدارة هذه الكليات الصغيرة تُلقى مثلاً إلى رجل قادر كالأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أو دولتلو رياض باشا ولا بأس من اتخاذ كثيرات من المعلمات الأوروبيات في العشر السنوات الأولى. أما المعلمون للتلاميذ الذين سنهم فوق

الرابعة عشرة فتزاد رواتبهم لحد الـ20 جنيهاً في الشهر فيتقدم منهم لهذه الوظيفة من فيه الكفاءة التامة.

فقبل الدعوة إلى إنشاء كلية العلوم العالية أنشئوا لنا كليات لوضع أساس هذه التربية الابتدائية الضرورية. نحن الآن لا نزال أطفالاً فأطعمونا اللبن قبل اللحم وإلا فإنكم لا تفيدوننا الفائدة المقصودة. أما العلوم العالية فإننا نتعلمها كلما شئنا في الكليات القريبة منا في أوروبا أو بيروت لأننا لا نقدر على مجاراتها. فترى هل تحرك الحمية غنياً يحب خير وطنه مثل سعادة منشاوي باشا للشروع في هذا العمل الجليل وإحياء المواهب العقلية والأدبية في هذه البلاد كما أحياها المرحوم محمد علي باشا جد الأسرة الخديوية سياسياً. إننا نتمنى ذلك وإن كانت الاقتراحات قد كثرت على سعادته لأننا على ثقة من أن كل عمل يُعمل في مصر، كل مشروع يُقام، كل إصلاح يحدث، كل مدارس تُنشأ إنما هي في الحقيقة دون هذا الإصلاح لأنه الأساس الأولي الذي يجب أن تبني الأمم عليه وإلا لم يثبت لها بناء ولم ينفعها اهتمام.

وهنا لا بدّ أن يقول قائل ما هذا "الروح الأدبي" الذي تُقام له القيامة إلى هذا الحدّ وتُنشأ له "الكليات"؟ فالجواب إننا نعرّف هذا الروح ببضع كلمات. من المشهور عنا معاشر الشرقيين إننا متى اجتمعنا لأمر دبّ الفشل بيننا بأسرع ما يكون لرغبة كل واحد منا أن يكون رأساً. فالروح الأدبي يهوّن على العاجزين منا تصدّر القادرين فلا يتصدر إلا القادرون لئلا يصبح العاجزون أضحوكة وبذلك يصير الاتفاق والاجتماع عندنا أمراً ممكناً. فالروح الأدبي هو عبارة عن معرفة الإنسان حقه وحق غيره، أي معرفة ما له وما عليه. ومن المشهور عنا أيضاً أن جامعتنا العمومية ضعيفة. فالأفراد منا إذا كانوا من الهيئة المحكومة يكون لا همّ لهم إلا أنفسهم فلا يضحون شيئاً في سبيل المصلحة العمومية، وإذا كانوا في

الهيئة الحاكمة فأكثرهم يتخذون وظائفهم ذريعة إلى مصالحهم الخصوصية. وهذا أصل فساد الشرق وسبب قول الغربيين أن الشرقيين لا يحسنون إدارة شؤونهم. فالروح الأدبي يُبطل هذا كله ويقدرنا على مغالبة مصالحنا الخصوصية خدمة للمصلحة العمومية التي هي مصلحة كل واحد منا إجمالاً. وبالاختصار أن الروح الأدبي هو شرفك الذي يمنعك من التسفل والدناءة في مقابلة ربح قليل أو كثير فيصون ماء وجهك رغماً عن الحيوان الذي في داخلك. هو قوتك التي تمنعك من ترك حقك يُهضم أو هضم حق غيرك وتقدّرك على حفظ كفتي الميزان متوازيتين بين الفريقين. هو النور الإلهي الذي يطلقك من أسر الملاذ الدنيوية فلا تعود ترى الحياة عبارة عن مخزن لملاذ وثروات يُبذل في سبيل تحصيلها كل شيء حتى أقدس شيء، بل تراها شيئاً جدياً مقدساً مشتركاً بينك وبين غيرك عليك فيه واجب ولك حق. وبعبارة واحدة نقول إنه كل الإنسانية في الإنسان وبدونه لا تسوى الحياة قشرة بصل.

هذا شيء من تعريف الروح الأدبي المطلوب إنشاؤه نجعله ختام هذا المقال الطويل. أما المدرسة التي أشار إليها جناب الأستاذ ضومط وذكرناها في صدر الكلام فيسرنا أن تكون الكلية الأميركية شاعرة بالحاجة إليها لأن اختلاط الصغار بالكبار في المدارس الكبرى قد يضر الصغار ضرراً بليغاً. وكفى ما تقدم بياناً لأهمية أمثال هذه المدرسة.

الجزء الثامن، تشرين الثاني 1903

مسألة السوريين في أميركا

لا تدخل "مجلة السيدات" في مسائل كهذه المسألة، ولكن من المبادئ ما يجب تعميم نشره بكل الطرق. والمسألة التي نحن في صددها بهذا الفصل اختلاف

جريدة "المناظر" الغراء وجريدة "المهاجر" الغراء في أميركا بشأن "اندغام السوريين المهاجرين إلى تلك الاصقاع في الأمم التي يعيشون فيها وتركهم جنسيتهم". وقد اتفقت الرصيفتان على تحكيم أربعة من أهل البحث في مصر. وهذا رأي أحدهم (صاحب الجامعة) نشره في رسالة مطوّلة فاقتطفنا منه ما يلي:

المقصود هنا من معنى الوطنية

"عندما كنت اذكر في ما تقدم (الوطن) (والوطنية) كنتُ أعني كما تقدم الكلام وطن السوريين الصغير أي سوريا. وربما يُقال أن الوطن والوطنية مسألة وهمية خيالية وبذلك يُفتح باب البحث في هل حب الوطن غريزي أم لا؟ وهل هو مقدس أم لا؟ وهل على الإنسان واجبات له يجب أن يفتديها بنفسه أم لا؟ (هذا في البلاد التي فيها وطن حقيقي وتاريخ مجيد). ولكن فراراً من الدخول في هذا التيه الذي انقسم فيه الباحثون فرقاً وتشعبوا طرقاً، نحصر الوطن في مسألة لا تقتضي نظراً وليست من الخيال في شيء فنقول إن وطن السوري ليس بأرض سوريا التي فيها تراب أجداده وآبائه وأحبائه، ولا تاريخها السعيد والتعيس معاً، ولا جبالها الجميلة البيضاء، ولا تربتها الخضراء، ولا شواطئها الزرقاء. فإن كل هذه أمور قد يجوز أن يسمى حبها خيالياً. ولكن هل يجوز أن نسمي (بقية الأمة السورية القديمة) أمراً خيالياً أيضاً. كلا فإن هذه مسألة مجسمة لا تُنكر. ومن يشك في أن هنالك بقية أمة تعيسة فليزر مدن الشام وقراها وليشاهدها بعينيه. فمتى قلنا (وطن ووطنية) فإننا لا نعني (المكان) فقط بل نعني (السكان) بالأكثر. فماذا نفعل ببقية هذه الأمة القديمة، هل نتركها للأقدار والفقر والمصائب في بلادها الفقيرة؟ أم ننصحها بالمهاجرة؟ أم نساعدها؟ "أما تركها فهذا ما يُسمى في عرف بعضهم (خيانة)، أما نصيحتها بهجر بلادها إلى الأبد فهي أمر جائز مع كونها متعلقة بأرضها القديمة لو كان ذلك سهل التنفيذ. وحينئذٍ تنحلّ المشكلة من تلقاء نفسها.

ولكن فلنفرض أن هذا الحلّ سهل التنفيذ فهل هو مما ترتاح إليه النفوس وينطبق على مصلحة ذلك الشعب الذي قاسى ما قاساه إلى الآن في سبيل حفظ أرضه حتى إذا بدأ الإخاء بينه وبين مواطنه وشريكه الجديد بعد قرون الخصام والنزاع وتقرر نظام جديد يعامل الفريقين معاملة واحدة ولا ينقصه غير التنفيذ – هل لما وصل هذا الشعب إلى هنا بعد تضحية ما ضحاه في هذا السبيل نقول له أهجر هذه الأرض بدل أن يقال له انتظر عناية الله ورحمته بك وبمواطنيك في المستقبل الأبدي. لا أعلم. بقيت المساعدة، وهذا معنى الطلب إلى المهاجرين أن لا يقطعوا صلاتهم بوطنهم.

فالخلاف الكلي مثلاً هو أن يقول المهاجرون بعد هذا التفصيل: نحن لا يهمنا غير أنفسنا أما بقية الأمة فلتخلص نفسها كما تشاء وبقدر ما تستطيع إذ لا يحاسب الإنسان إلا عن نفسه. قلتُ – حينئذٍ لا تبقى حاجة للتحكيم في هذه المسألة لأنها تكون مفصولة من نفسها لأن القائل بترك الجنسية متى بلغت به الإثرة هذا الحد وقال هذا القول يكون قوله بمثابة التصريح بأن لا وطن له وإنما وطنه فائدته فحيثما وجدها التقطها. وبعبارة أوضح أقول إنه في طلبه الجنسية الجديدة القوية يطلب حقوقها أو منافعها وينبذ واجباتها أي الفروض التي تفرضها عليه هذه الجنسية وأولها الأمانة. وهو ينبذها بمجرد فعله وإن لم يصرّح بذلك. لأن من لم يكن أميناً في حياته للناس الذين نشأ بينهم وحملوا أثقاله وأثقال الذين أوجدوه في الحياة قبله كيف يكون أميناً للناس الغرباء الذين يطلب التعرف بهم من جديد. وحينئذٍ قد يجوز لهؤلاء أن يقولوا له اذهب وفِ دينك لرفاقك الأولين المساكين ثم تعال واتخذنا رفاقاً.

وعلى هذا لا يعود الخلاف في المسألة (خلافاً أدبياً أو سياسياً) بل يصبح (خلافاً فلسفياً) بين مبدأين: مبدأ الـIDEALISTES وهم الذين يبنون أفعالهم

وأقوالهم على الفكر والواجب، ومبدأ الـUTILITAIRES وهم الذين يبنون مبدأهم على الفائدة والنفع ويقدمونهما على كل شيء. والإنسانية منذ وُجدت في الأرض مقسومة بين هذين المبدأين، ولذلك يسميهما بعض الفلاسفة "إنسانيتين" لا مبدأين وذلك لتباين طبيعتهما. وأنصار كل مبدأ من هذين المبدأين يشنعون على أنصار المبدأ الآخر حتى فلاسفتهم. فإن المؤرخ الفيلسوف الإنكليزي كارليل كان من حزب الـIDEALISTES فكان يسمي فلسفة خصومه الـUTILITAIRES ومنهم الفيلسوف سبنسر المشهور (فلسفة الخنازير). وقد ردّ عليه الفيلسوف سبنسر في تاريخ حياته الذي نُشر بعد موته ردّاً عنيفاً قارصاً ونسبه إلى الجهل لهذه التسمية. وأن جميع أفعال الناس وأقوالهم وكتابات الكتاب وآراءهم كلها يمكن ردّها إلى هذين المبدأين. ولذلك كثيراً ما تجدهم يتناظرون ويتخاصمون في أمر، وكل منهم يدعي أن الحق ظاهر في جانبه ظهور الشمس. ولا يكون في الحقيقة سبب لخصامهما واحتدامهما غير كون أحدهما IDEALISTES والآخر UTILITAIRES. ومما لا يحتاج إلى إثبات وغني عن كل بيان أن كلا هذين المبدأين ضروري لازم للإنسانية في الأرض. فالأرض لولا الـ IDEALISTES لكانت مزبلة منتنة. ولولا الـUTILITAIRES لما كانت عامرة عمرانها الحالي، وإن كان تولستوي كبير الـIDEALISTES في هذا العصر يقول إنه خير للبشر أن يعيشوا في البساطة والطهارة من عيشهم في عمران كهذا العمران البشر فيه يأكلون بعضهم بعضاً. ولكن خير الأمور في الحالة الحاضرة الوسط بين هذين المبدأين أي الاعتدال بينهما. وكل من قرأ شيئاً عن الولايات المتحدة وعن البرازيل علم أن الأولى UTILITAIRES بالطبع والثانية IDEALISTES بالطبع. ويظهر أن "المهاجر" من حزب الأولى كما أن "المناظر" من حزب الثانية لتأثير الوسط عليهما تأثيراً ظاهراً في كتاباتهما أيضاً. فدعوة كل واحد منهما ضرورية للمهاجرين، وكل واحد منهما يقوم بواجب عليه لبني وطنه. "المناظر" بحثه المهاجرين على أن لا ينسوا

وطـنهم، و"المهـاجر" بحـثّهم علــى أن لا يتركـوا الفوائـد تفـوتهم. وفــي ظنــي أن المهاجرين سيكونون في المستقبل حزبين أيضاً تبعاً لهذين المبدأين. فمن كانت منهم طبيعته IDEALISTES عمل برأي "المناظر" لأن قلبه لا يمكن أن ينسى وطنـه. ومـن كانـت طبيعتـه UTILITAIRES عمـل بـرأي "المهـاجر" وسـدّ العـزّ والثروة في نفسه مسدّ حب الوطن. ولعلّ هذا أحسن حلّ للمسألة إذ فيه حفظ حقوق الجميع".

وجاء في ختام الرسالة ما يلي:

"ولكن أيها الإخوان ليست الآخرة وحدها خيراً من هذه الدنيا بل أن أميركا أيضاً خير منها. فتعلموا صناعة أو زراعة أو تجارة وارحلوا إليها أفواجاً أفواجاً. فهناك تتحررون من (عبودية العقيدة وعبودية رأس المال). وإن كنتم تدخلون فيها في طور جديد فيه جهاد جديد وشأن جديد فلكم على الأقل حريتكم. ومتى عدتم إلى الوطن أقوياء اغنياء ترون الذين كانوا يهملونكم كيف يتهافتون عليكم (لسؤال خاطركم). ولكن إذا جاز لأخ مخلص لكم مراقب لحركاتكم وسكناتكم أن يقدم لكم نصيحة فإنني أصرح بما كتبتُ كل هذه التفاصيل للوصول إليه وهو: لا تنقلوا إلى بلاد هجرتكم العظيمة شيئاً من أمراض وطنكم. أعطوا الرهبان والكنائس والكهنة والأديرة بقدر ما يطلبون "وإن كانوا لا يشبعون" فأنتم أسخياء كرماء. ولقد نفعوكم في ما مضى فيجب أن لا تهملوهم الآن كما يهملون إخوانكم ويستأثرون بخيرات الأمة وأوقافها دونهم. ولكن لا تتركوهم يفعلون عندكم ما يفعلونه في وطنكم. وخير لكم أن يكون لكم إكليروس عربي مستقل مرجعه إلى الإكليروس المحلي الأميركي لأنـه أقـدر مـن غيـره علـى إفـادتكم بنفـوذه ومبادئـه. وعلـى الخصـوص لا تتركـوا هداياكم إلى الكنائس والأديرة وعلائقكم مع الرؤساء والرهبان تكون سبباً للمرض المشهور وهو انقسامكم بعضكم على بعض، ولا أن تنسيكم "بقية أمتكم" المقيمة في

الوطن والمهاجرة إليكم. نعم إنكم لا تزالون الآن في أول قوتكم فإذا لم تفعلوا شيئاً كبيراً لوطنكم فهو يعذركم ولكنكم في المستقبل ستكونون بإذن الله قوة عظيمة لسوريا مالياً وأدبياً وسياسياً. وحينئذٍ تفتخر بكم سوريا كما افتخرت فينيقيا "وهي هي" بقرطجنة التي بناها الفينيقيون في إفريقيا ونازعت بعد ذلك السلطنة الرومانية السيادة دهراً طويلاً. أنتم في بلاد حرة نشيطة جديدة يقول رئيسها روزفلت في أحد كتبه "إن الحكومة التي لا تُبنى على النزاهة والاستقامة المطلقة حكومة ساقطة لا تدوم". ويقول المستر كرنيجي غنيها المشهور ونادرتها الغريبة "سيأتي يوم يكون فيه كل غني يموت دون أن يوزع أمواله موصوماً عند الناس بوصمة العار"، ثم أنه يطبق قوله على فعله. ويقول فيها أحد أساقفتها "سفينة خلاص المسيحية أن يكون شعارها "الله والشعب" كما كانت في بدء أمرها. فاحملوا أيها الإخوان من هذه المبادئ إلى الوطن في جرائدكم وصدوركم ولا تنقلوا شيئاً من مبادئه إليكم. وإذا كنا مع ضعفكم الآن وقوة كثيرين من رؤساء وأغنياء السوريين في سوريا وغيرها نعتمد للمستقبل عليكم لا عليهم فما ذلك إلا لأن هذه ستكون مبادئكم. أما مبادئهم هم فكما تعلمون. إن أنفاس الحرية والوطنية قد مرّت عليكم وأنتم في أميركا فأنعشت نفوسكم، وأما هم فلا يفهمون شيئاً غير مصالحهم لأنهم نسوا الحرية منذ أزمان والوطن صار عندهم اسماً لغير مسمى. وكل قوة تنهض من الأمة وتعلو باستقلال ولا تكون في خدمتهم يعتبرونها ضدهم فيطلبون إما إذلالها أو إفناءها بدل صرف قوتها في نفع أمتها وأمتهم. وهكذا يكونون كمفتين للنشاط والذكاء في الأمة بدل أن يحيوه. وأنكم تعلمون أنه لو اتفق خمسة أغنياء فقط من أبناء هذه الأمة لأوجدوا الجميع أبناء وطنهم في سهول البقاع أو حلب أو ما بين النهرين بل في مصر والسودان مزارع واسعة ترد الحاجة عن "بقية الأمة القديمة" وتجعلها قوة عظيمة كما يفعل اليهود وزعيمهم روتشيلد في أبناء أمتهم في فلسطين وأفريقيا وغيرها إذ يجمعون كلمتهم ويضاعفون قواهم وينشئون لهم وسطاً صالحاً للنمو والتقدم. ولكن

ما لهم وهذه الثقل كلها إنهم أغنياء وجهاء لأنفسهم لا لأمتهم. أي أنهم حمل على أمتهم لا عون لها. فكيف يجوز لكم إذاً أيها الإخوان التفكير في ترك هذه الأمة في زمن تكون فيه هذه أفكار رؤسائها وأغنيائها.

ذلك ما أجعله خاتمة رأيي في أن لا تقطعوا صلاتكم بوطنكم. حتى إذا تغيرت مجاري الإنسانية في المستقبل. وتقررت العدالة (السياسية والاجتماعية) بين الأفراد وبين الشعوب قولاً وفعلاً. وامتزجت العناصر والمذاهب في وطنكم امتزاج الراح بالماء والسكر بالعسل فصاروا كلهم أمة واحدة جديدة يشعرون بعضهم بآلام بعض. وعاد رؤساء السوريين – من كل العناصر – وأغنياؤهم وحكامهم إلى عواطف أكرم وأعدل من عواطفهم اليوم قصاراها التفاني في ترقية شأن البلاد والشعب إجمالاً لا جعلها مرتعاً لطبقة منها (وهذا ما يُنتظر من طبيعة الشرقيين الكريمة إذا استسلموا إلى طبائعهم) فيمكنكم حينئذ أن تمدوا أيديكم من وراء البحار وتسلموا على سوريا سلام الوداع وتغيبوا في التنور الأميركي ليجعل هذا التنور فضتكم السورية ذهباً أميركياً بحتاً. وحينئذٍ لا يجوز لسوريا أن تلومكم لأنها هي نفسها تكون غابت في تنور كبير آخر. ويكون الافتراق يومئذٍ بين الأم والأولاد المقيمين وراء البحار مبنياً على الاتفاق والاختيار والمصلحة المشتركة لا على إثرة أحد الفريقين. وهي حينئذٍ تودعكم بابتسام لا بعبوسة وازورار. وعظام أجدادكم وآبائكم وأحبائكم في تربتها تدعو لكم".

انتهى

اليهود والسوريون: قال كاتب هذه السطور: وهذه المسألة التي ثار غبارها بين السوريين في أميركا قد ثار غبارها أيضاً بين الإسرائيليين قبل السوريين. فإن الإسرائيليين اليوم أيضاً قسمان، قسم يوجب (الاندغام) ولكنه يدعو

إليه في الظاهر فقط، وقسم يقول إنه ليس من الرأي والعدل أن تترك أمة نفسها وتوجد الفشل والانحلال بين صفوفها لمصلحة أفراد منها.

ومن غريب الاتفاق إننا بعد كتابة ما تقدم عثرنا على مقالة مهمة بقلم العالم الإسرائيلي المشهور المسيو ريناخ الذي هو من أكابر الثقاة بين علماء أوروبا وأميركا ختمها بما خلاصته (أنه متى ذهب أثر الانقسامات الدينية والجنسية من العالم وعمّ العدل والمساواة جميع البشر فما يسمونه عزلة اليهود وانفرادهم يذهب من نفسه ويندغمون حينئذٍ في باقي الأمم بلا ضرر ولا مانع). وهذا القول شبيه بالرأي الذي تقدم بسطه. وقد قال المسيو ريناخ هذا القول لأن كثيرين من الساسة يلومون الإسرائيليين لاعتصابهم في أي بلد كانوا عصبة واحدة. وفي الحقيقة أن بقاء هذه الأمة القديمة قروناً عديدة بعد تشتت شملها حافظة تقاليدها وكيانها الاجتماعي الأول مع أنها عاشت بين أرقى الأمم وأقواها لدليل على أن في نفس الإنسان شيئاً أقوى من الطبيعة نفسها، لا بل أن هذا البقاء نفسه من نواميس الطبيعة الأبدية.

العدد 2، السنة 2، كانون الأول 1904

السوريون في مصر

(تابع "رأي في مسألة" لصاحب الجامعة)

ورد في رسالة صاحب "الجامعة" الأخيرة بشأن المناظرة بين جريدتي "المناظر" البرازيلية و"المهاجر" النيويوركية مباحث وآراء أدى إليها الاستطراد ولا يخلو نشرها من فائدة زيادة في توجيه الأنظار إليها. وقد نشرت "مجلة السيدات"

في جزئها السابق، ولئن كان ليس من شؤونها أن تدخل في أمثال هذه المواضيع، فصلاً من تلك الرسالة وهي الآن تنشر فصلاً آخر مختصاً بالسوريين في مصر.

وقد أدى بصاحب الجامعة إلى هذا البحث ما ورد في الرسالة من أن السوريين المهاجرين إلى أميركا لهم أن يدخلوا في جنسية الأمم التي يعيشون في بلادها إذا لم يكن بينهم وبين تلك الأمم موانع تمنع من امتزاجهم بهم جدّ الامتزاج، وكانوا لا يجدون الضرر بدل الفائدة في هذا الدخول لكون الأمة التي يريدون الدخول فيها ضعيفة لا تستحق أن يترك المرء جنسيته وبلاده من أجلها. ومن ذلك وقع الاستطراد إلى السوريين في مصر.

وإليك ما جاء في الرسالة بهذا الشأن:

"ولست أجهل أن هنا اعتراضاً مهماً. فرُبّ قائل يقول "وأنتم أيها العثمانيون (المتمصرون) لماذا تصرّون على طلب الاندماج في الجنسية المصرية مع أن بين مصر والبرازيل شبهاً من بعض الوجوه في هذا الشأن. فإننا نسمع حتى من هنا (أميركا) صراخ بعض الجرائد عليكم وإهانتها لكم. وإن قلتم إنكم لا تعبأون بأهواء الأفراد وصراخهم ما دامت المحاكم تنصفكم والحكومة لا تتعرض لكم فنحن نقول بل أنها تتعرض لكم. فإن قانونها الذي يقضي بأن لا يُعد مصرياً إلا من يقيم في مصر (15 عاماً) لهو بمثابة إشارة خفية معناها إنني لا أريدكم. تقولون 15 عاماً؟ فلا بأس باحتمالها. وننصحكم أن تنشدوا في أثناء هذه المدة الطويلة النشيد المعروف (عرف الحبيب مقامه فتدللا) فإن هذا مما يساعدكم على قطع هذا العمر الطويل إذا كنتم ترغبون في الجنسية المصرية. ولكن ماذا نسمع؟ هوذا سعادة شكور باشا الرئيس السابق للمجلس البلدي الإسكندري (وُلد) وشبّ وشاب في مصر ومع ذلك فقد اتفقت كل الجرائد على إسقاطه أيام حادثته المشهورة. بعضها

(وهي الوطنية) لأنه سوري وبعضها (وهي الإفرنجية) لأنه آسيوي[1] فكيف إذاً يجوز للعثمانيين في مصر ما لا يجوز لهم في البرازيل مع أن الشبه بينهم قريب من بعض الوجوه؟

قلنا كلا ليس الشبه بقريب بل هو بعيد. فأولاً أن مصر (ارض عثمانية) والعثماني متى أقام فيها أقام في (وطنه وبلاده) وإن لم يتمصر، فكيف به إذا تمصر. أي أنه يملك بحق الطبع والشرع حق (الوطنية) أعطوه إياه أم لم يعطوه. ولا يقدر أحد غير جلالة السلطان على أن ينزع منه هذا الحق. وثانياً إن بين عثمانيي سوريا وعثمانيي مصر (أي إخواننا المصريين مسلمين ومسيحيين) روابط وجامعات غير الوطنية أهمها اللغة والجوار والإلفة والأخلاق والعادات فضلاً عن المصلحة المشتركة التي هي من أقوى الروابط. إذاً لا شبه بين البرازيل ومصر من هذا الوجه قطعياً.

أما ما تسمعونه أحياناً أيها الإخوان مما أُشير إليه في القول المذكور آنفاً فيسرّني أن اغتنم هذه الفرصة لأقول فيه كلمة إذا كنتم تسمحون لي بذلك.

وأول ما أقوله ترديد عبارة جريدة "المنارة" بالابتعاد عن السياسة قبل كل شيء. فإنه في رأيي العاجز ما أضرّ بالسوريين في مصر شيء كالسياسة. فإن دولة رياض باشا الذي كان يميل إليهم من قبل وينشطهم ويساعدهم لم ينقلب ويضع قانونه المشهور (15 سنة للتجنس بالجنسية المصرية وعدم قبول أحد غير المصريين في وظائف الحكومة) إلا نكاية بهم وبالصحافيين القادرين الذين أصبحوا يقاومونه منهم. ولست أعلم هل كان دولته يعتقد بأن جميع السوريين كانوا وراء الذين يقاومونه فأراد التفريق بين الأخوين المصري والسوري بذلك النظام

---

[1] Asiatique وهي كلمة احتقار عند الأوروبيين كما هو معلوم ولعلها نفضت عنها شيئاً من هذا الاحتقار بعد حرب اليابان.

الجديد انتقاماً منهم أم رام الانتقام من بضعة أفراد فضرب جنساً بأسره؟[1] ومن الغرائب المضحكة أنه بينما كان رياض باشا يضرب السوريين بنظامه ظنّاً منه بأنه يضربهم بإقفال أبواب الوظائف في وجوههم كانت الوكالة البريطانية تطلب برهاناً على أن السوريين ليسوا من فرنسا وجريدة "الأهرام". والحقيقة على ما أظن كانت – كما هي دائماً – بين الجانبين. فإنه لم يكن من السوريين يومئذٍ في حزب الإنكليز وحزب الفرنسويين إلا الذين اتخذوا السياسة شغلاً لهم أو الذين لا شغل لهم أو الذين وُلوا وظائف الحكومة. وأما من بقي من السوريين تجاراً وصناعاً وزراعاً فقد كانوا مشغولين بشغلهم اليومي الدائم لا يهمهم إنكليز ولا فرنسيس وإنما يهمهم رواج أعمالهم. وهؤلاء العاملون النشيطون المستقلون لا يزالون كذلك إلى اليوم. ونظام رياض باشا لم يُسقط شعرة من شعرهم ولا أفقدهم غرشاً من أموالهم. بل كانت كل الخسارة في جانب أصحاب الوظائف. ولكنها كانت خسارة وقتية بل كانت ربحاً وفائدة لهم لأن إخواننا المصريين أنفسهم أصبحوا يهجرون الوظائف إلى الأعمال الحرة – تجارية وصناعية وزراعية.

فالسياسة إذاً هي التي كانت سبب اضطهاد السوريين في مصر من قديم. وهي التي جعلتهم متّهمين في ذلك الزمن عند الفريقين. أما في السنوات الأخيرة

---

[1] وإن قيل ذلك كان لحماية الوظائف المصرية وحفظها لأبناء البلاد قلنا إن دولة رياض باشا كان يعتبر مبدأ (الحماية) Protectionisme من مبادئ التأخر وهذا أيضاً رأي أكابر أهل الاقتصاد السياسي في كل مكان. وقد كتب دولته كتاباً لأحد أصدقائه في لندن سنة 1880 وهو يومئذٍ رئيس النظار وكان صديقه هذا يسأله أن (يضع أصول الحماية مؤقتاً لأهل زراعة الحنطة لأنها لم تترق بمصر) فأجابه دولته في خاتمة كتابه (محبي العزيز، إن الأصول والقواعد التي يجب أن نأخذها من العالم المتمدن يجب علينا أن نختارها من أصحاب الأفكار الجديدة ذات الترقي غير غافلين عن مقاومة الذين يريدون إجراء أمور من تصورات أصحاب الأفكار القديمة في أوروبا التي مضى وقتها) "جريدة المحروسة القديمة عدد يوم الاثنين 26 يوليو 1880" قلنا. ومن هذا يظهر أن دولته يكره مبدأ الحماية لأنها من مبادئ التأخر والأفكار القديمة. ولو كان دولته في إنكلترا لكان من خصوم المستر تشمبرلن وأنصار (حرية المعاملة). إلا أن دولته يكره (مبدأ الحماية) في الزراعة والتجارة ولا يكرهها في الاستخدام والوظائف على ما يظهر.

(فصناعة الصحافة) هي السبب في التعكير السطحي الذي يشاهد في مصر بين السوريين والمصريين. وهي علة ما تسمعونه أحياناً من عندكم من الصياح والصراخ. وبعبارة أوضح أقول إن الصحافة المصرية الإسلامية كانت (قبل أن تنقسم على ذاتها بالحادث الأخير) لا تجد سبيلاً لمزاحمة الصحافة السورية القديمة إلا من طريق الدين والوطنية. ومما زاد الطين بلّة أنه وجد بين هذه الصحافة الأخيرة صحافة مروّجة لمصالح محتلي البلاد (عن مبدأ كان ذلك أو عن منفعة) فكان هذا الأمر من أعظم الأسباب التي ساعدت على النفار الوقتي السطحي الذي أشرت إليه آنفاً. لأن الصحافة الوطنية المذكورة كانت إما دفاعاً عن أحزابها أو ترويجاً لمصالحها الصحافية تحارب الصحافة الأخرى التي في جانب الاحتلال حرب العدو اللدود للعدو اللدود. وفي أبان حماسة المناظرة والمقارعة تتهم جميع السوريين بالتهم التي تتهم بها هذه الصحافة لأن أصحابها سوريون. فهي توجه إلى أمة بأسرها الخصام الذي بينها وبين أفراد من هذه الأمة لظنها أن جميع أبناء تلك الأمة من حزب خصومها، مع أنه لم تكن تقتضي معرفة الحقيقة لو كانت تريدها بإخلاص سوى النظر إلى تاريخ المرحومين بشاره وسليم تقلا مؤسسي "الأهرام" أو غيرهما من أبناء أمتهم الذين كانوا في جانبهم أو الذين التزموا الحيادة بين الفريقين. نعم لا نجهل أن بعض المظاهرات في بعض الأحوال مما يترك سبيلاً لسوء الظن ولكن لو لم تكن النفوس مستعدة لسوء الظن هذا لحملت تلك المظاهرات على محمل المظاهرات الإفرادية لا الجمهورية. فإن سعادة شكور باشا لما وقف وقال في خطبة طويلة ما خلاصته (إنه يجب على السوريين أن يتحدوا في مصر وأن حكمة الله التي لا تُدرك هي التي قيدت مصر بالاحتلال) إنما كان يتكلم كأحد الأفراد لا بلسان جمهور. وإن شئت فقل إنه كان ينطق بلسان من يخطب ود قوم لمنفعة وعدل يرجوهما عندهم بعد ما رأى أن كل تعبه في خدمة الإسكندرية لم يلق عند خصومه الذين حملوا عليه تلك الحملات من جزاء غير

التحامل والظلم لأنه سوري وآسيوي. وليس نشر خطبته في جريدة سورية دليلاً على أن جميع السوريين موافقون على إيجاد التضامن بين مبادئهم ومصالحهم ومبادئه ومصالحه ليكون لسان حالهم فإنه من المشهور في بلادنا أن كل جريدة تنطق بلسان صاحبها ومحررها لا بلسان جمهور وراءها إذ لا جمهور إلا حيث يوجد رأي عام فعّال. فالحملة على جميع السوريين في مصر بسبب خطبة شكور باشا كانت أمراً بارداً في غير محله. ولكن الحق يقال أن شكور باشا نسي مصابه هذا بعد ما رآه من الحملة على دولتلو رياض باشا نفسه بسبب خطبته المشهورة حديثاً. وهنا وصلتُ إلى أساس كلامي. فأقول إنني كفرد من السوريين في مصر أرى في رأيي العاجز أنه ينبغي أن لا يكون لنا في السياسة رأي عنيف مع الاحتلال ولا ضده. بل يجب أن نكون مسالمين للجميع. فنحن في مصر من حزب أهل الإصلاح "في كل ما هو إصلاح حقيقي خصوصاً للشعب المصري". ولكن إذا تناقضت مصالح الشعب المصري الاجتماعية ومصالح أهل الإصلاح السياسية فكل ذي شعور وقلب لا يمكن إلا أن يكون مع أختنا مصر مهما كانت الحال في السراء والضراء. وإذا كانت مصر أحياناً مغلوبة على أمرها في هذا التنازع فمن الناس من يؤثرون أن يكونوا مع المغلوبين على أن يكونوا مع الغالبين ويجدون في ذلك ارتياحاً. فلأهل البلاد – رياض باشا مثلاً – أن يقولوا هل يريدون الاحتلال أم لا يريدونه وهل يسالمونه أم لا يسالمونه. أما نحن فيجب علينا احترام عواطفهم إذا أنكروه كما يجب علينا مسالمته لأننا عائشون تحت سلطته. وليس من مصلحتنا ولا من شأننا مقاومته إذ له حزب من أبناء البلاد نفسها وعلينا احترام عواطف هؤلاء كما علينا احترام عواطف أولئك.

ولست أريد بما تقدم أن سلوكنا هذا المسلك في مصر يُبطل النزاع والخصام فيها بين الأخوين المتحاسدين، فإن هذا القول لا يقول به إلا كل من يجهل أن هذا الاحتكاك لا بدّ منه في المصالح والعواطف بين أقوام تختلف

أخلاقهم وعاداتهم وتربيتهم بعض الاختلاف. وربّ أخوين ينشئان في بيت واحد وفي مهد واحد لا يسلمان من هذا الاحتكاك والنزاع حالما يستقلان ويسيران في الحياة جنباً إلى جنب. فالاحتكاك والتنازع بين الأفراد وبين الأقوام لا بدّ منه ما دام الإنسان إنساناً. والذي يُرجى أن يبطل أو ينقص في أفعالهم وأقوالهم ليس تنازعهم نفسه إذ له أسباب اجتماعية وطبيعية وسياسية ووراثية لا يزول إلا بزوالها. وإنما الذي يُرجى أن يبطل أو ينقص في البشر مع حسن تربيتهم وانتباه العواطف الكريمة في نفوسهم شيئاً فشيئاً هو شدة تعصبهم كل فريق لنفسه ولقومه وعدولهم عنه إلى حمل بعضهم بعضاً لحسن ظنهم بعضهم ببعض. وهذا شأن الطبقة الراقية اليوم من جميع العناصر في جميع البلدان لا في مصر فقط. ودأب هذه الطبقة في كل مكان أن تنظر إلى ما يجمع لا إلى ما يفرق والى ما يرتق لا إلى ما يفتق إذ لا مصلحة لها في التحريض وزرع بذور البغض بين البشر، وليست صدورها ضيقة إلى حد أنها لا تسع مبدأها فتخرجه منها بقوة لتوزعه على الناس بقوة. ويحق لمصر بأن تفتخر بفريق عظيم من هؤلاء العقلاء الفضلاء الذين هم قبلة آمالها في المستقبل وحجتها على من ينكر ارتقاءها الأدبي.

كلا، ليس المراد بما تقدم أن اجتناب السياسة يذهب بكل أسباب الاحتكاك وإنما المراد أن يكون لضيوف مصر نظر إلى مصر من وراء أحزابها الحاضرة. فإن مصر باقية ثابتة أبدية وأما الأحزاب فواهية واهنة ذاهبة. فإن أخف نسمة هواء تذهب بها وأقل نسيم يسقطها. وهذا معنى قولي أن نكون مع مصر نفسها لا مع هؤلاء ولا مع أولئك. ذلك أن هؤلاء وأولئك ليسوا مصر كلها. وإنما مصر الحقيقية، مصر التي يجب علينا رعاية خاطرها وإكرامها في السراء والضراء هي مجموع (الشعب المصري) وأبنائه الكرام الذين أخذوا يخرجون منه حين انفتحت في وجهه أبواب التقدم وارتقوا بجدّهم واستعدادهم إلى أسمى الدرجات دون أن يلوثوا ارتقاءهم بالضغط على أبناء جنسهم أي امتصاص دمائهم والمعيشة من عرقهم كما تفعل

الطبقة العليا التي تعيش كالعلق على جسم ذلك الشعب وتغتصب أرضه وأطيانه تارة تحت ستار القانون وتارة بوضع اليد وأخرى (بالمحسوبية) للأمراء السابقين. وكل خير يُفعل مع ذلك الشعب الذي هو مصر الحقيقية يجب أن نكون نحن من أنصاره سواء كان وارداً من هؤلاء أو أولئك. فلما نرى الأجانب عن البلاد مثلاً يديرون زمام أمور البلاد المادية بقسط وعدل وحرية بقدر الإمكان، لما نرى الأعمال العظيمة التي يعملونها في الري والزراعة وحرصهم (ولو في الظاهر) على جعل سلطة القانون فوق كل سلطة – لا يسعنا إلا الإعجاب بهذا الخير الذي هو أساس كل أمة وبدونه يصير موت الأمم خيراً من حياتها. وكل ذي مسكة من العقل يشكر لهم حسن إدارتهم هذه ويثني عليهم لإخراجهم مصر من حال إلى حال. ولكن لما نرى من جهة أخرى حملة الماليين والشركات على مصر لاحتكارها والانتفاع بتلك الخيرات التي تُنشأ بمال الشعب المصري دون أن ينتفع بها هذا الشعب لعجز أفراده عن المزاحمة وجهله الوسائط الكبرى المعينة عليها وأريد بها تأليف الجمعيات لتوازن قوتها قوة الشركات والأفراد الأقوياء. لما نسمع ما يتهم به (الحزب الوطني) أهل الإصلاح بأنهم يكرهون ارتقاء مصر أدبياً لأن الارتقاء الأدبي يجرها إلى الاستقلال السياسي ولذلك لا يعملون شيئاً له. ونسمع جريدة كبيرة وطنية كجريدة "المؤيد" التي صارت معتدلة مسالمة للاحتلال تقول في كلامها على التربية في مصر إن الأمة لا ينبغي أن تعتمد على أولي الأمر في مصر بشأن التربية والتعليم (لأنهم لا يريدون أن نُرشد كما يرشدون) أي أن من مصلحة الاحتلال أن تبقى مصر تحت وصايته كالطفل الصغير – لما نسمع ونرى كل هذا لا يسع ضيوف مصر إلا أن يكونوا في جانب هذا الرجل الذي يُراد تركه طفلاً. وهذا معنى قولي أن نكون مع الشعب المصري والذين يخدمونه بإخلاص سواء كانوا غرباء أو أقرباء وعدم النظر إلى الأحزاب لأن الضرر والشر

لا يردان من الخارج دوماً. وربّ خطب كخطب الثورة العرابية يكون أجلّ من الخطوب الخارجية.

وهنا أرى أيها الإخوان إنني شردتُ عن موضوعكم وأطلتُ الكلام في ما ليس له علاقة مهمة به. ولكنكم أنتم وقرّاؤكم تغتفرون لي ذلك ولا شكّ لعلمي أنكم لا تسأمون الكلام مهما طال عن مصر العزيزة عندنا وعندكم. بل إنني لم أخرج عن موضوعكم خروجاً تاماً. فإنني كنت أتكلم عن وجوب اجتناب الدخول دخولاً عنيفاً في المسائل السياسية في البلاد التي تكونون فيها ضيوفاً، والعلاقة قريبة بين الموضوعين كما تقدم".

الدولة العلية وعناصرها المتعددة[1]

وفي الرسالة المذكورة أيضاً كلام مختصر عن الدولة العثمانية وعناصرها المتعددة وحاضرها ومستقبلها أفضى إليه الاستطراد أيضاً إشباعاً للموضوع ولا يخلو إعادة نشره من فائدة وهو:

"للمهاجرين من سوريا إلى أميركا وطنان في الحقيقة لا وطن واحد. أحدهما كبير والآخر صغير. الأول (الدولة العثمانية) والثاني (القطعة السورية).

فالكلام السابق ذكره[2] يجوز أن يُقال مثلاً فيما يختصّ بالوطن الكبير، وقد قلت (يجوز) لأن هناك تنازعاً فيه. والجامعة منذ إنشائها إلى الآن من المتنازعين في ذلك. وهي لا تنازع فيه لإنكارها الحقائق الظاهرة بل لأنها تنظر إلى هذه المسألة من وجه آخر. فإنها ترى أن (المسألة الشرقية) مسألة أعيت البشر في

---

[1] المقصود هنا بالعناصر المتعددة العناصر الشرقية الآسيوية لا العناصر الأوروبية التي في (تركيا اوروبا) فإن هذه العناصر التي هي كشوكة في ظهر الدولة خارجة عن كلام الكاتب فوق.

[2] في الصفحة 13 من الرسالة وهو غير الكلام الذي تقدم آنفاً.

الأرض من زمن بعيد وأنه لا يُرجى حلها على ما يرومه كل فريق بل يجب على الجميع التساهل للوصول إلى شيء مقبول. فالذين يحلمون بهضم حقوق الفئة الضعيفة فيها وإقامة عظمة الدولة بذلك الهضم إنما هم قوم يحلمون لأن هذه الفئة مع قلتها تُبقي الدولة في شقاق وضعف دائم ما دامت مظلومة إذ ما أكثر الذين يتطوعون لإنصافها... وكذلك الذين يحلمون باقتسام الدول وأن في هذا الاقتسام راحة الفئة المسيحية المذكورة آنفاً، هم أيضاً يحلمون لأن تنازع الدول يقي الدولة من شرهم ما دام هذا التنازع. وفضلاً عن هذا فإن الفئة المسيحية المذكورة آنفاً لا تستفيد شيئاً كثيراً من انتقال بلادها من يد الدولة العثمانية إلى يد دولة أخرى لأن الدولة المحتلة تجعل محور سياستها الميل إلى العنصر الغالب القوي على العنصر الضعيف إرضاءً للأول واستمالة له لأن الضعيف راضٍ عنها طبعاً. ولا تظنوا أن هذا الرأي لي فإنه لجريدة "المقطم" المشهورة أبدته في أثناء القلق الذي حدث منذ نحو عامين لما ظهر في التقارير الرسمية الإنكليزية في مصر والسودان شيء من أثر التحريض والتحامل على المستخدمين السوريين والأقباط في السودان. وقالت يومئذٍ في مقالة طويلة ما معناه أن المسيحيين يكونون تحت حكم (الجامعة العثمانية) أكثر راحة منهم تحت حكم دولة أجنبية للسبب المذكور آنفاً. وقد أعجب كثيرون يومئذٍ بهذا القول وأدهشهم هذا الاستقلال البديع في الرأي.

فللأسباب التي تقدمت آنفاً نشأ جيل جديد يعتقد ما اعتقده مدحت باشا وفؤاد باشا وعالي باشا من أن العدل والحق والحرية والألفة والمساواة المطلقة – التي هي أساس ارتقاء كل دولة – يمكن أن تنبت في أرض دولتنا العلية كما نبتت في بلاد غيرها كانت أكثر تأخراً منها وكانت عناصرها متعددة كتعدد عناصرها. ولقد حاولوا ذلك إلى الآن فعلاً فلم تأتِ التجربة بالفائدة المقصودة ولكن كفى أن البذور قد وُضعت في الأرض. فإذا وجد في المستقبل رجال عظام في الآستانة وتعاهدوا هذه البذور بالعناية فإنها تنمو وتصبح أشجاراً باسقة جميلة. فإنه من

المشهور المقرر أن كل أمر يتقدم فيه الفكر على الفعل فتحدث ثورته في الأفكار وتختمر وتتم قبل حدوثها في الأفعال. ولقد حدثت ثورة (المساواة والعدل) في الأفكار في تركيا ولم يبقَ لها غير الانتقال من دائرة الفكر والقول إلى دائرة الفعل. ويكفي لبيان ذلك أن نقابل حالة المسيحيين اليوم في بلاد الدولة بحالتهم منذ مائة عام. فإننا نعلم من أجدادنا في أية حالة تعيسة كانوا يومئذٍ ونرى بأعيننا حالتهم الحاضرة. وكل من الفريقين – مسلمين ومسيحيين – صار له اليوم في الفريق الآخر إخوان وأصدقاء يسير معهم في الحياة جنباً إلى جنب ويداً بيد بإلفة تامة واتفاق تام في الأفكار حتى على الحكام أنفسهم. ولو قام أجداد الفريقين من قبورهم للبثوا مدهوشين من هذا الأمر دهراً طويلاً. ولعل هذه الإلفة هي التي جعلت غبريل شارم يقول في كتابه "مستقبل تركيا" إنه لما زار سوريا تحقق أن المسيحيين فيها والمسلمين متفقون على كراهة الأتراك حتى أنه لو كان الأمر إليهم لتعاونوا على إخراجهم من سوريا. وإنني أذكر هذا الرأي وكل واحد يعلم مبلغه من الصحة. فإن غبريل شارم رحمه الله في سياحته في سوريا وفلسطين كثيراً ما كان يستنتج الكليات من الجزئيات مع فساد القياس في كثير من الأحيان. ولكنني أذكره أيضاً للدلالة على ما بلغت إليه الإلفة بين العنصرين في سوريا في ذلك الزمن حتى أن السائح الغريب حينما يرى آثارها يظن ذلك الظن. فهنا أعود وأقول أين هذه الحالة من الحالة القديمة. أليس في ذلك شيء من البرهان على أن شيئاً مهماً قد تغير تحت سماء الشرق. وإذا صدّقنا غبريل شارم الكاتب السياسي البليغ والرجل العاقل الذي لو أمدّ الله في حياته لكان من مشاهير بلاده لأنه كان عضواً في مجلس النواب وهو شاب[1]، كان هذا التغير في يوم من الأيام أشد وأعظم. فإنه روى في كتابه "مستقبل تركيا" ما خلاصته أنه لما تقرر (مجلس المبعوثان) وسار نوابه إلى

[1] أستأذن القارئ في وضع هذا الثناء هنا للمرحوم غبريل شارم فإنني أرى ذلك مما يجب له عند أبناء اللغة العربية بعد تحامل المرحوم الطيب الذكر أديب بك اسحاق.

الآستانة هبّت على سكان تركيا على اختلاف عناصرهم ريح جديدة مزجت نفوسهم وأخلاقهم فزادت إلفتهم وإخاؤهم وفنيت جنسياتهم ومذاهبهم كلها في كلمة (عثماني) التي وُضعت لتشملهم كلهم. وأول ثمرة لهذا الاتحاد العام بينهم كان مقاومة أوروبا. وقد استغرب المؤلف هذا الأمر مع أنه لا موضع للاستغراب.

فمن كل ما تقدم يظهر أن الذين ينازعون في الأمر الذي تقدم ذكره ويرون إمكان جمع العناصر والمذاهب المختلفة بجامعة أساسها العدل والحق والمساواة المطلقة إذ ليس من سبيل غير ذلك هم قوم وإن كانوا يحلمون مع الحالمين إلا أن حلمهم كريم مبني على حب السلام للإنسانية في الأرض والاعتراف لكل عنصر من عناصرها بحقه في (الحرية والعدل والحياة العالية) وهذا الحلم قد يتحقق وقد لا يتحقق لأنه يتوقف على قوة عقول الرجال الذين يتولون شؤون الدولة أو على ضعفها".

العدد 3، السنة 2، كانون الثاني 1905

أدب

ضرورة المطالعة وضررها

المطالعة كالنار: تحرق المطالِع إذا كان ما يطالعه رديئاً وتنيره إذا كان مفيداً كثيراً ما يختلف الكتّاب والقرّاء في هذه المسألة "هل مطالعة الروايات مضرّة أم نافعة"؟ فمنهم من ينادي بضررها ومنهم بفائدتها. أما نحن فإننا نشبه المطالعة بالنار. فكما أن النار تُحرق الأصابع إذا دنت منها فهي أيضاً تنير البيت وتدفئه وتطبخ طعامه وتنشر فيه البخور وريح العود إذا ألقي فيها. فضررها وفائدتها إذاً إنما هما نسبيان، أي أنه إذا أحسن استعمالها كانت مفيدة وإذا أسيء في استعمالها كانت مضرة.

وعلى ذلك فمسألة فائدة الروايات والمطبوعات ومسألة ضررها متوقفة على حسن اختيارها.

كتب منذ مدة الكاتب الفرنسوي العصري "مارسل بريفو" مقالة في إحدى جرائد باريز عنوانها "الآداب والكتب" وقد تكلم فيها عن رواية للشاعر الألماني "جوت" المشهور مثّلها أحد ملاعب باريز في تلك الأثناء وعنوانها "ورتر"، فقال: إننا إذا أحصينا عدد الفتيان والفتيات الذين انتحروا بعد قراءتهم هذه الرواية وجدنا إنهم كثيرون جداً. وقد قال هذا الكاتب هذا القول لأن شاباً حاول الانتحار حين

حضوره هذه الرواية ليلة التمثيل في باريز. وسبب هذا الإغراء أن بطل الرواية الشاب ينتحر بطريقة مهيجة جداً على مرأى من حبيبته لأنها عقيلة. فكل محب تعيس يقرأها لا يتمالك من الانتحار. وقد كانت نتيجة مقالة الكاتب التي نحن في صددها "أن جوت كتب هذه الرواية وهو في الثانية والعشرين من عمره. ولذلك لم يبالِ بعواطف قرائه. وهكذا الكاتب في شبابه. ولكن متى تقدم الكاتب في العمر وصار صوته أبعد مدى وكلمته أشد نفوذاً وتأثيراً فإنه يصير حذِراً متخوفاً. ولذلك يعمد حينئذٍ إلى الفائدة لا إلى التأثير. ولولا ذلك لكانت المطبوعات سمّاً قتالاً".

ونحن لم ننقل خلاصة هذا الفصل إلا لنشير إلى المسؤولية العظمى التي على حملة الأقلام في هذا الموضوع. وقد جعلنا هذه الإشارة مقدمة على حثّ السيدات على المطالعة لأن ذلك شرط في هذه. ومعاذ الله أن نحثّ السيدات على مطالعة كل ما يُكتب وينشر في هذا الزمان.

ونحن نقول هذا القول بأسف. وإذا كان فيه ما يسوء فأسفنا يزداد. ولكن مع ازدياد أسفنا من ذلك لا نرى بدّاً من التصريح به في زمن صار كثيرون يقولون فيه إن المطبوعات لا تروج إلا إذا وضع فيها "شيء جذاب". ولسنا نخالفهم في أن "الشيء الجذاب" صار ضرورياً في عصر كهذا العصر لأن قراءه قد سئموا مطالعة الأشياء الجافة الناشفة التي هي عبارة عن أمور مضجرة متشابهة يُبحث فيها من جهات مختلفة بحثاً قد يكون واحداً وإن اختلفت وجوهه وأزمنته. ولكن لماذا لا يكون هذا "الشيء الجذاب" الذي صار ضرورياً في نجاح المطبوعات "شيئاً أدبياً" بدلاً من أن يكون "شيئاً غير أدبي".

وإذا قيل أن الفرنج الذين بلغوا أعلى درجات الحضارة لا تخلو كتبهم وجرائدهم من ذلك "الشيء الجذاب" وأنهم قد تطرفوا في ذلك تطرفاً بعيداً. فنحن نجيب أن اخلاقنا وعاداتنا في الشرق غير أخلاق الغربيين وعاداتهم. ومتى قُدّر لنا

أن نكون مثلهم في الفضائل العملية والأدبية أي حسناتهم المدنية الجميلة فلا بأس حينئذٍ أن يكون عندنا سيئات كسيئاتهم. وإذا قيل أن الأوروبيين لا يعدّون تلك "الأشياء الجذابة" سيئات فنجيب بل أن عقلاءهم يعدّونها كذلك. قال الفيلسوف جول سيمون ما معناه "إنني آسف لهذا المقام الكبير الذي صار لمؤلفي الروايات عندنا لأن هؤلاء الكتّاب لا يعتمدون في طلب التأثير إلا على احتكاك العواطف والعراك الذي يصوّرونه بينها والفضيلة لا يكون لها دائماً هذه النتيجة البرّاقة".

وربّ معترض يعترض اعتراضاً مهماً قلما انتبه إليه. وهو هذا" أن الروايات الفرنجية كان لها تأثير نافع جداً على الشرق. فإن العناصر مختلفة في الشرق ومشاربه متباينة والعبودية السياسية والعائلية شديدة فيه. فلما دخلت الروايات الفرنجية بين هذه العناصر وقرأها رجالهم ونساؤهم حدث هنالك تأثيران: (الأول) استمداد جنس النساء قوة منها. وذلك لأنهنّ رأين فيها أحوال نساء الغرب وحريتهن فصارت نفوسهنّ أنفر مما كانت عن نير العبودية الشرقية. فكأن هذه الروايات التي تذمونها علّمت النساء الحرية وكانت مدرسة أدبية لهن. (الثاني) إن في هذه الروايات روحاً واحدة لأنها كلها منسوجة على مثال واحد تقريباً. فبمطالعة العناصر الشرقية المختلفة لها اتجهت هذه العناصر نحو الوحدة. فكأن هذه الروايات التي تذمونها كانت قوالب للعقول والنفوس الشرقية تُسبك بها سبكاً واحداً مع اختلاف مشاربها فهل في الشرق طريقة ساعدت هذه المساعدة على التوحيد بين عناصره[1].

نقول إننا لا نجهل أن في هذا الاعتراض شيئاً من الصواب. إلا إننا لا نعترض هنا على نفس الروايات فقد قلنا في المقدمة إن فائدتها وضررها يتوقفان

[1] قال أحد الفلاسفة الأوروبيين: إن الشرقيين والشرقيات يبدأون بالميل إلى المعيشة والمدنية الأوروبية من حين مطالعتهم رواياتنا.

على موضوعها وروح كاتبها. وإنما نعترض على السموم القتالة التي توضع فيها. وهذا الاعتراض يشاركنا فيه كل ذي نفس كريمة وكل عائلة فاضلة تكره إدخال تلك السموم إلى خدور بناتها وسيداتها ومكاتب صبيانها.

إن أقوى المؤثرات في تربية الأولاد ثلاثة: البيت والمدرسة والسوق. والمطالعة تشمل هذه المؤثرات الثلاثة. إذ يُطالع الفتى والفتاة فيها كلها. فإذا كانت المطالعة مقصورة على المطبوعات المفيدة الخالية من سموم الخلاعة وقلة الأدب والمجون البارد فهي غذاء النفس. وهي مفضَّلة على غذاء الجسد عند العقلاء. وأما إذا كانت بعكس ذلك فهي سمّها القتّال.

قال برناردين دي سان بيير مؤلف بولس وفرجيني "إن الآداب (أي كتب الأدب) عون إلهي وهي أشعة من الحكمة الرائعة التي تحكم العالم. والإنسان لم يتعلّم استنزالها إلى الأرض إلا بوحي أو شبه وحي سماوي. فاقرأ وطالع فإن الحكماء الذين كتبوا الكتب قبلنا إنما هم مسافرون تقدمونا في طريق المصائب وهم يمدون بكتبهم يديهم إلينا لمساعدتنا في طريقنا".

هذه هي وظيفة المطبوعات المفيدة. وقد قلنا في ما تقدم إن هذه النتيجة تنعكس إذا كانت المطبوعات مضرّة فيها ما يمسّ الأدب والحشمة والعادات الجليلة المحترمة. ولذلك نودّ أن تلاحظ الأم والأب في البيت والمعلم والمعلمة في المدرسة الأمور التالية:

أولاً – إذا كنت تريدين أن لا تتسمّم أخلاق ابنتك فلا تدعيها تُطالع رواية ولا كتاباً قبل أن تسألي عن هذا الكتاب أو الرواية رجلاً عاقلاً. واعلمي أن 95 في المائة من الروايات التي تُنشر لا يجوز أن تقرأها العذراء.

ثانياً – لا تغرّنك الأسماء العلمية التي يسمي الكتاب كتبهم بها فربما كان في هذه الكتب من السموم القتالة للنفس الضعيفة أكثر مما في الروايات. ولذلك يجب أن تسألي من يعرفها قبل مطالعتها.

ثالثاً – لا تلتفتي إلى قول القائلين: إن كل الناس يقرأون روايات الخلاعة. وإنه يجب إبطال الحياء الكاذب في هذا العصر عصر العلم والحرية والنور إلخ. وإن كل نصح في هذا السبيل يذهب أدراج الرياح: فإن كل هذه الأقوال لا يُقصد بها إلا ترويج البضاعة ونفاق التجارة وارضاء بعض الأهواء النفسانية. أما أنتِ فاضحكي من كل هذا وأجيبي عليه بقولك: إن عصر العلم والحرية والنور الحقيقي هو عصر الحشمة والوقار والفضيلة والآداب الاجتماعية.

العدد الثاني، أيار 1903

كتب المطالعة المفيدة

للسيدات والبنات

كتبت إلى إدارة المجلة بعض الأمهات يشكرنها لتحريض العائلات على منع إدخال الروايات المضرة إلى خدور سيداتها وبناتها لما ينشأ عن ذلك من الضرر الأدبي. وذكرن أن هذا المنع لا يكون فعالاً إلا إذا وُجدت روايات للمطالعة تسدّ تلك الكتب الممنوعة. وطلبن من المجلة أن تفتح باباً تذكر فيه الروايات التي لا خوف منها على آداب القارئات وعلى صحة نفوسهن، فاستحسنا هذا الطلب وعزمنا على ذكر بعض الكتب والروايات التي لا خوف من ادخالها إلى خدور العذارى وغرف السيدات خدمة للآباء والأمهات.

ولا ريب عندنا أن جميع القارئات والقراء يعرفون الغرض من هذا الباب، غير إننا رغبة في زيادة الإيضاح نضرب من الروايات المضرة مثلاً.

مثال ذلك أن المدموازل فريدة تتمدّد في سريرها أمام الشباك وتشرع في قراءة إحدى الروايات فتصل إلى الفقرات التالية:

(1) "وكان جاك فتى جميل الصورة أزرق العينين أشقر الشعر أبيض الوجه فلما رأته سلمى أحبته حباً شديداً وصارت لا تقدر على فراقه".

(2) "وكان لجاك عمّ قاسٍ يكره زواجه بسلمى فقال لها جاك هلمّي نهرب ونتزوج فنعيش سعيدين".

(3) "وكانت السيدات المجتمعات على جانب عظيم من الجمال فكان جاك يسرّح نظره فيهنّ ويقول: إلهي خلقت لنا الجمال فتنة، فكيف لا نحب".

هذه العبارات من أخف ما يرد في روايات الخلاعة، وقد جمعناها من عندنا لئلا نُتهم بالتحامل على أحد، ومع خفتها فهي تحرّك لعدة نقائص. فإن المدموازل فريدة حين قراءتها الشذرة الأولى تتعلم منها أن الحب هو حب الجسد لا غير "زرقة العينين وشقرة الشعر وبياض الوجه" وما عدا ذلك فلا قيمة له، ومتى أحبت الفتاة هذا الحب يجوز لها أن لا تصبر على الفراغ، فتفتكر وتقول إذا كان غيري لا يصبر فلماذا أصبر أنا؟ وهكذا تزيد الرواية عواطفها التهاباً وأهواءها شروداً بدل أن تعلمها الحقيقة. أجل أن الحقيقة هي حب النفس لجمال النفس وصلاح النفس وفضيلة النفس، فالحب الحقيقي والجمال الحقيقي لا ينفصلان أبداً عن الصلاح والفضيلة، وإذا انفصلا كانا آفة وويلاً يستحقان لأجله احتقار كل العقلاء.

أما الشذرة الثانية فتعلّم المدموازل فريدة أقبح الرذائل وتعني الهرب من بيت أبيها إذا أحبت فتى لم يرضَ عنه أهلها.

وأما الشذرة الثالثة فتعلّمها أن الحب (الحب الذي تعلّمته في الفقرة الأولى...) أمر جائز عام يجوز لها كما يجوز لسواها، ولماذا خلق الله الجمال إذا كان يريد تحريم الحب.

فهل رأى الآباء والأمهات إلى أية هاوية تجرّ مطالعة بضع عبارات كتلك العبارات. وهذا هو السبب في قول الإفرنج عن الفتيات اللواتي يكنّ شديدات النزق والطياشة "انهنّ بنات أفسدت الروايات عقولهن"، وكثيراً ما ترفق المحاكم ببعض هؤلاء البنات إذا ارتكبن ذنباً اعتماداً على أن المطالعة الرديئة هي المسؤولة عن ذلك الاضطراب الذي أحدثته.

وبعد هذه المقدمة نشرع في ذكر الروايات والكتب التي نوصي القارئات باقتنائها.

قلب الأسد

هي رواية معرّبة بقلم جناب الدكتور يعقوب صروف أحد صاحبي "المقتطف" وموضوعها الحروب الصليبية في زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي والملك ريكاردوس الملقب بقلب الأسد، ولا تخلو هذه الرواية من الحب ولكنه حب كريم لا أثر للخلاعة فيه، وحوادث الرواية التاريخية بين العرب والإفرنج مما يلذ ويفيد. تطلب من إدارة المقتطف في مصر.

بولس وفرجيني

هي أشهر الروايات الأدبية الفرنسوية، طبعت حين صدورها مائتي مرة ولم يُولد غلام ولا ابنة في باريز في ذلك العام إلا وسميا بولس وفرجيني. وموضوعها أين السعادة الحقيقية؟ وهي عبارة عن وصف معيشة البداوة والخلاء في وسط الطبيعة، ومدارها على الفتى بولس والفتاة فرجيني والحب الذي يتعاهدان عليه ومصيرهما. ويقول الفرنسويون إنه لا يوجد في العالم كله أحد يقرأ هذه الرواية دون أن يذرف الدمع من شدة تأثره. مزينة بأربعة عشر رسماً تمثل بولس وفرجيني وتُطلب من إدارة الجامعة وثمنها خمسة غروش صاغ وأجرة البوسطة غرش.

تحرير المرأة

هو كتاب إصلاحي مشهور لجناب عزتلو قاسم بك أمين وكذلك كتاب "المرأة الجديدة" وموضوعها وجوب الاهتمام بالمرأة المصرية وتربيتها ورفع الحجاب عنها "يُعرف ذلك ببر الشام برفع المنديل" وإعداد النساء لمشاركة الرجال في أعمالهم لأن كثيراً منهنّ مضطرات إلى كسب رزقهنّ بعملهنّ، ويُقال أن حضرته يكتب الآن كتاباً ثالثاً في هذا الموضوع، ويطلب من المكاتب في مصر.

الكوخ الهندي

رواية حدثت حوادثها في الهند وهي مشهورة شهرة (بولس وفرجيني) وكلتاهما لمؤلّف واحد وهو برناردين دي سان بيير وقد عربهما منشئ الجامعة. وفي هذه الرواية وصف الهند وبراهمتها ورسومهم وذكر طوائفها ووجود الحقيقة في كوخ صغير في أحد الأودية الهندية، وكل من طالع هذه الرواية يجد حين فراغه منها أنه صار أميل إلى الخير والصلاح مما كان قبلها وهو الغرض الحقيقي من

المطالعة. تطلب من إدارة الجامعة وثمنها خمسة غروش صاغ وأجرة البوسطة غرش.

الوحش الوحش الوحش

أو سياحة في أرز لبنان

هي رواية لبنانية صدرت في هذا الشهر وفيها وصف بعض عادات الكورة والجبة وأغانيها ومناظرها الطبيعية الجميلة، ووصف أرز لبنان وصوره من قريب ومن بعيد، هذا عدا عن حوادث الرواية التي حدث أكثرها تحت أشجار الأرز العظيمة، وقد ورد ذكر هذه الرواية في باب المطبوعات الجديدة في هذا الجزء. تُطلب من إدارة الجامعة أو وكلائها وثمنها فرنكان وأجرة البريد غرش.

هذا ما اقتصرنا عليه في هذا الجزء، ونحن نرجو من كل المكاتب والمؤلفين الذين يعرفون عندهم كتباً وروايات تدخل في هذا الباب أن يرسلوا منها نسخة لنراها ونذكرها فيه تعريفاً للقارئات بها خصوصاً الأمهات والآباء الحريصين على آداب بناتهم.

الجزء السادس، 1903

الشعر اللطيف العائلي بين شوقي وأمينة وعلي

يُقال أن من أسباب نجاح شعر فيكتور هيغو الشاعر الفرنسوي المشهور كون شعره "شخصياً" أي فيه كثير من الكلام عن نفسه وذويه. ومن هذا القبيل كلامه في شعره عن حفيديه الفتاة جانّ والفتى إميل فإنه جعلهما في العالم كله أشهر من نار على علم وصار الناس يحبون معرفتهما قبل معرفة جدّهما الشاعر.

ولقد اقتدى جناب شوقي بك شاعر الحضرة الخديوية برصيفه وقرينه هيغو في هذا المطلب اللطيف فنظم في فتاته "أمينة" وفتاه "علي" شعراً يذوب رقة. ومن وظيفة مجلة كهذه المجلة أن تنشر هذا الشعر العائلي الرقيق أولاً لتفكهة القراء والقارئات وثانياً لدلالة الشاعر على أن في سامعيه قوماً يعجبون بهذا التصرف البديع الذي أدخله إلى شعر العرب فجمع فيه بين ملاحة البدو ورقة الحضر.

قال حين رُزق غلاماً دعاه "عليّاً":

صـــار شـــوقي أبـــا علـــي ... فـــي زمـــان الترلّـــي
وجناهـــــا جنايـــــة ... لـــــيس فيهـــا بـــأول

وذلك إشارة إلى قول المعري "هذا جناه أبي علي... إلخ". وقال يعاتب عليّاً لمجيئه:

علـيّ لـو استشـرت أبـاك قـبلاً ... فـإن الخيـر حـظ المستشـير
إذاً لعلمـــت أنـــا فـــي غنـــاء ... وإن نـك مـن لقائـك فـي سـرور
ومـا ضـقنا بمقـدمك المُفـدّى ... ولكـن جئـت فـي الـزمن الأخيـر

وقال يحمسه منذ صغره:

رزقـــتُ صـــاحب عهـــدي ... وتـــمّ لـــي النســـل بعـــدي
هـــم يحســـدوني عليـــه ... ويغبطـــــوني بســـــعدي
ولا أرانـــــي ونجلـــــي ... ســــنلتقي عنـــد مجـــدِ
وســـوف يعلـــم بيتـــي ... إنـــي أنـــا النســـل وحـــدي

فيـــا علـــيّ لا تلمنـــي فمـــا احتقـــارك قصـــدي
وأنـــت منـــي كروحـــي وأنـــت مـــن أنـــت عنـــدي
فـــإن أســـاءك قـــولي كـــذّب أبـــاك بوعـــدِ

وقال حين دخول عليّ في السنة الثانية من عمره. وفي آخرها أربعة أبيات لا يجوز كتابتها بالحبر بل بماء الذهب أو دماء القلب:

هـــذه أول خطـــوة هـــذه أول كبـــوة
فـــي طريقـــي لعلـــيٍّ عنـــه لـــو يعقـــل غنـــوة
يأخـــذ العيشـــة فيـــه مـــرة آنـــاً وحلـــوة
يـــا علـــيّ إن أنـــت أوفيـــ ت علـــى ســـن الفتـــوة
دافـــع النـــاس وزاحـــم وخـــذ العـــيش بقـــوة
لا تقـــل كـــان أبـــي إيـــ ـــاك أن تحـــذو حـــذوه
أنـــا لـــم أغـــنم مـــن النـــا س ســـوى فنجـــان قهـــوة
أنـــا لـــم أُجـــزَ عـــن المـــد ح مـــن الأمـــلاك فـــروة
أنـــا لـــم أُجـــزَ عـــن الكتـــ ب مـــن القـــراء حظـــوة
ضـــيّع الكـــل حيـــاتي وعفـــافي والمـــروّة

قلنا هذا القول جميل جميل. ولكن أجمل منه أن يطلب جناب الشاعر فنّه لذاته سواء عرف الناس قدره أو لم يعرفوه. وحينئذٍ يكون فوق من يعنيهم لأن نفساً كنفسه تقدر أن تكون في غنى عنهم بما فيها من الغنى الأدبي الفطري.

وهنا فارق الأب عليّاً فيحسن أن ننتقل إلى أمينة. إن أمينة جاءت في أصعب الأوقات لأن أباها كان ليلة ولادتها مضطرباً لوفاة المرحوم ابيه وإليك ما قاله في ذلك:

نبهني المقدور في جنحها[1] وكنت بين النوم واليقظة
الموتعجلان إلى والدي والوضع مستعصٍ على زوجتي
هذا فتى يبكي على مثله وهذه في أول النشأة
وتلك في مصر على حالها وذاك رهن الموت والغربة
والقلب ما بينهما حائر من بلدة أسرى إلى بلدة
حتى بدأ الصبح فولّى أبي وأقبلت بعد العناء ابنتي
فقلت أحكامك حرنا لها يا مخرج الحيّ من الميّت

وقال يصف أمينة حين اكتملت السنة الأولى من عمرها:

أمينتي في عامها الأ ول مثل الملكِ
صالحة للحب من كلٍّ وللتبركِ
كم خفق القلب لها عند البكا والضحكِ
وكم رعتها العين في السكون والتحرّكِ
فإن مشت فخاطري يسبقها كالممسكِ
ألحظها كأنها من بصري في شركِ
فيا جبين السعد لي ويا عيون الفلكِ
ويا بياض العيش في الأيام ذات الحلكِ

[1] يريد تلك الليلة.

إن الليـــــــالي وهــــــــي لا　　تنفـــــك حـــــرب أملــــــكِ
لــــــو أنصـــــفتك طفلـــــةً　　لكنـــــتِ بنـــــت الملـــــكِ

قلنا ولكن كفى مولانا الجناب الخديوي ما لديه.

ثم قال يهنئها بسنتها الثانية، وفيه من الجدّ والهزل ما يُرقص

أمينـــــة يـــــا ابنتـــــي الغاليـــــة　　أهنيـــــك بالســـــنة الثانيـــــة
وأســـأل أن تســـلمي لـــي الســـنين　　وأن تُرزقـــي العقـــل والعافيـــة
وان تُقســـــمي لا بـــــرّ الرجـــــاء　　وأن تلـــدي الأنفـــس العاليـــة
ولكـــــن ســـــألتك بالوالـــــدين　　وناشـــدتك اللعـــب الغاليـــة
أتـــدرين مـــا مـــرّ مـــن حـــادث　　ومـا كـان فـي السـنة الماضـية
وكـم بلـتِ فـي حلـل مـن حريـر　　وكـم قـد كسـرت مـن الآيـة
وكـم سـهرتْ فـي رضـاك الجفـون　　وأنـــت علـــى غضـــب غافيـــة
وكـم قـد خلـت مـن أبيـك الجيـوب　　وليســـت جيوبـــك بالخاليـــة
وكـم قـد شـكا المـرّ مـن عيشـه　　وأنـــت وحلـــواك فـــي ناحيـــة
وكـــم قـــد مرضـــتِ فأســـقمته　　وقمـــتِ فكنـــتِ لـــه شـــافية
ويضـــحك أن جئتـــه تضـــحكين　　ويبكـــي إذا جئتـــه باكيـــة
ومـــن عجـــب مـــرت الحادثـــات　　وأنـــت لأحـــدثها ناســـية
فلـــو حســـدتْ مهجـــة ولـــدها　　حســـدتك مـــن طفلـــة لاهيـــة

وكان لأمينة كلب أسود فجرت لها معه واقعة إليك تفصيلها. ولقد ضحكنا حتى أغرقنا في الضحك عند قراءتها:

يـــا حبـــذا أمينـــة وكلبهـــا تحبـــه جـــداً كمـــا يحبهـــا
أمينتـــي تحبـــو إلـــى الحـــولين وكلبهـــا ينـــاهز الشـــهرين
لكنهـــا بيضـــاء مثـــل العـــاج وعبـــدها أســـود كالـــدياجي
يلزمهـــا نهارهـــا وتلزمـــه ومثلمـــا يكرمهـــا لا تكرمـــه
فعنـــدها مـــن شـــدة الاشـــفاق أن تأخـــذ الصـــغير بالخنـــاق
فـــي كـــل ســـاعة لـــه صـــياحُ وقلمـــا يـــنعم أو يرتـــاح
وهـــذه حادثـــة لهـــا معـــه تنبيـك كيـف اسـتأثرت بالمنفعـة
جـــاءت بـــه إلـــيّ ذات مـــرة تحملـــه وهـــي بـــه كـــالبرّة
فقلـــت أهـــلاً بـــالعروس وابنهـــا مـاذا يكـون يـا تـرى مـن شـأنها
قالـت غلامـي يـا أبـي جوعـان ومـــا لـــه كمـــا لنـــا لســـان
فمرهمـــو يـــأتوا بخبـــز ولـــبن ويحضـــروا آنيـــة ذات ثمـــن
فقمـــتُ كالعـــادة بـــالمطلوب وجئتهـــا أنظـــر مـــن قريـــب
فعجنـــتُ فـــي اللـــبن اللبابـــا كمـــا ترانـــا نطعـــم الكلابـــا
ثـــم أرادت أن تـــذوق قبلـــه فاسـتطعمت بنـت الكـرام أكلـه
هنـــاك ألقـــت بالصـــغير للـــورا وانـــدفعت تبكـــي بكـــاء مفتـــرى
تقـول بابـا أنـا "دحـا" وهـو "كـخ" معنـاه بابـا لـي وحـدي مـا طُـبخ
فقـل لمـن يجهـل خطـب الآنيـة قـد فُطـر الطفـل علـى الأنانيـة

وهنـا ينتقـل الشـاعر مـن الهـزل إلـى الجـد. والقصـة عـن اجتمـاع صـغار حلوان، مسلمين ومسيحيين، سوداً وبيضاً، في يوم عيد رأس السنة الميلادية كأنهم عائلة واحدة ولعبهم بلعبات يبتاعونها في ذلك العيد.

صـــغار بحلـــوان تستبشـــر ورؤيتهـــا الفـــرح الأكبـــرُ

تهـــزّ اللـــواء بعيـــد المســـيح وتحييـــه مـــن حيـــث لا يشـــعر
* فهـــــذا بلعبتـــــه يزدهـــــي وهـــــذا بحلتـــــه يفخـــــر *
وهـــذا كغصـــن الربـــى ينثنـــي وهـــذا كـــريح الصـــبا يخطـــر
إذا اجتمـــع الكـــل فـــي بقعـــة حســـبتهم باقـــة تزهـــر *
أو افترقـــوا واحـــداً واحـــداً حســـبتهم لؤلـــؤ ينثـــر *
ومـــن عجـــب مـــنهم المســـلمون أو المســـلمون هـــم الأكثـــر
فلاســـفة كلهـــم فـــي اتفـــاقِ كمـــا اتفـــق الآل والمعشـــر
ديســـمبر شـــعبان عنـــد الجميـــع وشـــعبان للكـــل ديســـمبر
ولا لغـــة غيـــر صـــوت شـــجيّ كـــروض بلابلـــه تصـــفر
ولا يـــزدري بـــالفقير الغنـــيّ ولا ينكـــر الأبـــيض الأســـمر
فيـــا ليـــت شـــعري أضـــلّ الصـــغار أم العقـــل مـــا عـــنهم يـــؤثر
* ســـؤال أوجّهـــه للكبـــار لعـــلّ الكبـــار بـــه أخبـــر

قلنا لو سُئلنا أيّ شعر هو أبلغ شعر شوقي على وجه الإطلاق وأقربه إلى لباب الحكمة والكمال لأجبنا "هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة" ولو لم يكتب شوقي بك غيرها لكفت للدلالة على مبلغ ارتقاء نفسه ولطف حسه وكمال عقله.

ولكن شوقي بك على ما يظهر يعتقد أن مُلك السلام مستحيل في العالم وأن السيف ضروري، ولذلك لا يعطي أمينة لعبة كما تطلب بل بندقية.

ولـــي طفلـــة جـــازت الســـنين كـــبعض الملائـــك أو أطهـــرُ
بعينـــين فـــي مثـــل لـــون الســـماء وســـنّين يـــا حبـــذا الجـــوهر
* أتتنـــي تســـائلني لعبـــة لتكســـرها ضـــمن مـــا تكســـر
* فقلـــت لهـــا أيهـــذا المـــلاك تحـــب الســـلام ولا أنكـــر

ولكن قبلك خاب المسيح … وباء بمنشوره القيصر
فلا ترج سلماً من العالمين … فإن السباع كما تفطر
ومن يعدم الظفر بين الذئاب … فإن الذئاب به تظفر
فإن شئت تحيى حياة الكبا … ويؤملك الكل أو يحذر
فخذ هاك "بندقة" نارها … سلام عليك إذا تسعر
لعلك تألفها في الصبا … وتخلفها كلما تكبر
ففيها الحياة لمن حازها … وفيها السعادة والمفخر
وفيها السلام الوطيد البنا … ء لمن آثر العلم أو يؤثر
فلو بيل ممسكة موزراً … ولو بيل تمسكها موزر
أجابت وما النطق في بسمها … ولكنها العين قد تخبر
تقول عجيب كلامك لي … أبا الشر يا والدي تامر
تزين لبنتك حبّ الحروب … وحب السلام بها أجدر
وأنت امرؤ لا تحب الأذى … ولا تبتغيه ولا تضمر
فقلت لأمر ضللت السبيل … وربّ أخي ضلة يعذر
فلو جيء بالرسل في واحد … وبالكتب في صفحة تنشر
وبالأولين وما قدموا … وبالآخرين وما أخروا
لينهض ما بينهم خاطباً … على العرش نص له منبر
يقول (السلام) يحب السلام … وبأجركم عنه ما يأجر
لصم العباد فلم يسمعوا … وكفّ العباد فلم يبصروا

قلنا وهذا الرأي رأي الذين لا يعتقدون أن العالم سائر نحو محجّة الكمال سيراً تدريجياً. لأن الذين يعتقدون هذا الاعتقاد يقولون إن الإنسانية كالثمرة تكون أولاً فجّة مرّة ثم تنضج فتصير حلوة. ومتى بلغت الإنسانية طور النضج والكمال

تجرّدت من كلّ ما يدعو إلى الشقاء في الأرض وعاشت كلها بسلام ووئام في أهدأ بال وأحسن حال. وهم في ذلك فريقان كما تقدم. ونحن نتمنى أن يكون شوقي بك من الذين يعتقدون بطور الكمال لأن ذلك أكثر انطباقاً على روح الشعر ولولاه لما كان للشعر قيمة ولا جمال.

هذا ما رأينا نشره من هذا الشعر العائلي الرقيق. ولعلّ للكلام بقية عن عليّ وأمينة إذا شاء شاعرهما الفريد.

الجزء الثامن، تشرين الثاني 1903

كتاب من شوقي بك

نشرت المجلة في جزئها السابق صفحات من الشعر لجناب الشاعر المشهور عزتلو أحمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية تحت هذا العنوان "الشعر اللطيف العائلي بين شوقي وأمينة وعلي"، وهي مقتطفات قالها جنابه في نجله علي وكريمته أمينة. ومن حق الأب الكريم أن تؤثر فيه المنشورات عن طفليه العزيزين، ولذلك ورد على المجلة من حضرته الكتاب التالي الذي نستأذنه في نشره كتتمة للموضوع.

"سيدتي الفاضلة

تأثرت كثيراً بالجملة التي تفضلت فجاملتِ بها طفليّ الصغيرين في مجلة السيدات، فجئت أشكرك بلسانهما الطاهر الذي لم يجر عليه غير الحلاوة والحلوى حتى الآن وأدعو الله به كذلك أن ينفع بمجلتك.

وأرجوكِ وأنت السابقة بالفضل أن تعتبري أمينة أصغر المشتركات في مجلة السيدات، وأن تأمري بأن تصل إليها نسختها بهذا العنوان

"**أمينة كريمة أحمد شوقي بالحلمية الجديدة**"

ومن الزيادة في التفضل أن تجودي لها ببعض نسخ من العدد الأخير لتمزق منها ما تشاء وتوزع على أترابها ما تشاء. واقبلي ثنائي واجلالي"

شوقي

فقلنا ولا ريب أن قارئاتنا يرحّبن معنا بالمدموازل الصغيرة أمينة التي أُدرج اسمها بين أسمائهن. ويرجين منها معنا أن ترفق قليلاً بحلل الحرير وكلبها الأسود، وأن تصرّ على طلب اللعب بدل السيف كما ورد هناك فإنها مصيبة في ذلك.

الجزء التاسع، كانون الأول 1903

النساء المظلومات

في هذا الباب مراسلات بين بنات وسيدات شرقيات لا يقرأها أحد غير القارئات.

إلى العزيزة أسما

لا تؤاخذيني أيتها العزيزة إذا كنتُ أدخل في ما لا يعنيني وأكتب إليك هذا الكتاب، فإنني سمعت في سهرة أمس حديثك مع رفيقة لكِ فثارت شجوني لكلامك ولم أتمالك اليوم من الكتابة إليك.

وقبل كل شيء أرجو منك المعذرة لأنني سمعت أمس حديثك مع رفيقتك، نعم أنا لا أجهل أن التنصّت على الناس لسرقة أخبارهم في محادثاتهم السرية أمر في غاية القبح ولكن ماذا أعمل فإنني في تلك الساعة ما كنتُ أملك نفسي. فقد كنتِ أيتها العزيزة عبارة عن زهرة السهرة لأنها لم تجتمع إلا من أجلك. وكانت جميع الأبصار حائمة حولك كما تحوم الفراش على النور، والعيون تتمتع بمشاهدة بهاء هذه العروس الفتاة الطاهرة التي تحكي زرّ الورد أول خروجه من كمه لوناً ورائحةً ومنظراً. وكنت أنت تبتسمين لجميع رفيقاتك تلك الابتسامات الهادئة الوردية التي تُفدى بها كل الورود في كل الرياض. فقلت في نفسي عند مشاهدتي إياك في وسط ذلك الحفل الباهر كأنك شمس بين الأقمار أو قمر بين النجوم. إنني أعطي سنتين من حياتي لمن يفتح لي قلب هذه الفتاة الجميلة المهذّبة التي هي ملاك

بصورة إنسان لأرى ما فيه من آثار السعادة والهناء. ولكني عدت ولمت نفسي لهذا التمني لأن قلباً كذلك القلب الطاهر يجب أن يبقى مغلقاً دون الجميع ولا يُفتح إلا لذلك السعيد المختار الذي اصطفاه شريكاً له في حياته الثمينة. ولكن يظهر أن أبواب السماء كانت مفتوحة في تلك الساعة ولذلك سُمعت أمنيتي وأجبت إليها. فإنني لم ألبث إن رأيتكِ تحركتِ من مكانك وأخذت بيد فتاة من صديقاتك وخرجت معها من القاعة إلى رواق مطل على الحديقة، فشعر الجميع بعد خروجك أن القاعة قد أظلمت فكأنّ شخصك كان ينشر فيها بهاء أشد من بهاء النور. وكان هناك بعض من أصحاب الذوق فقالوا "لقد صنعتْ حسناً المدام والمدموازل بخروجهما من هذه القاعة فإن رائحة التدخين وحرارة النور وانحباس الأنفاس تجعل الإقامة فيها صعبة لأصحاب الرئات اللطيفة". فابتسم حينئذٍ زوجك لأنه كان يعلم أنك ما خرجت إلا بإذن منه لتتسلي قليلاً مع تلك الصديقة التي كانت أعز رفيقاتك في أيام المدرسة، لأن جلوسك الرسمي طول السهرة بين الناس كان قد أتعبك قليلاً.

وبعد أن خطرتِ قليلاً مع رفيقتك في الرواق ذهاباً وجيئة تستنشقين هواء الحديقة الجاف البليل المعطّر برائحة ازهار الربيع وقفتِ معها على طرف الرواق واستندتما إلى الدرابزون وكل واحدة منكما تسرح النظر في وجه السماء المظلم المرصّع بنجوم ذات نور ضعيف بعيد.

فلما رأيتُ من نافذة القاعة أنكما وقفتما هناك عرفت أنه ما وراء تلك الوقفة غير الحديث فنهضتُ بتأنّ وقصدت الغرفة الأخرى المجاورة للرواق وأنا أقول في نفسي إذا لم أرَ باطن ذلك القلب بعيني فلا بدّ أن أسمع حديثه بأذني.

وفي الواقع إنني لم أصل إلى النافذة المغلقة دونكما حتى سمعت حديثكما التالي:

قالت رفيقتك ما لكِ تنظرين إلى نجوم السماء يا أسما هل تفتشين بينها على نجمك. انك تفتشين عبثاً لأن الابنة متى تزوجت ووجدت قرينها ينطفئ نجمها. فضحكت وسألتها: لماذا ينطفئ. فأجابت ينطفئ لأنه لا يعود ضرورياً لحراستها لوجود حارسها على الأرض معها أعني قرينها. فتنهدت وقلتِ لرفيقتك: فدليني إذاً أين نجمك أنتِ. ثم سكتما دقيقة. وبعد ذلك أخذتِ تخاطبين رفيقتك بهذا الخطاب الطويل:

"يظهر لي أنك أنت أيضاً يا سلمى من جملة المغرورات والمغرورين في مسألة الزواج والفتاة. فإنك تحسبين أنه متى تزوجت الفتاة انفتح في وجهها باب السعادة وابتدأت حياة المسرات والهناء لها. فكأنك من أولئك اللواتي يحسبن الزواج لعبة من اللعبات لا واجباً من الواجبات العظيمة. أجل يا عزيزتي أن الزواج من أثقل الواجبات ولا سيما في بلاد كبلادنا هذه. لا تقطعي كلامي بل دعيني أُكمل. إننا نحن البنات نعيش في بيوت أهلنا بنعمةٍ ومسرّة دائمة. فكأننا أزهار البيت نزينه وننشر فيه ريحنا الطيب. أو كأننا طيوره التي تغرد فيه كما تغرد البلابل في الرياض. ولذلك يكون بيت الأهل في الحقيقة جنة للابنة. على أن الابنة (كحواء) لا تعرف قيمة هذه الجنة إلا بعد خروجها منها إلى بيت زوجها. فإنها حينئذٍ تجد أن طور معيشتها الماضية قد مضى وجاءت معيشة جديدة. لقد ذهب طور الضحك واللعب في الحديقة بين حفيف الأزهار وتغريد الأطيار. لقد ذهب طور عدم المبالاة بالحياة ولا الاكتراث بهمومها وجاء طور الاهتمام والاغتمام والعمل الجدي في منزل غريب جديد لا تعرف الفتاة شيئاً من عاداته وأخلاق أهله. لقد ذهب لقب "مدموازل" وجاء مكانه لقب "مدام" وما وراءه من التبعات والواجبات الهائلة.

"ولست أقول هذا القول جبناً وفراراً من هذه التبعات والواجبات فإن كل من يعرف قلب المرأة لا يشكّ في أن أحبّ شيء إليها هو الاستقلال بمنزل لها ترأس شؤونه وتدير أحواله. ولكن مثل البنات أيتها العزيزة في بلادنا هذه (وفي جميع البلاد الشرقية) مثل الجنود الذين يرسلون إلى الحرب وهم بلا سلاح يحاربون به.

"انظري ماذا يُطلب من الابنة حين خروجها من بيت أبيها إلى بيت زوجها: يطلب منها أولاً أن تكون عالمة بأخلاق البشر دارسة أطباع الرجال والنساء لتستطيع إرضاء زوجها ومداواته وارضاء حماتها وحميها وأهل بيتهم. ويُطلب منها ثانياً أن تكون قد تلقت فن تدبير المنزل علماً وعملاً ويدخل في ذلك إدارة شؤون البيت والمطبخ والمائدة والقاعة للزائرين وما أشبه. ويُطلب منها ثالثاً أن تكون قد درست الفن الذي هو أثمن الفنون وأهمها أعني فن تربية الأولاد أدبياً وجسدياً. فأثقال الزوج والحمى والحماة والمنزل والمطبخ والمائدة والضيوف والخدم والأولاد، وآلام الحمل والولادة، ومشاكل العلم والمدرسة، واختيار كتب الأولاد واصدقائهم – كل هذه الجبال الثقيلة الهائلة تُلقى دفعة واحدة على عاتق تلك الفتاة النحيفة التي أخرجوها وهي نصفها كئيب ونصفها مسرور في ليلة مظلمة بين الشموع والمصابيح والمركبات من بيت أبيها إلى بيت الرجل الغريب الذي سيصير غداً زوجاً لها.

"ولكن ماذا علّموا هذه الفتاة في البيت والمدرسة ليجوز لهم إلقاء كل تلك الأثقال على عاتقها الضعيف. هذا هو الظلم الذي تصيح منه أيتها العزيزة كل جوارحي في هذه المدة. نحن البنات أيتها الرفيقة ندرس في المدارس التاريخ والجغرافيا ويحشون ذاكرتنا بأسماء البلدان في كل مكان ولكنا لا ندرس فنّ تربية الأولاد ولا علم أخلاق الرجال... اسمعي جيداً أيتها العزيزة، إننا ندرس الصرف والنحو وأحياناً الشعر ولكننا لا ندرس صناعة تدبير المنزل والمطبخ والمائدة.

واسمعي أيضاً إننا ندرس الفرنسوية والإنكليزية والايطالية حتى اللاتينية ولكننا لا نُحثّ على الرياضة الجسدية ولا ندرس علم حفظ الصحة الذي هو من المبادئ الأولية التي تحتاجها أم العائلة.

"وفي البيت ماذا نتعلم؟ نضيف إلى تلك العلوم العقيمة فن الرقص أيتها العزيزة، ومع الرقص تأتي المعاشرات اللطيفة والمحادثات الظريفة واللعبات المسلية والملابس الأنيقة فيخيّل للفتاة وهي في وسط هذه المسرات أن هذه هي الحياة كلها ولا واجبات غير هذه اللعبات. ولما يقرع الخطيب الباب ويسأل ما هي معارف المدموازل التي سأسلّمها شرفي ومنزلي وأولادي وراحتي. فيجيبه صوت بجانبها: ترقص جيداً وتلبس جيداً وتحكي جيداً وتتكلم الإنكليزية والفرنسوية جيداً.

"فالحق أقول لك يا عزيزتي إن هذه المصيبة هي الآن مصيبتي، وإذا لم تكن مصيبة جميع بنات جنسي فهي مصيبة كثيرات منهنّ. وليس بين النساء نساء مظلومات مثلنا نحن الفتيات اللواتي يُلقى على عواتقنا أثقال المنزل والأولاد ولا نعرف حرفاً من أصول التربية غير ما نراه أمامنا في منازل أهلنا. إن الحق يكون بقدر الواجب دائماً. وما دام من واجباتنا أن نقوم بتدبير المنزل وتربية الأولاد وإرضاء الزوج وإدارة العائلة – أي الوظيفة النسائية المخصوصة التي خُلقنا لها – فمن حقوقنا أن يعلّمونا قبل كل شيء أصول وقواعد تلك الأمور التي يطلبون منا القيام بها حين دخولنا عالم الزواج الجديد، وإلا كان دخولنا هذا بداءة اضطراب لنا وتنغيص لعيشنا بدلاً من أن يكون بداءة راحة وهناء. ولعلّ ذلك سبب ما نراه أحياناً من ضعف نفوس وأبدان بعض الفتيات بعد زواجهن مع أنهن كنّ قبل الزواج كالأزهار غضاضة وجمالاً وكالعصافير في خفة الجسم والروح. ولذلك أرجوكِ يا عزيزتي أن تتحققي إنني لست الآن سعيدة كما يدل عليه ظاهري وإن باطني في

غاية الاضطراب والخجل لجهلي أصول الواجبات التي دُعيت إليها ولم يعلّمني منها البيت ولا المدرسة شيئاً".

هذا ما سمعته أيتها العزيزة من كلامك مع رفيقتك وأنت واقفة في الرواق فوق الحديقة. فتأثرتُ جداً من هذه اللهجة وأقدمتُ على الكتابة إليك. وذلك لسببين: الأول اعتراض والثاني رجاء. أما الاعتراض فهو على قولك أنه ليس بين النساء المظلومات في هذه الحياة نساء مظلومات أكثر منكنّ أيتها الفتيات المتزوجات. ولكن يا عزيزتي ماذا تركتِ للنساء اللواتي يتزوجن اليوم فيهجرهنّ أزواجهنّ غداً. ماذا تركتِ للمرأة التي يموت زوجها ويترك على يديها اولاداً صغاراً ولا يكون لها سند غير الله. ماذا تركتِ للمرأة التي يكسب زوجها كل يوم في شغله فرنكين أو ثلاثة ثم يذهب وينفقها على السكر والقمار في الخمارات والقهاوي ويتركها مع أولادها بلا أكل ولا تلقى منه غير الإهانة والعصا. إنك لم تذكري كل ذلك أيتها العزيزة لما تألمتِ من مركزك، ولو ذكرته لرأيت نفسكِ في ألف نعمة.

أما الرجاء فهو اشتراكي معكِ أشد اشتراك في كل ما ذكرته عن جهل الفتيات المتزوجات أصول وظيفتهنّ السامية. ولكني أرى أن هذا الخلل العظيم والضرر الجسيم الذي مرّ وصفه على لسانك بالتطويل لا يزول بالتأوّه والتحسّر والتأسف بل هو يقتضي الجدّ والعمل السريع. ولقد نبهتْ لهجتك هذه في نفسي شيئاً كان كامناً فيها فأردت أن أعرض عليك دواءً لهذا الداء كنت أفكر فيه منذ زمان.

وهذا الدواء هو إنشاء مدرسة مخصوصة لتعليم ما يجب معرفته على كل فتاة. ويكون في هذه المدرسة الطبخ وتربية الأولاد الأدبية والجسدية ودرس أخلاق الرجال وإدارة شؤون المنزل وتنبيه عاطفة الإحسان في نفس الفتاة وتدبير الصحة وترويض الجسم أتم ترويض وتعليم مبادئ الكيمياء المنزلية والاقتصاد في النفقة

وتحبيب العمل إلى الفتاة والشغل اليدوي والتصوير وشيء من الموسيقى – مقدمة على كل شيء سواها من الدروس. ولا ريب أن مدرستك هذه تخدم الشرق أنفع خدمة لأنها تكون مثالاً لمدارسه وتفيد بنات جنسك أكبر فائدة. فإذا أحببت أيتها العزيزة انشاءها فاخبريني لأحضر لمحادثتك بشأنها. واعلمي أنها تحتاج ثلاثة آلاف جنيه للتأسيس ولإيجاد دخل سنوي لها. فاشترين أيتها الأمهات مستقبل بناتكنّ وراحتهن بثلاثة آلاف جنيه.

ألما

رئيسة مدرسة شلونه

العدد الأول، نيسان 1903

سذاجة قلوب البنات

إلى العزيزة سلمى

أردتُ اليوم أن أجاوبك على كتابكِ وامسح دموعكِ بمنديل الوداد والنصح لك. فما تناولت القلم حتى دخل ساعي البريد وألقى إليّ رسالة من صديقتنا عليا في مصر. ففتحت الرسالة فوجدت صديقتنا تطلب رأيي في كتاب وجواب طالعتُهما في إحدى المجلات الأوروبية وتسألني ألا يحسن إرسالها إلى "مجلة السيدات والبنات" لنشرها فيها. ولما قرأت ذلك السؤال والجواب عرتني دهشة شديدة لأنهما تقريباً في نفس الموضوع الذي أردتُ الكتابة لكِ فيه. وإليك الآن صورة هذا الكتاب وجوابه.

حضرة المديرة

"بما أنكم أفسحتم مجالاً في مجلتكم لنصائح المتعبين والمتألمين أتيت بكتابي هذا لعلكم ترشدونني إلى ما يفرج همومي الداخلية. ولا أستحي بكشفها لديكم لأن المجلة خصوصية للبنات ولا شك أنكم ستكتمون اسمي. عرفتُ شاباً موصوفاً بالأدب ومعروفاً بالفضل بين ذويه. ولما له من العلاقة القديمة مع عائلتنا كان يتردد علينا دائماً فيصرف سهراته عندنا، فكنّا نصرف أكثر أوقاتنا في المباحث الأدبية المفيدة وبدرس ما لم يتسنّ لي درسه في المدرسة مثل البيانو وغيره. فرأيت فيه أخلاقاً شريفة ونفساً كريمة ولكني لم أكن أفكر بحبه لولا أنه هو الذي نبّهني إلى ذلك من الميل الذي كان يُظهره لي. فكان هو البادئ أولاً في سلوك هذا الطريق. وإذ رأيت ذوقه موافقاً لذوقي في كل الأمور وشاهدت منه هذا الميل لم يمكنني إلا أن أميل إليه بالرغم عني. وهذه أول مرة شعرت بها بحب طاهر خارج عن حب صديقاتي وأهلي. فبعدما جعلني أحبه حباً يقرب من العبادة

أخبرني أنه لا يمكنه جعلي شريكته في حياته. وقال لي: بالرغم من حبي الشديد لك أرى ضرورة افتراقنا وأحب بعدك عني لأنني أعلم أن لا فائدة من حبنا. وهكذا تركني أتألم وأضعف وأهزل وحرمني كل لذات الحياة. فكتبت له مرة أخبره أنه سبب تعاستي، وربما فُقِدَ حياتي. وأنني كاتمة هذا الأمر إلا عنه. ولكن يظهر أن ضميره لا يعرف العدل ولا يهمه أن أتألم وأتمنى الموت. إنما أرجو منه أنه إذا وُجدتُ يوماً ما ميتة أو منتحرة ولم يعرف أحد سبب ذلك أن يخبر أهلي على الأقل بسبب موتي إن كان له ضمير. وما كتبتُ ما كتبتُ إلا بقصد أن يقرأ هو هذا الكتاب على صفحات المجلة فيعرف نتيجة ظلمه لأن عزة نفسي تمنعني من الكتابة إليه فيما بعد.

الإمضاء

تعيسة

أما جواب مديرة المجلة فهو:

عزيزتي تعيسة،

تكدرتُ كثيراً مما حدث لك. ولكني تكدرتُ أكثر لتسميتك نفسك تعيسة لأمر كهذا. قد فهمتُ من كلامك أنك خارجة حديثاً من المدرسة إلى العالم الواسع بدون خبرة في الدنيا. فإنك كنت في تلك المدرسة بين صديقاتك المخلصات فظننتِ أن الدنيا أيضاً كذلك. (...) لما لاقيته في بدء حياتك. ولذلك أكتب إليك كلمة لعلها تنفعك (...) من الشبان إن لم أقل كلهم ينصبون شباكاً لا للصدق بل حباً بالتسلية. فالبنات لبساطتهنّ وطهارة قلوبهنّ لا يفتكرن بوجود بشر كهؤلاء، ولا أنكر وجود شبان أدباء ذوي ضمائر حية ولكني أتأسف لأنهم قليلون جداً،

وصديقك ليس منهم. لأنه لو كان كما تذكرين عن اخلاقه وآدابه لما كان يسمح له ضميره بما فعل. فأين أنتِ وأين هو أيتها العزيزة. إنه من الشبان الذين لا يطلبون الزواج إلا بالتي ترفضهم في النهار 50 مرة. فليس لك سوى طريقة واحدة مع رجل كهذا وهي أن تظهري له أولاً أفكارك واحساساتك من جهته فإن اعتبرها فزتِ وربحتِ وإلا فاخبريه باحتقار أنه إذا كان لا حقّ لك بإحالته على محكمة الحقوق فإنك تسلمينه لأعظم محكمة أي محكمة ضميره. ولا أشك حينئذٍ بأنه غير أهل لاستلام قلب مثل قلبك الطاهر، ثم اصرفي أفكارك عنه فإنه لا يستحق أن تفتكري به واشغليها بأمور سامية. ولا تدعي بشراً يحول بينك وبين راحتك. وأكدي أنه سيلاقي عقاباً شديداً على هذا مع من يختارها في المستقبل لأنه لا يعرف أن يختار".

هذا هو الكتاب وجوابه الذي وردني أيتها العزيزة حين أخذت القلم لأكتب إليك. ولا ريب أنك علمت من نقلي إياه هنا أنه مرتبط أشد ارتباط بالسؤال الذي تنتظرين جوابه مني. وذلك لأن حالتك قريبة من بعض الوجوه من حالة صاحبة هذا الكتاب. فاستفيدي إذاً من نصائح جوابه يا عزيزتي.

إنني كنت أتمنى من زمان طويل توجيه نظر رفيقاتنا الساذجات لهذا الموضوع المهمّ. فإنني أتأسف كل الأسف لما أراه من انخداعهن بكل بسمة تخرج من أفواه الشبان وكل تقرّب يظهر منهم. ذلك أن جنسنا اللطيف النحيف مطبوع على الثقة والإخلاص أيتها العزيزة ولذلك لا يشكّ في إخلاص غيره. ولكن قد آن لنا أن نكون قويات ولا نجعل أنفسنا آلة في أيدي بعض الشبان المتلاعبين الذين يُظهرون الميل للبنات مع إنهم لا رغبة لهم في الزواج. فلا تركننّ بعد الآن لأحد غير الله والأم. فعند أول حادثة تحدث لنا يجب أن نُطلع عليها أمنا لترشدنا وتدبّرنا فلا نكون ألعوبة في يد أحد. أما الله فهو يعلم بنا من غير أن نطلعه على شيء.

وإليه أيتها العزيزة أكل كشف ظلامتك وظلامة جميع البنات المظلومات اللواتي لا يوقفونهن منذ الصغر على أخلاق الرجال ليتسنى لهنّ اجتناب الوقوع في تلك الحبائل المنصوبات.

صديقتك هند

العدد الثالث، حزيران 1903

أريد أن يحبني لذاتي

عزيزتي نجلا

خبر سار أبلغك إياه أيتها العزيزة. وأنني أسمعك تقولين "خير إن شاء الله. هل ربح أبوك في المضاربة بالبورصة في هذا العام عشرة آلاف جنيه. هل وضعت أختك غلاماً بعد وضعها خمس بنات سنة بعد سنة. هل ربحت الجائزة الأولى في يانصيب البنك العقاري المصري"؟

كلا أيتها العزيزة، ولكنني مع احمرار الخجل والتردد الواجب على البنات في مثل هذه المواضيع والتلعثم في الكلام أقول لك – إنني خطبت، أي إنني وجدت الرجل الذي سأكون شريكة له – في حياته – طول حياته. ويكون لي شريكاً في كل حياتي. ومع ذلك أيتها العزيزة لستُ مسرورة كثيراً. وربما أنت لا تعلمين ولا تفهمين سبب استيائي.

ولستُ أستغرب هذا الأمر فإنكِ في حالة غير حالتي وقد خُطبتِ وتزوجتِ بطريقة غير طريقتي، فإنكِ في ذات يوم كنت عند خالتك فشاهدك عندها الخواجا خليل زوجك فأحبك من الجلسة الأولى. ذلك لأنه رأى هدوءك وعقلك وآدابك وبساطتك ورزانتك وسمع حديثك الذي يدل على كمالك وتهذيبك الصحيح فمنذ هذا الحين عزم على طلبك. ولما رضيتِ به تزوجتما مسرورين سعيدين بحبكما واتفاق أذواقكما وأخلاقكما وصفاتكما، وجاء أولادكما مثلكما كمالاً وأدباً. وهي حالة أحسدك عليها يا عزيزتي.

ذلك إنني أنا لا يطلبونني لنفسي بل يطلبونني من أجل دوطتي. فأنك تعلمين أن أبي عيّن لي ألفي جنيه دوطة. وأمي تحثّني دائماً على لبس الملابس الفاخرة وابتياع كل أنواع الزينة التي يخترعها أهل الحيل والموض ليبتزوا بها أموالنا

وأموال أمثالنا. فأنا أضطر أن افعل كما يقولون. وقلما يمرّ عليّ شهر إلا وأسمع بأن فلاناً "عينه عليّ"، وفلانة تريد "أخذي" لابن عمها، وفلاناً سيجيء لزيارتنا لأنه سمع بي. والحقّ أقول لك يا حبيبتي إن كثيرين من هؤلاء الشبان لا أعرف لهم وجهاً ولم يروني قط بل ولا سمعتُ بهم قبل ذلك، ولكنهم هم سمعوا بدوطتي و"عياقتي"... ولذلك صاروا يحومون حولي وإن لم يعرفوني، فصرتُ شبيهة بعروس الجنّ الخيالية التي تُخطب في الحلم كل يوم وكل ليلة. ولكن لم يكن قلبي يميل لأحد من هؤلاء المتهافتين عليّ لأنني كنت على ثقة إنهم لا يطلبون غير دوطتي. ولا أكتم عنكِ إنني كنتُ أحتقر بعضهم، وأخيراً استقرّ رأي أهلي على شاب جميل الوجه كثير التأنق في ملابسه – وهذا كل ما أعرفه عنه. ولا تضحكي إذا قلت لك إنه سمع بي من مصر (أي سمع بدوطتي) وجاء يخطبني. فرضي أبي وأمي به لأنه غني تُقدر ثروته بخمسة آلاف جنيه، وأنا اضطررت إلى الرضى طاعة لأمرهما.

ولستُ أقول لك إن هذه الخطبة التي عُقدت أمس مساء ستنتهي بالانفساخ. كلا. فإن هذا علمه عند الله، لأنه متوقف على اتفاق أخلاقنا وأذواقنا وأميالنا. وإنما الأمر الذي اقوله لكِ منذ الآن أن إحساساتي مجروحة من خطبة كهذه الخطبة. لأنني أشعر بكل جوارحي أن خطيبي لم يخطبني لنفسي ولذاتي بل لدوطتي ومظاهري الخارجية، والدليل على ذلك أنه لا يعرف إلى الآن شيئاً عن أخلاقي. وأنت تعرفين قلب النساء يا عزيزتي خصوصاً صاحبات الإحساس. فإنهنّ يغتفرن كل شيء ويحتملن كل شيء إلا الإهمال فإنهن لا يغتفرنه. وإذا أحببتُ خطيبي في المستقبل حباً شديداً ثم تزوجنا ورُزقنا عدة أولاد وصرتُ في الخمسين من عمري فإنني سأبقى أقول له حتى آخر نسمةٍ من حياتي إنك بدل أن تبدأ بحب نفسي وأخلاقي وآدابي بدأت بحب دوطتي وبودرتي وثيابي.

آه أيتها العزيزة إننا نحن بنات الأغنياء نتمنى في وقت كهذا الوقت أن نكون بنات فقراء، لأن الابنة الفقيرة تُحَبّ لذاتها وأما نحن فلا يحبوننا إلا لأموالنا. وكلما افتكرتُ أنه لو لم يكن عندي ألفا جنيه لما خطبني خطيبي ولا افتكر بي فإن حمرة الخجل تصبغ وجهي، فأي ظلم أشد من هذا الظلم على جنسنا يا عزيزتي. فإننا إذا لم يكن عندنا دوطة لا يفتكر بنا أحد وإذا كان عندنا دوطة فيطلبونها هي ويهملوننا نحن. فآه من شبان هذا الزمان ومن طمعهم وضعفهم وحبهم أنفسهم وعجزهم عن القيام بواجباتهم. وقبحاً لعصر تشتري فيه الزوجات أزواجهن بالأصفر الرنان.

وفي الختام أرجو أن لا تؤاخذيني يا عزيزتي لأنني خاطبتك بهذه الحرية الواجب أن تكون محرّمة علينا إلى هذا الحدّ ولكن اعتدت من صغري أن أكشف لك خبايا صدري وأنفّس لديك كربي، فأرجو أن لا تبخلي عليّ بجواب يسليني ويملأ شيئاً من الفراغ الذي أجده في نفسي وفي قلبي.

صديقتك "أسما"

العدد الرابع، تموز 1903

حرب بين البنات والشبان

(أربع رسائل بشأن الرسالة السابقة في الجزء السادس)

عزيزتي كليمة،

قرأتُ بإمعان شديد كتابك الطويل، وأعدت قراءته مثنى وثلاثاً ورباع. فرأيت فيه شيئاً كثيراً من الصواب ولكنني لا أستطيع الموافقة على كل ما جاء فيه.

مع الدهشة والاستغراب العظيم فهمت أيتها العزيزة كل ما ذُكر فيه عن الحركات والإشارات. ولكني لما تجاوزت هذه الأمور الفكاهية الغريبة ووصلت إلى ختام الكتاب وجدت فيه شيئاً أغرب. فإنك كما تقولين في كتابك تريدين أن تكون الفتاة صنماً جامداً. فما هذا الرأي يا عزيزتي. إن أجدادنا منذ نحو مائة سنة لم يطلبوا من نسائهم اللواتي كنّ عندهم بمنزلة الخادمات ما تطلبينه الآن من بنات هذا العصر. وأرى أن رأيك هذا مضرّ ضرراً عظيماً من جهتين.

الجهة الأولى إن نعمة الحرية ومواهبها لم تُخلق للرجال فقط بل خُلقت للنساء والرجال معاً. فمن الظلم أن يُقضى علينا بسجن نفوسنا ضمن أجسامنا ومنعها من كل حركة بحجة أن الرجال يسيئون تأويلها. إذ ماذا يضرنا يا عزيزتي أن يسيء الرجال أصحاب النيات السوداء تأويل حركاتنا وإشاراتنا ما دامت قلوبنا بيضاء كالثلج. هل يجب أن نعيش ونفتكر ونحيا ونعمل من أجل الرجال أم من أجل أنفسنا؟ أما نحن مخلوقات إلهيّة مثلهم، فلماذا يعطونهم كل حريتهم ويُحظر علينا نحن أقل شيء منها؟ كلا يا عزيزتي إننا لا نتنازل عن حريتنا الشخصية خوفاً من سوء نية الرجال. فليسيئوا التأويل ما شاؤوا أن يسيئوا. فإننا نعمل ما علينا ولا نلتفت لأحد ما دام ضميرنا مستريحاً وآدابنا مصونة.

والجهة الثانية وضع حاجز بين الشبان والبنات مضر بالبنات على الأخص. فإنك تعلمين أيتها العزيزة أن البيوت تغصّ بالبنات في هذا الزمان لقلّة الزواج. وإذا أحصيت عدد البنات اللواتي يتزوجن في كل عام تجدي أن نسبتهن إلى البنات الباقيات في المنازل كنسبة جزئين أو خمسة إلى مائة جزء. ثم إذا فحصتِ عن سبب زواج أولئك البنات وجدت أن السبب هو المعاشرة. هكذا يقولون بصرف النظر عن الدوطة التي هي أول الأسباب. وربّ منزلين متجاورين في أحدهما بنات تعاشر الشبان وفي الثاني بنات لا تعاشر بل تلتزم الوقار والحشمة، فتتفق بنات المنزل الأول ولا تتفق بنات المنزل الثاني. وهم يقولون إنه لا غرابة في ذلك إذ كيف يتزوج الشبان إذا لم يحبوا البنات وتعلق قلوبهم بهنّ بواسطة المعرفة والمعاشرة. فالطريقة التي تخطينها للبنات في كتابك أيتها العزيزة تقضي ببقائهن دائماً بعيدات عن الشبان ولذلك لا يحصل بين الفريقين ميل وانجذاب يدعو إلى الزواج. وبناءً على ذلك تبقى البنات متراكمات في المنازل على غير فائدة. فهل هذا ما تريدينه أيتها العزيزة؟

اسمعي (والكلام بيني وبينك) إنني أعرف شاباً آلى على نفسه أن لا يتزوج وهو شديد الولع بالبوكر. ولماذا يتزوج ما دام يسرح نظره في كل يوم وليلة بالأقمار والشموس التي تجتمع حوله على مائدة البوكر. إن المتزوجين يضيء حولهم قمر واحد أما هذا الرجل فيضيء حوله عدة أقمار. ولكن (الزهرة) كانت أقوى منه. وكوبيدون أقسم يميناً مغلظة أنه سينفذ سهامه فيه. ففي ذات يوم تعرّف على مائدة البوكر بفتاة أسرت لبه من أول جلسة. فلم يمرّ الأسبوع حتى خطبها. وفي الأسبوع الثاني تزوج. وكل هذا من فضائل المعاشرة على مائدة البوكر يا عزيزتي.

ولو شئت لسردت عليك عشرين حادثة كهذه الحادثة تؤيد نفع المعاشرة. إذاً فكيف نوفق بين ضرورة المعاشرة والوصايا التي وردت في كتابك؟ لا ريب أن

وصاياك حسنة ولكنها تنفع في الدير لا في العالم. هذا وأرجو أن لا تثقل عليك هذه الملاحظات فإنني خاطبتك بكل حرية كما أخاطب أختاً لي، ودمت بسلام.

صديقتك (فريدة)

عزيزتي فريدة،

كلا أيتها العزيزة لم تثقل عليّ ملاحظاتك. لأنني تعودت أن لا أدع شيئاً يثقل عليّ في هذه الحياة. فإن التي تكون في سني يكون قد مرّ على رأسها كل شيء. وآراؤك هذه قد سمعتها قبل الآن من غيرك. وافتكرت فيها طويلاً. ولذلك رأيت اغتنام هذه الفرصة للجواب عليها جواباً مسهباً.

يظهر لي من كتابك أن تصوراتك وأحلامك لا تزال كما كانت في صباكِ. نعم أنت في الثانية والعشرين يا أسما وهذا العمر يُعدّ عادة ذيلاً لسن الصبى ومدخلاً لسن العقل. فأنا لا ألومك لأنك لا تزالين تحلمين أحلاماً ذهبية. إنني لما كنت في سنك كنت مثلك. فإنني كنت أدعو مثلك إلى حرية المرأة واعتقد بقوة الحب الذي يأسر القلب ويقود الزوج تحت قدمي الحسناء ذليلاً صاغراً. وقد كنت آسف لأنني خسرت هذه الأحلام الجميلة التي تسكر صاحبها لو لم أكتسب من الدهر نعمة الاختبار الذي يساوي جمالها جمال الأحلام. أجل أيتها العزيزة أن الأحلام جميلة ولكن معرفة حقيقة الأشياء أي الوقوف على أسبابها ومقدماتها ونتائجها هي أجمل كثيراً. وليس من قصدي أن أمحو من ذهنك أحلامك الجميلة فإنني بذلك أجني على راحة نفسك في هذا السن. ولكني لا أستطيع أيضاً أن أخفي عنك الحقيقة لأنني أحبك.

لقد اعترضت على كتابي من جهتين، جهة حرية المرأة وجهة المعاشرة.

حرية المرأة

أما حرية المرأة فماذا تقصدين بها أيتها العزيزة. هل تقصدين بها أن المرأة تصنع ما يحلو لها دون أن تسأل عن كلام الناس ودون مراعاة الأصول والآداب المتبعة؟ إنني أجلّك عن ذلك أيتها العزيزة لأنك تعلمين ولا شك أن العائلة التي تُبنى عليها الهيئة الاجتماعية لا تقوم إلا بأن تتنازل المرأة عن شيء من حريتها كما يتنازل الرجل عن شيء من حريته وتقيّد بقيد العائلة. فمسألة حرية المرأة أطمريها يا عزيزتي وخصوصاً في بلاد كبلادنا ما زال فيها الرجال أنفسهم أرقاء ضعفاء تحت نير السلطات المختلفة. وكلما قالوا لك "الحرية" قولي "نعم حرية حفظ الآداب، حرية الحشمة والوقار، حرية صنع الخير. حرية الفرار من الشر وشبه الشر. هذه هي الحرية النسائية الحقيقية".

الزواج بالمعاشرة

والآن وصلت إلى اعتراضك الثاني.

وأسفاه أيتها العزيزة، إنك وقعت في ذلك الخطأ العظيم الذي يقع فيه غيرك من السيدات والبنات. وهو اعتقادك بفعل الحب والجمال ونفع المعاشرة في اصطياد الزوج. ولذلك قلتِ أن البنات اللواتي يتزوجن إنما تزوجن بسبب واحد وهو المعاشرة. فعافاك الله أيتها العزيزة. إنكِ ترين اللواتي عاشرن وتزوجن فلماذا لا تنظرين إلى اللواتي عاشرن ولم يتزوجن. احصي بحياتك عدد هؤلاء تجدي أن ضحايا المعاشرة أضعاف اللواتي سعدن بها عشر مرات. أي إذا انصرفت مائة ابنة إلى معاشرة الشبان بقصد أن يجدن لهن ازواجاً بينهم فإن عشراً منهن يجدن ويتزوجن و90 يضحك منهن الشبان ويتركونهن بعد المعاشرة منتقلين إلى غيرهن. فانظري أن للمعاشرة هنا 90 ضحية. وأما أنت فإنك لم تنظري إلا إلى العشرينات

السعيدات، فما إدراك أيتها العزيزة أنك إذا عاشرت تكونين في جملة العشر لا في جملة التسعين. فقياسك إذا كان قياساً فاسداً.

ثم أنك تقولين الحب وسلب القلب، ألا فاعلمي أن هذه الكلمات الكبيرة ليس لها أثر في العالم الحقيقي، لأن الحب الذي يأسر الشباب ويقوده بذل وخضوع تحت قدمي المحبوب لا يوجد إلا في القصص والروايات. والزواج أيتها العزيزة صار في هذا العصر القبيح عبارة عن تجارة. فالشاب يتزوّج لأنه يطلب دوطة يقوي بها مركزه أو عائلة يعتمد على مساعدتها بالانضمام إليها. أما الحب والجمال والأخلاق النزيهة والآداب الناصعة فكلها صارت أموراً ثانوية. فأين هذه الاهتمامات التجارية المادية أيتها العزيزة من تصوراتك الغزلية وأحلامك الذهبية وأي دخل لفائدة المعاشرة في هذا التيه الذي لا يفيد فيه شيء غير المال.

كم دوطتك يا مدموازل؟ خمسة آلاف جنيه، أو ألفان أو خمسمائة... إذاً عاشري فأنتِ على ثقة من وجود واحد تضحكين منه وتجعلينه زوجك. ولكن إذا لم يكن لكِ دوطة فاعلمي أن أكثر الشبان يضحكون منكِ.

درع الفضيلة

"الضحك منك" (أو عليك كما يقول العامة)، هذه كلمة ترتعد لها فرائصي أيتها العزيزة. هذه هي الكلمة التي أكتب لكِ هذا الكتاب من أجلها. آه من خبث البشر يا عزيزتي، آه من طياشتهم وخفتهم وعبثهم بكل ما في الأرض والسماء. قيل أن الأسد إذا نظرت إليه فتاة لطيفة وابتسمت له تركها وشأنها شفقةً على صباها وجمالها ولطفها. ولكن البشر لا يشفقون يا عزيزتي. فكأن الحيوانات والوحوش أحنى وأرأف منهم. ولذلك تجدين كثيرين منهم لا همّ لهم ولا لذة إلا في العبث

بقلوب البنات والتلاعب بأقدس شيء في هذا الوجود وهو صيت العذراء. وهو ما سماه بعضهم المعاشرة.

ولكن الله أيتها العزيزة لم يسمح بوجود الداء حتى وضع له الدواء. فإن في النفس البشرية قوة تسمى "قوة حفظ الذات"، وهذه القوة تثور وتهيج كلما أصاب الشخص أذية. فلما رأت البنات والسيدات أن أكثر الرجال والشبان يتخذون أكثرهن ذريعة إلى التسلي وقطع الوقت فقط مُعرضين عن الزواج المقدس ثارت كبرياؤهن الطبيعية الإلهية وعزمن أن لا يكنّ بعد الآن "أضحوكة لأحد ولا ألعوبة في يد أحد". وعلى ذلك تألف حزب جديد كبير مقصده إثارة أذهان البنات وفتح عيونهن لمقاومة ضحك الضاحكين ولعب اللاعبين. وهذا الحزب لا يعتمد على قوة ولا خشونة ولا اغتياب ولا وعظ، وإنما اعتماده على عاطفة واحدة في النفس وهي "عزة النفس" ذلك أن كل واحدة من أعضائه تأنف أن تكون أضحوكة وألعوبة للرجال.

فلما درى بذلك من يهمهم هذا الأمر من الشبان هاجوا وماجوا واتفقوا على مكيدة خفية، فإنهم بثوا دعاتهم يقولون "ما هذه الحياة المضجرة. ما هذه المعيشة المملة. إن الإنسان لا يعيش عمرين. فيجب أن ينبسط ويعاشر ويأخذ ويعطي، فالعمر قصير والهم كثير وهذه هي الموضة في هذا الزمان". وكانوا يرددون هذا الكلام على آذان البنات والسيدات بالأكثر. ولكن ذلك الحزب الجديد القوي كان شديد السهر. فإنه كان يقول لذلك القائل: "تعال وضع اصبعك تحت أضراسنا. إن الانبساط والانشراح يعودان عليكم بالسرور وقطع الوقت ولكنهما يعودان علينا وبالاً وذلاً لأنه يثلم صيتنا".

وربما تقولين في أي بلد هذا الحزب يا عزيزتي، فأجيبك أنه لا يزال في مخيلتي والمراد بما تقدم أن هنالك عاطفة كريمة هي درع فضيلة للنساء فيجب إيقاظها في النفوس منذ الصغر. وهذه العاطفة هي "عزة النفس والكبرياء".

أجل إنني لا أجهل ضرر الكبرياء. وكثيراً ما تكون هذه الصفة أم الرذائل ولكنها كثيراً ما تكون أيضاً أم الفضائل. اقرأي يا عزيزتي رواية للمؤلف المشهور أوجين سو عنوانها "الكبرياء" تجدي فيها تأييد هذا الرأي. فإن عروس روايته هذه بلغت بكبريائها أقصى حدود الفضائل. لأنها باحترامها نفسها وترفعها عن أن تقع عليها تهمة أو شبهة أنقذت نفسها وجعلت لها في نفس القارئ مقاماً سامياً. وعلى ذلك تكون الكبرياء عندي نوعين: فنوع ضار قبيح وهو المقصود به احتقار الغير وإضراره، ونوع نافع جميل وهو المقصود به الترفع عن الدنايا سراً وجهراً والفرار بإنفة وعزة من كل ما يجعل الإنسان صغيراً في عيني نفسه وعيون الناس. فمن لنا بمن يجعل همه إثارة هذه الكبرياء النافعة في نفوس النساء والرجال في الشرق. من لنا بمن يعلّم الفتاة أن كل تساهل منها مع شاب هو عبارة عن طعنة في صميم كبريائها وعزة نفسها لأن ذلك الشاب يضحك منها في سرّه لمقدرته على خداعها وإن أظهر في جهره الاحترام والحب لها. آه يا عزيزتي إنني أتمنى أن تسمع البنات الكلام الذي يدور بين شابين أو ثلاثة حين انصرافهم عن فتاة أو فتاتين كانوا في حديث معهما. فإنهن يتعلمن حينئذٍ ما لا ينسينه بعد ذلك وهو الحذر دائماً منهم ومزج لطفهن في مقابلاتهن لهم بشيء من الجد والرزانة ليشعروا بقوة البنات ويعلموا أن لحمهن مالح لا يُؤكل وقلوبهن قوية خبيرة لا تُخدع فيتهيبونهن ويتركون الضحك منهن.

هذا ما أردّ به على كتابك أيتها العزيزة، فأرجو منك أن تكتمي أمره أشد الكتمان فإنني أخشى أن يطلع عليه أصحابنا الشبان فنقع في بلاء جديد. ودمت لصديقتك ومحبتك.

"**كليمة**"

إبنة عمي العزيزة فريدة

دخلت أمس اتفاقاً إلى غرفتك فوجدت على مائدتك كتاباً مسهباً مفتوحاً من صديقتك كليمة، فلم أتمالك من قراءته. لأن أحب شيء إليّ هو قراءة مراسلات السيدات والبنات لأتعقب فيها مجرى أفكارهن واحتكاك عواطفهن ومواضيع بحثهن، وإنني أسالك المعذرة لصنعي هذا لأنه ضد الأصول. ولكن تلك الرغبة غلبتني كما تقدم.

إلا إنني لم آتِ على آخر الكتاب إلا وقد شعرت أن الأرض صارت تميد بي والسماء تتحرك من فوقي. ما هذا يا ابنة عمي؟ هل صديقتك تظن بجميع الشبان مثل ذلك الظن. هل جميعهم لديها بشر خداعون يسطون على سذاجة البنات ليضحكوا منهن ويقطعوا الوقت بمعاشرتهن؟ وحينما كانت تجلس معنا في السهرات وتسايرنا بلطف وأدب، هل كانت تفتكر بي أنا ابن عمك مثل هذا الفكر القبيح أيضاً! إذاً هي كانت تكذب وترائي وتخدع بإظهار اللطف والاحترام لنا. فهي إذاً تصنع نفس صنع الشبان الذين تذمهم ذلك الذم الشديد. فأي فضلٍ لها إذاً عليهم، وما الفرق بينها وبينهم.

ولست أحدثك يا ابنة عمي عن جميع الشبان الذين أعرفهم لأظهر لك فساد ظن صديقتك وإنما أكتفي بأن أحدثك عن صديق لي حديثاً سرياً قصّه عليّ منذ يومين. فإن هذا الصديق هو شاب في الرابعة والعشرين من العمر ذو جمال أنثوي أي أن لطف هيئته وخجله أقرب إلى النساء منه إلى الرجال. وكان لهذا اللطف الطبيعي محبوباً من الجميع. ففي ذات يوم اصطحبته رغماً عنه لزيارة صديق لي مريض. وكان في هذا البيت فتاة كالبدر جمالاً وكمالاً. وكانت في نحو الواحدة والعشرين أي من سن صديقي تقريباً. وكانت ذات لطف طبيعي. فوجه مرسومة عليه لوائح الهدوء والطهارة وراحة الضمير. وعينان زرقاوان جميلتان لا

تنظران إلى أحد ممن يشعرون بمعاني الجمال ويعرفون أسراره ويبقى له عقله. فكأن هذا الفتى وهذه الفتاة خلقا ليتفقا خَلقاً وخُلقاً. فلما دخلنا إلى بيت صديقي لاحظت رفيقي فوجدته قد ازداد هدوءاً وجمالاً حينما وقع نظره على نظر الفتاة الجميلة، فبقيتُ ألاحظه وألاحظها فخيّل لي أن نفسيهما تآختا لأول نظرة، ولكنهما لم يكونا يترامیان بالنظر إلا من حين إلى حين بأوقات دورية. هذا في أول الزيارة. قال لي صديقي بعد مدة: "أما في آخرها فقد رأيت نفسي كرجل نازل في أحدور. فإن تلك العينين بثتا السحر في نفسي. فصرت أشعر بقشعريرة الحب الحقيقي. وصرت أجد لذة عظمى في النظر إليها. غير إنني فكرت برهة وقلتُ في نفسي: إنني على وشك أن أحب حبّاً شديداً يقرب من العبادة. فإنني قد وجدت المعبود الذي كنت أراه في أحلامي الذهبية. ويكفي أن أزور هذا البيت زيارة أخرى فقط لكي أصبح بلا عقل ولا قلب. إلا أن عقلي كان ينهاني عن ذلك أشدّ نهي. فإنني كنت عالماً إنني لا أقدر على الزواج في ظروفي الحالية، وإذا طلبتُ منها أن تنتظرني بضع سنين فربما لا أقدر أن أفي وعدي في الأجل المضروب. فماذا أصنع؟ هل أوغل في هذا الحب الشديد الذي ملك نفسي وإن لم يكن لي في الزواج مأرب، أم أخنق هذا الحب وأقتله في مهده قبل أن يقوى ويدرج؟ فوجدتُ في نفسي قوة على هذا الصنع، والذي قواني افتكاري إنني أعمل عملاً واجباً عليّ في شريعة الآداب والضمير. فصرفت عينيّ منذ ذلك الحين عن فتاتي الجميلة. وصرت أظهر لها عدم المبالاة وعدم الاهتمام كلما ألقتني التقادير في طريقها مع أن قلبي يتأجج حباً لها. أما هي فقابلت عملي هذا بكل هدوء وبلا اهتمام أيضاً كأنها شعرت ذات شعوري. وإنني أعدّ من أعظم أعمالي في حياتي مهما عملت فيها من العظائم تلك العاطفة الأدبية التي جعلتني أقوى على مقاومة نفسي ومنعتني من خداع فتاة طاهرة سليمة القلب بإظهار الحب لها مع أنه ليس في نيتي الاقتران بها".

هذا يا ابنة عمي الحديث الذي أردت أن أطلعك عليه لأعلمك أن بين الشبان الذين تمقتهم صديقتك أناساً كراماً تبلغ عندهم الشهامة أقصى حدودها. فقولي لي الآن هل قرأتِ عن أبطال الروايات ما ذكرته لك عن صديقي. وكوني على ثقة تامة أن هذه القصة حقيقية لا ريب فيها. وإنني أسالك لو كانت صديقتك مكان صديقي هل كانت تجد في نفسها من القوة ما يساعدها على أن تصنع صنعه؟ سليها ذلك؟ إذ لا يهمني أن تطلع صديقتك على هذا الكتاب بعد ما ذكرته عنا.**ابن عمك** "**سليم**"

ابن عمي العزيز

ألقيت على صديقتي السؤال الذي ذكرته وأطلعتها على كتابك. فأطرقت تفكر طويلاً ثم قالت لي إنها ستجاوبك بإسهاب في البريد القادم. فانتظر جوابها.

فريدة

الجزء السابع، تشرين الأول 1903

مجلة الرجال لا مجلة السيدات

عزيزتي أدما،

هل قرأتِ يا عزيزتي العدد العاشر من مجلة السيدات؟

كنا في جمعية مساء أمس وكان هذا الجزء يتقلب بين أيدي الحاضرين من رجال ونساء وهم يقرأون فيه المقالة التي عنوانها "واجبات الزوجة العاقلة". وبعد أن أتوا على قراءتها كلهم أشرقت وجوه الرجال فرحاً وابتهاجاً. وقال أحدهم "هكذا تكون الكتابة وإلا فلا. حقاً إني سآخذ هذا الجزء إلى زوجتي وأجعلها تقرأه مائة مرة ومرة". وقال آخر "إنني بعد صدور ذلك الجزء سمعتُ قارئاً ذا ذوق سليم يقول لكاتب: متى كتبتم فاكتبوا كهذه المقالة وإلا فلا". وقال آخر ويظهر أنه محروق القلب من سلوك زوجته معه "إن هذه المقالة شفت قلبي وأروت غليلي"... وجميع حضرات الرجال الحاضرين ضربوا على هذه النغمة.

أما السيدات فكنّ في خلال ذلك يتثاءبن ويتشاغلن عن هذا الموضوع بسواه. ولكن الرجال كانوا لا يفلتون من أيديهم الصيد الذي صادوه. ولذلك كانوا كلما فارقوا الموضوع عادوا إليه. فتركتُ أنا حينئذٍ أيتها العزيزة التثاؤب مع المتثائبات وتناولت العدد المذكور لأرى تلك المقالة التي كانت سبب هذه الضوضاء. ولكنني ما قرأتها حتى فهمت حق الفهم سبب استحسان الرجال لها.

ما هذا يا عزيزتي، هل ستصير (مجلة السيدات) مجلة الرجال؟ إنني أذكر أن أحد الرجال حين صدورها صار يقول إنه لا يهمه الاشتراك فيها لأنها للسيدات. أما الآن فقد صار الرجال أكثر تسابقاً إليها من السيدات. نعم إنني لا أجهل أن ذلك لأن مواضيعها جامعة لما يهم ويلذ الفريقين، ولكنني أرى بالأكثر أن الرجال

ما صاروا يميلون إليها ذلك الميل إلا لأنها من جهتهم. وإذا لم يكن هنالك برهان على ذلك سوى مقالة "واجبات الزوجة العاقلة" فكفى به برهاناً.

إقرأي هذه المقالة يا عزيزتي أدما واخبريني ماذا ترين فيها. لا ريب أنك ترين أن المرأة يجب أن تكون رفيقة الرجل وظله وخادمه فكل ما في المقالة يدل على هذا الاستعباد. فالمرأة فيها ليست شيئاً مذكوراً بدون الرجل، فعليها أن تطيعه وتخضع له وإن أساء إليها وتخاشن عليها، وأن تتكر ذاتها من أجله. وليس من أجله فقط بل ومن أجل أهله: وبعبارة واحدة أن المرأة لا شيء وعليها احتمال كل شيء، أما الرجل فهو الكل ولا يجب أن يحتمل شيئاً. فهل هذا يا عزيزتي ما يسمونه "واجبات الزوجة العاقلة"؟ كلا. إن لهذا اسماً آخر وهو "تضحية المرأة من أجل الرجل إرضاءً له"، أي تضحية نصف البشر الضعيف لنصفه القوي. وبكل حرية أقول لك أيتها العزيزة ولمجلتنا المحبوبة إننا نحن الشرقيين لا نحتاج كثيراً إلى هذه المبادئ التي تجعل المرأة مدعوسة تحت أقدام الرجال. فإن عاداتنا الشرقية وتربيتنا وأحوالنا وقوانيننا كلها تساعد على هذا الدوس، فكفانا ما لدينا منه فلا نزيدن الطين بلّة. بل الأولى بنا أن نبدأ بإدخال روح الحرية والاستقلال الذاتي في نفوس سيدات الشرق بدل العبودية، فإنهنّ بحاجة إلى هذا لا إلى ذاك. ومبادئ كتلك المبادئ جديرة بالبشر في إنكلترا وأميركا مثلاً حيث النساء خرجن عن سلطة الرجال خروجاً تاماً وأصبحن مدبرات أمورهن. أما في الشرق فالمرأة لا تملك حتى نفسها وشخصيتها، فعن أي شيء يُطلب منها أن تتنازل بعد هذا.

هذا ما رأيت أن أوجّه نظرك إليه حتى إذا قابلتِ صاحبة المجلة تقرأي لها هذا الكتاب وتطلعيها على رغبتنا، فإنه لا يجب على مجلتها أن ترينا فقط "واجبات الزوجة العاقلة" بل يجب بالأكثر أن تري الرجال "واجبات الرجل العاقل"، فاقترحي عليها هذا الموضوع وألحي عليها في أن تكتب فيه. وقد بلغني من المدموازل

حنينة التي زارت إدارة مجلة السيدات في هذا الأسبوع أنها قرأت في الجزء الحادي عشر الذي سيصدر قريباً مقالة أخرى عنوانها "واجبات المرأة الجاهلة"، وكلها تهكم على بعض العادات النسائية. فيا عزيزتي يجب أن لا تجور مجلة السيدات على السيدات بل على الرجال أصحاب القلوب الجامدة واللحى الخشنة. فننتظر منها في العدد الذي يليه مقالتين عنوان الواحدة "واجبات الرجل العاقل" والأخرى "واجبات الرجل الجاهل"، وإلا فإنني أقسم بأنني لا أعود أقرأ مجلة السيدات. ودمت لصديقتك.

اسما

***

حاشية – لا أخفي عنك أن تلك المقالة لم تغظني لهذا الحدّ إلا لأن زوجي صار يحمل ذلك العدد في جيبه وكلما جلسنا يفتحه ويقرأها بصوت جهوري. فبحياتك دعيني أقرأ له غداً المقالتين اللتين طلبتهما منك.

مجلة السيدات: سنعمل في الجزء التالي بطلب صاحبة الرسالة لأنه حق. فننشر مقالتين في واجبات الرجل العاقل والرجل الجاهل كما نشرنا مقالتي المرأة العاقلة والجاهلة. ونحن نشكر صاحبة الرسالة لأنها نبهتنا إلى ذلك، أما باقي انتقادها فليس هذا مكان الردّ عليه.

الجزء الحادي عشر، سنة 1903

القصص الشهريّة

في كل جزء تُنشر قصة وطنية أدبية تهذيبية مخصوصة بالسيدات والبنات وهي تبتدئ وتنتهي في الجزء نفسه.

يوم للملائكة في الأرض

قصة للكبار والصغار

للملائكة يوم مخصوص تطير فيه من منازلها الأبدية في السماء وتنزل إلى الأرض كأنها حمامات بيضاء لتتنزه فيها وتشاهد غرائبها وتفتقد الحزانى والتعساء والمتعبين فيها. ولكن هذا اليوم مجهول لا يعلمه أحد. وفي هذا العام كان نزولها في 25 فبراير الماضي، فالذي نهض في ذلك اليوم عند الفجر وسرّح طرفه في السماء في الساعة السادسة صباحاً تقريباً رأى منظراً لا يراه الإنسان مرتين في حياته. فإن مخلوقات بيضاء كالثلج مجنّحة كالإوز ينبعث منها نور لطيف أبيض كنور القمر ولها وجوه مشرقة كالبدور – كانت تملأ الفضاء شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً وهي تنتقل من جانب إلى جانب بسرعة البرق الخاطف. وكانت الأرض في تلك الساعة هادئة ساكنة لأن أهلها لم يكونوا قد انتبهوا من الرقاد بعد.

وفي الساعة السادسة والربع تقريباً انفرد منها ملاك ونزل إلى الإسكندرية. وكأن كل الملائكة التي كانت تحوم حولها فوق الضباب الذي كان مخيماً عليها

درت بسبب نزول هذا الملاك إليها فصارت كلها تنظر إلى المكان الذي نزل فيه. وهذا المكان كائن في رأس التين قريباً من شاطئ البحر وهو بيت منفرد صغير حقير مدهون بلون أصفر فوقه طبقة واحدة.

وكان في الطبقة السفلى من هذا البيت نافذة مشرفة على الشارع ومنها كان يُسمع بكاء ولد وصراخ رجل. أما الرجل فقد كان يصيح بكل قوته: ماذا أعمل لكم يا ناس. مرّ عليّ ستة أيام بلا شغل فمن أين لي المصروف لأصرف عليكم. فعلا حينئذٍ صوت امرأة أجابته بقولها: إذا لم يكن معك شيء من المصروف فهل يستوجب ذلك أن تضرب ابنك. فأجابها الرجل: لقد أهلكني طول الليل ببكائه وندائه أريد آكل أريد آكل. فهل هو أحسن مني فأنا أيضاً مرّ عليّ يوم وليلة دون أن آكل سوى وقعة واحدة. وماذا نعمل بصاحب الورشة فإنه مصرّ على عدم زيادة أجرتنا وعدم تخفيف أوقات عملنا ولذلك فنحن مصرّون على الاعتصاب حتى يقبل. آخ من الخواجا لاغودا كيس. حقاً إن هذا الرجل قوي، فإننا اعتصبنا في مطبعته في شهر واحد ثلاث مرات وعددنا نحو ثمانين عاملاً بين كبير وصغير ومع ذلك فإن ورشته لم تتعطل سوى يوم واحد. وقد صار بعد هذا الاعتصاب يطرد الطليان واليونان من مطبعته ويطلب استبدالهم بالعملة المصريين والسوريين لظنه أنهم أكثر قناعة وألين مراساً. ولكن الحق أقول لك إننا كرهنا هذا الاعتصاب الذي يوقعنا في مثل هذا الضيق. ولذلك أظن أن الخواجا سيقوى علينا.

وفي هذا الوقت سُمعت حركة شديدة في إحدى جوانب البيت فصاحت المرأة ما هذا يا سليم. فارتفع حينئذٍ بكاء الولد حتى بلغ العنان. فنهضت إليه امه فأبصرت أن القدر التي وضعها الصبي على النار وفيها شيء قليل من العدس (وهو كل ما كان في البيت من الطعام في ذلك اليوم) قد سقطت على الأرض وانكسرت. فلما نظرت الأم ذلك استشاطت غيظاً لضياع طعام يومهم وكانت تعلل

نفسها بأن تأكل ولو وقعة في ذلك اليوم. فانقضت في نوبتها على الولد ولطمته لطمة شديدة. فسقط الولد على الأرض واخذ يصيح. وكأنه خاف أن تعيد امه عليه الكرّة حسب العادة فنهض مسرعاً إلى باب الزقاق الذي كان قريباً منه وخرج وهو يبكي ويلتفت إلى البيت.

وكان عمر سليم ثماني سنوات وهو ولد لطيف نحيف أزرق العينين أبيض الوجه محبوب وإن كانت ملابسه عليه غير نظيفة. فظلّ سائراً وهو يبكي ويضع يده على جبينه الدامي من حجر صدم رأسه في الأرض. وبعد عدة خطوات قطع عليه طريقه شخص جميل الوجه ذو جناحين في كتفيه. فترك سليم البكاء حين مشاهدة هذا الشخص المجنّح الغريب وصار محدقاً فيه. فابتسم له الشخص وقال له بلطف مالك تبكي يا سليم. فلم يعجب سليم من معرفة ذلك الشخص الغريب اسمه لأنه كان صغيراً لا يدرك هذه الأمور الدقيقة. فأجابه: مرّ عليّ يومان بلا أكل. فقال له الشخص ضاحكاً أما أنا فقد مرّت عليّ سنوات بلا أكل. ففتح سليم فاه دلالة الاستغراب. فقال له الشخص الغريب إنك لا تصدقني ولكنك لو ذهبت إلى بلادي وأقمتَ فيها لصرت مثلي. فسأله سليم وأين بلادك. فأشار الشخص الغريب إلى السماء وقال: هناك.

وعند هذه الإشارة التفت سليم إلى السماء فأبصر في الفضاء فوقه وفوق رفيقه مئات وألوفاً من الأشخاص المجنّحة مثله وكلها تنظر إليهما من الأعالي وتضحك.

ويظهر أن سليماً نسي الجوع والألم والبيت في هذه الساعة فقال للشخص مستغرباً: مَنْ هؤلاء؟ فأجابه الشخص المجنّح: اسمع يا سليم انك تعذبت في هذه الأيام من دون أكل فقد صار من حقك أن تستريح فهل تريد أن تذهب مع هؤلاء إلى بلادي. فأجاب سليم مذعوراً: كلا كلا لا أترك البيت. فقال له الملاك ولكنك لا

تغيب إلا يوماً واحداً، فتشاهد هناك أموراً جميلة جداً ثم تعود. ففكر الولد قليلاً ثم قال: ومن يخدم ماما وبابا في غيابي فإنهما يفتشان عليّ الإسكندرية كلها. فأجاب الملاك: أنا آخذ هيئتك وأخدمهما بغيابك فيحسبني أبوك وأمك إياك. فأجاب سليم وقد اشتاق أن يطير في الهواء إذا كان الأمر كذلك فأنا أرضى.

فمدّ الملاك حينئذٍ يده إلى جناحيه فاقتلعهما من كتفيه وغرسهما في كتفيّ سليم ثم حمله وقذفه في الفضاء. فسار سليم نحو الملائكة وهم يضحكون منه وقد اسرعوا لاستقباله. أما الملاك فإنه صار ولداً بهيئة سليم ودخل إلى البيت.

وبعد ساعتين وصل سليم إلى الجنة فلما رأى حارس الباب جناحيه تركه يدخل. فدخل سليم مشروح الصدر إلى ذلك المكان. فشاهد فيه الأنهار الجارية والأشجار العالية والأزهار والأثمار المتنوعة. وكان الناس فيها أفواجاً أفواجاً يضحكون ويلعبون ويطيرون من مكان إلى مكان. أما الملائكة فإنها كانت تمرّ في جوها مرّ البرق. وكان من حين إلى حين يُسمع صوت كالرعد القاصف وتُرى الشموس والكواكب تسجد سجوداً. فدهش سليم ودنا من شيخ الجنة وسأله: ما سبب هذه الرعود وهذا السجود؟ فأجاب الشيخ: هذه المخلوقات تسجد لخالقها حين استقبالها إياه.

والغريب أن سليماً لما وصل إلى هناك لم يعد يحسّ بجوع ولا تعب ولا ألم فكأنّ هواء دار الخلد قد جدّد قواه كلها. وبينما هو مدهوش من المناظر العجيبة التي كان يراها وإذا برهط من الملائكة في أيديها أبواق طويلة قد هبط أمامه يتقدم مركبة نارية. ثم خرج من المركبة شخص عظيم الهامة والجناحين. فصاح حينئذٍ ملاك: بوّقوا لرئيس الملائكة. فنفخ الملائكة بالأبواق نفخاً رهيباً. واتفق وقتئذٍ أن وقع نظر رئيس الملائكة على سليم فابتسم وقال له: هذا أنت هنا يا سليم. فأجاب سليم بخوف: نعم يا سيدي. فقال له الرئيس: وما هذا الدم في جبينك. فأجاب

الولد: ضربتني أمي. فقال الرئيس: فاسمع مني إذاً وابقَ عندنا ودع سكان الأرض وقساوتهم. فأجاب الولد: لا لا يا سيدي فإنني لا أطيق فراق أمي. فالتفت الرئيس حينئذٍ إلى الملائكة وقال: حتى بينكم أيها الملائكة لستُ أجد قلباً أرق من قلب هذا الولد وأبرّ بوالديه مع قسوتهما عليه.

وصرف سليم ذلك اليوم في الجنة ولما أمسى المساء ذكر أمه وبيته فعاد راجعاً حتى وصل إلى الأرض فاتجه نحو بيته في رأس التين. ولما وصل إلى البيت وجد الملاك صاحبه خارجاً منه عابساً وهو يحكّ ذراعه من ألم ضربة. فبادره سليم بالسؤال كيف ماما وبابا. فأجابه الملاك: الله يساعدك عليهما فقد ذقت منهما في يوم واحد ما لا يُطاق. ثم إن الملاك أخذ جناحيه وأعادهما إلى كتفيه وودع سليماً بقبلتين في وجنتيه وطار في الفضاء. ولما طار انتبه سليم إلى جوعه فصاح به: أنت أنت أجبني ماذا صنعوا بقدر العدس الذي انقلب على الأرض أما أحضروا سواه. فأجابه الملاك: نعم فقد انتهى الاعتصاب وستأكل الليلة ما يملأ جوفك.

ثم إن الملاك ذهب وهو يقول: إن الملائكة لا تحتمل ما يحتمله هؤلاء الأولاد من القسوة وسوء المعاملة.

ومنذ ذلك اليوم وضع رئيس الملائكة في كل مدينة وكل قرية ملاكاً خصوصياً يكتب له سوء المعاملة التي يلقاها الأولاد من أهلهم لتحفظ كلها إلى يوم الحساب.

العدد الأول، نيسان 1903

من أجل قبلة واحدة

قصة للخطّاب والخطيبات

حدثت الحادثة التالية في محطة من محطّات الرمل في ضواحي الإسكندرية. ونحن لا نسمي هذه المحطة رغبة في كتمان أمر الأشخاص التي حدثت لهم.

ففي مساء يوم شمّ النسيم في هذا العام كان فتى مشغول الأفكار راكباً قطار الرمل قاصداً هذه المحطة. وكان كل شيء حول هذا الفتى باسماً مسروراً. فالناس كانوا منتشرين في البرية انتشار الجراد وقد خرجوا بالسكة الحديدية والمركبات لاستقبال عروس الربيع. وضوضاء الغناء والهتاف والصراخ تملأ الفضاء. والهواء المعطَّر بريح الأزهار المنتشرة من الحدائق والحقول يهبّ شديداً تحت سماء غائمة فيمزج رائحته الطبيعية برائحة صناعية منبعثة عن زينة السيدات الجميلات اللواتي كنّ منتشرات بين الرجال في كل مكان انتشار الأزهار بين الأعشاب.

وبينما كان هذا الفتى يتأمل في ذلك الفرح العام في ذلك اليوم الذي تصير فيه مصر بعناصرها المختلفة أمةً واحدةً تعيّد عيداً واحداً كأنها بروح واحدة ونفس واحدة وينسى فيه كل إنسان شواغله بضع ساعات – وإذ وصل القطار به إلى المحطة التي كان يقصدها بعد قطعه المحطات التي تقدّمتها. فعند وصوله أرسل نظره من القطار إلى بيت في شرقي المحطة بعيداً عنها قليلاً ثم ابتسم ونزل من المركبة قاصداً البيت وهو يقول بين شفتيه: لا يزالان كما كانا.

وسبب ابتسامه على ما يظهر أنه شاهد في حديقة البيت فتى وفتاة جالسين على مقعد كل واحد منهما في طرف وظهر أحدهما إلى الآخر وهو يسند رأسه بيده ويفتكر بهمّ وغمّ.

فكان بين هذا الفتى والفتاة وبين المناظر التي حولهما تناقض غريب. لأن كل شيء دونهما كان مسروراً في ذلك الوقت حتى طيور الحديقة التي خفّت حركتها واشتدّت زقزقتها عندما رأت الناس قد خرجوا من جدران منازلهم الكثيفة المظلمة في المدينة ليشاركوها في الهواء النقي وزهر الأرض ونور السماء التي تنشأ تلك الطيور آمنة مطمئنة في وسطها لا تحتاج شيئاً غيرها ولا ترهب شيئاً فيها غير عدوان الإنسان.

فلما دخل الزائر إلى الحديقة التفت الفتى الجالس على المقعد لصوت وقع قدميه. ولما رآه قادماً نهض وهو يتنهد. فبادره الزائر بالسؤال: هل جدّ شيء يا إميل. فأجاب الفتى: كلا يا صديق وأظن إنني سأفسخ الخطبة هذه الليلة. فقال الزائر وهل اطلعت أباها وأمها على ما دار بينكما. فأجاب إميل كلا وما الفائدة من ذلك إذا كانت لا تحبني. فقال الزائر ربما قدر أبوها وأمها أن يقنعاها بالامتثال لك وتعليمها إرضاءك. فهزّ إميل رأسه وقال: إذا كان الآن يجب أن يكون بيني وبينها من يقنعها بوجوب إرضائي والخضوع لي وأنا خطيبها وسأكون قريباً زوجها فإنني أخشى أن تحتاج إلى ذلك أيضاً بعد الزواج وهناك المصيبة. كلا يا صديق نصف الطريق ولا كلها. فإذا كانت لا تحبني كما ظهر لي فخيرٌ لي أن لا أغصبها قلبها.

وكانت الفتاة لا تزال جالسة على المقعد مستغرقة في التأمل وهي تختلس النظر إلى الشابين وهما يروحان ويجيئان في جانب الحديقة الثاني. غير أنها لم تلبث أن أجفلت لصوت مركبة وقفت على الباب فتطاولت لترى القادم وإذ أبصرت أنه امرأة هبّت من مكانها كلبوة واسرعت إلى الباب. فعانقتها السيدة القادمة وهي

تضحك والدموع تترقرق بعينيها. أما الفتاة فإنها انطرحت بين ذراعيها وصارت تبكي. فقبّلتها السيدة عدة قبلات في وجنتيها وسكّنت جأشها ثم عقدت ذراعها بذراعها ودخلت بها إلى البيت. أما الشابان فإنهما تواريا قليلاً وراء شجرة ضخمة حينما شاهدا السيدة الزائرة وقال إميل لرفيقه: هذه معلمتها ورئيستها.

وظلت الرئيسة سائرة بفتاتها حتى وصلت إلى غرفة النوم الخاصة بها. فدخلت الفتاة مع الرئيسة وأقفلت الباب وراءهما. فانطرحت الرئيسة على مقعد هناك وأجلست تلميذتها بجانبها وهي تعانقها. ثم سألتها: ما هذا اليأس الذي في كتابك يا عزيزتي لميا. فبكت الفتاة لميا ثانية وأغرقت في البكاء. فقالت الرئيسة ولكن ماذا يفيد البكاء. أخبريني لنعلم السبب ونزيله.

وكانت لميا فتاة في السادسة عشرة من العمر. غير أن من يراها يحسب أنها في العشرين لطول قوامها الجميل الذي كان كأنه غصن بان. وكبر هامتها. واستدارة وجهها الصبوح الذي كان كأنه بدر معلق على طرف غصن. وكانت بيضاء اللون سوداء الشعر ولها عينان سوداوان ناعستان هادئتان تدلان على أن تحتهما نفساً ساكنة هادئة لم تثرها بعد عواصف الحياة ومصائبها. إلا أن هاتين العينين الهادئتين كان يظهر فيهما حيناً بعد حين شيء من البرق مما يدل على أن تلك العواصف والزوابع قد ابتدأت فيهما.

فلما سألتها رئيستها ما سبب هذا البكاء رفعت لميا منديلها إلى عينيها بشيء من الحدّة الجميلة المستحبة أحياناً من الهادئات مثلها فمسحت به دمعها بسرعة وأجابت: أنتِ السبب يا سيدتي.

فهنا ضحكت الرئيسة وقهقهت لهذا الجواب. وسألتها كيف كنتُ أنا صديقتك السبب في الإساءة إليك على غير علم مني.

فأجابت الفتاة وقد تحمست هذا الجواب الطويل: "وحياتك يا سيدتي إنني غير مازحة. فإنني أتكلم من كل قلبي. نعم أنت السبب في ما لقيته من العناء في الأشهر الثلاثة الماضية. فإنك تعلمين قصتي يا سيدتي. إنني فتاة ربيت في مدرستك ونشأت على مبادئك. ولست آسف لذلك لأنني مفتخرة به. ولولاه لكنت جاهلة لا أعرف شيئاً من حقوقي وواجباتي في العالم. ولكن لا تستغربي قولي إذا قلتُ لك إن هذه المعرفة نفسها هي التي جاءتني بالعناء الذي أشكو منه. فإن التربية التي نترباها نحن البنات في مدارس الشرق الآن تنفعنا وتضرّنا معاً. تنفعنا لأنها ترفع نفوسنا وتعظّم قلوبنا ونكبر آمالنا وتعلمنا حقوقنا وواجباتنا وتضرّنا لأننا بعد حصولنا بالمدرسة المفيدة على هذه القوى الأدبية الثمينة لا نجد لها منفذاً ولا قيمة في الهيئة الاجتماعية حولنا. فنكون كأننا تربينا في المدارس أسمى تربية لنجعل مبادئنا السامية بعد ذلك عذاباً لنا. إذ لا نحن نفهم الذين حولنا ولا هم يفهموننا. فعاداتنا الشرقية تناقض تربيتنا المدرسية ولذلك نتعب كثيراً مع أهلنا في البيت حين خروجنا من المدرسة إليه. وأذواق أكثر الشبان في هذا الزمان أذواق باردة لأنهم لا يطلبون الفتاة لأدبها وكمالها ومعارفها الأدبية والمنزلية ولكن لدوطتها. أي لمالها. ولذلك لا ينفعنا كل ما نتلقاه في مدارسكِ يا سيدتي لأن المال مقدَّم عليه. فهل علمتِ الآن لماذا أنت السبب في تعاستي".

فقالت الرئيسة وقد عبست قليلاً: لو لم أرَ الدموع في عينيك يا لميا لقلتُ إنك تمزحين. فما هذا الكلام. فإنني أعلم أنك مخطوبة وذات دوطة هائلة وإن كانت خطبتك بالرغم عني. فأي علاقة بين حالتك والحالة التي تصفينها.

فأجابت لميا حينئذٍ بجدّ كبير عليها بالنسبة إلى سنها: "العلاقة ظاهرة يا سيدتي. فإن الفتيات اللواتي يخرجن من تلك المدارس نحيفات الذوق إلى ذلك الحد. شديدات الإحساس. متربيات على المبادئ المدرسية السامية. يكنّ شديدات

التعاسة إذا لم يجدن بين خطّابهن خطيباً ينطبق ذوقه على ذوقهن. ومن سوء الحظ أن هذا التفاوت في الأذواق بين الجنسين قد أخذ بالزيادة في عصر كهذا العصر. فالشبان لا تنشأ عواطفهم إلا على حبّ الثروة والمادة والأهواء. وأما الفتيات فإنه لا يزال في نفوسهنّ المكان الواسع للحياة الروحية أي الحياة الغزلية التي هي حياة النفس الحقيقية. فنحن وإياهم على طرفي نقيض. نحن نطلب النفس وهم يطلبون الجسد. وبين النفس والجسد ما بين التراب الكثيف الواطئ والروح الخفيفة العالية".

فقطعت الرئيس هنا كلام الفتاة وقالت: أظنّ إنني فهمت الآن شيئاً مما تريدين بيانه ومن أجله كتبتِ إليّ. هل حدث بينك وبين إميل ما كدّر صفوكما.

فأجابت لميا وقد أطرقت إلى الأرض: لا أخجل من الكلام معك بهذا الموضوع لأنكِ رئيستي ومدربتي فضلاً عن كوني قد تعوّدت محادثتك واستشارتك في كل ما يهمني. ولذلك أقول لك إن خطبي مع خطيبي غير هيّن. وأظن أن خطبتنا ستؤول إلى الفسخ إذا بقي متشبّثاً بأخلاقه. ولذلك بعثتُ أطلبكِ لترشديني.

إن إميل يزعم أن للخطيب الحق "في أن يتصرف بشيء من الحرية مع خطيبته"، وأما أنا فبناء على ما أعرفه من واجبات الخطيبة نحو نفسها قبل الزواج أنكر هذا الحق. وقد تباحثنا في هذا الأمر أولاً بهزل ومرح، ولكن انتهت الحال بي وبه إلى البحث في ذلك من جد. ولما حاول إثبات قوله بالفعل أوقفته عند حده بهيئة رسمية فغضب وقال إنني خطيبته وعليّ الخضوع له. فأجبته...

فقاطعت الرئيسة هنا حديث تلميذتها وقد بدأت تهتم به أشد اهتمام وقالت لها: لقد وصلنا في كلامك أيتها العزيزة إلى الألغاز والمعميات فاوضحي كلامك ولا تخافي فإنني أمك الثانية.

فأجابت لميا وقد صبغ الحياء جبينها الناصع البياض وكلله حباب العرق كأنه در منضد: إن إميل يطلب لنفسه "حق التقبيل" حتى أمام الناس.

فنظرت الرئيسة في عيني لميا جيداً ثم قالت: وما الضرر من تقبيله إياكِ. دعيه يقبلك في جبينك على الأقل فإن هذه قبلة جائزة عند الإفرنج خلافاً للقبلة في الفم.

فصعد هنا جميع دم لميا إلى رأسها حتى كادت تختنق من الخجل والغيظ لا سيما وأنها لم تُدرك ما في كلام الرئيسة من لهجة التهكم. ثم أجابتها: "أمثلك ينصح هذه النصيحة يا سيدتي. وهل هذا ما تعلّمناه في مدارسك. كلا إنني لا أدع خطيبي يقبّلني باختياري ولو خنقني. وقد قلت "باختياري" لأنه قد يستطيع أن يقبلني بالرغم عني وذلك على غفلة مني وحينئذٍ لا يجب أن أهينه ولا أكدره بل يكفي أن أقول له: إنك عملت عملاً لا يسرّني الآن. ولكن إذا قال لي "أدنُ مني حتى أقبلك" فإنه لا يكون لديّ جواب غير الابتعاد بدلاً من الدنو والسخط بدلاً من الرضى. فإنك أوّل من علّم الخطيبات يا سيدتي أنه يجب على الخطيبة أن تبقى غريبة عن خطيبها حتى يُعقد الرباط المقدس بينهما. إذ من يعلم ماذا يخبئ الزمان لتلك الفتاة المسكينة. من يعلم إذا كان هذا الخطيب الذي ارتبطت به برباط ضعيف جداً يبقى ثابتاً على عهدها. فعليها إذاً أن تبقى محافظة على شرف اسمها وذلك أن تعامل خطيبها معاملة صديق عزيز لا أكثر. وإلا فكل هبة تهبه إياها ربما اضطرت بعد ذلك أن تبكي ملءَ عينيها أسفاً على أنها وهبته إياها.

"ثم هنالك نظر آخر يا سيدتي. ولا تلوميني لأن كلام التلميذة قد اتخذ أسلوب الوعظ أمام الرئيسة فإن هذا شأن الصغار مع الكبار متى تقدموا قليلاً. نعم هنالك نظر آخر في غاية الأهمية. وربما كان أهمّ مما تقدم. وهو أن الفتاة المخطوبة متى رأت نفسها في حالة كالحالة التي أشكو الآن منها وقعت بين

نـارين. فإنهـا تسـأل نفسـها: هل أن خطيبـي رجل كـريم حسـن الأخـلاق. فـإذا كـان كريماً حسن الأخلاق فإنه ينفر منها في نفسه ويضعف ميله لها واحترامه لها إذا رآها تجاريه ولا تحفظ نفسها منه حفظاً تاماً. ذلك لأن الكريم لا يحب إلا الكريمة. والفتاة الكريمة تذكر وهي في أثناء الخطبة أن كل حركة وكل قبلة تعطيها إلى خطيبها الذي ليست هي على ثقة منه ستحمرّ خجلاً من ذكرها متى صارت زوجته على افتراض وقوع الزواج. وتضع نصب عينيها دائماً أن الخطيب الكريم إذا تمنعت عنه خطيبته حتى في أصغر الأشياء فإنه يزداد حباً واحتراماً لها بدلاً من أن يسخط لتمنعها. وأما إذا كان الخطيب غير كريم ولا حَسن الأخلاق فلا أسف عليه.

وقد قالت لميا العبارة الأخيرة بشيء من النزق والحدّة. فضحكت لها حينئذٍ رئيستها وفتحت ذراعيها ثم قالت: تعالي إليّ، لأضمّك إلى صدري يا عزيزتي فما ضاعت فيكِ تربيتي. أما ما سمعته مني الآن فما هو إلا هزل قصدتُ به الوصول إلى رأيك. والآن قد عرفت سبب غمّك وإرسالك في طلبي. فاخبريني أين أجد خطيبك لأقابله. أما هو الذي شاهدته يتنزه في الحديقة مع شاب آخر؟

فأجابت لميا بل أنه في الحديقة. فقالت الرئيسة دعيني أقابله برهة على انفراد.

بعد عشر دقائق كان إميل في غرفة منفرداً مع الرئيسة. ففتحت الرئيسة الحديث بقولها: سمعتُ أنك يا خواجا إميل مستاء من مدموازل لميا.

فصبغ الخجل وجه إميل وقال: لا لست مستاءً منها بل إنني أرى أنها لا تحبني.

فقالت الرئيسة: وما دليلك على أنها لا تحبك.

فسكت إميل.

فقالت الرئيسة: أظن دليلك كونها لا تسمح لك بتقبيلها.

فقال إميل بشيء من النزق: ولكن أليس من حق الخطيب أن يقبل خطيبته.

فأجابت الرئيسة حينئذٍ: لا. ليس هذا من حق الخطيب بل من حق الزوج، ولو كنتُ شاباً مثلك يا خواجا إميل ورأيت خطيبتي كاملة في عيني لا ينقصها شيء غير أن تسمح لي بتقبيلها ثم رأيتها تضنّ عليّ بهذه القبلة لسررتُ ببخلها هذا لأنه دليل على كمال أدبها. نسيتَ أن هذه الخطيبة التي ستكون غداً زوجتك وأم أولادك وربة منزلك لستَ الآن إلا فرداً غريباً عنها. فلا تطلب الآن حقوقاً من خطيبتك لأنك لم تخطبها من أجل ذلك بل خطبتها لتختبر أخلاقها وتختبر هي أخلاقك. ويظهر لي بعد هذا الاختبار أنكما على طرفي نقيض. فهل تريد فسخ هذه الخطبة يا خواجة إميل.

وكانت الرئيسة تتكلم وإميل مصغٍ بانتباه شديد. ويظهر إنه حدث في نفسه ردّ فعل لكلام الرئيسة وانتبهت فيه عواطف الأب المقبل والزوج المقبل فتحقق أن خطيبته بحفظها نفسها ذلك الحفظ الشديد الدقيق إنما تحافظ على حقوقه نفسها – أي حقوق زوجته وأم أولاده المقبلة. فحوّل وجهه بخجل لا مزيد عليه وقال وهو مطرق كالأولاد: لقد أخطأتُ في سلوكي يا سيدتي وأنا مستعد لطلب الصفح من لميا.

ففرحت الرئيسة بحل هذه المشكلة حلاً سريعاً وخرجت مع إميل تطلب لميا لإبلاغها انقضاء الخلاف. وفي خروجها من الغرفة وجدت رفيق إميل منتظراً أمام الباب وكان قد سمع كل الحديث فانفرد بالرئيسة وقال لها "إن إميل لا يطمع في

هذا الزواج إلا بدوطة لميا فهو غير أهل لها. وإذا بقي مصرّاً كما كان أولاً فإنني آخذ محله لدى مدموازل لميا".

فابتسمت الرئيسة واعجبت بتزاحم الخطاب على الفتاة الفاضلة. وبعد عقد الصلح بين لميا وإميل خرجت من المنزل مسرورة وهي تقول: إن الفضيلة كالمغناطيس تجذب القلوب إليها.

أما رفيق إميل الذي كان علّل النفس بأن يأخذ محله فإنه قد خرج من المنزل بخيبة الأمل وهو يقول متنهداً: إن الدوطة كالمغناطيس تبقي القلوب بين يديها.

العدد الثاني، أيار 1903

قصة للعرسان والعرائس

(قبل الزواج وبعده)

بقلم إحدى القارئات الفاضلات

- ولماذا ترفضين قبولي زوجاً لك أيتها المدموازل.

- إنني أرفض القبول لأنني أفضل العزوبة على الزواج. لأنني بالعزوبة أستطيع أن أنفع أهلي وصديقاتي والهيئة الاجتماعية وأنا سعيدة الآن كما أنفعها وأنا تعيسة بعد الزواج. فإنني إلى الآن لم أرَ زوجاً عاقلاً ترضى به نفسي. وعدا هذا فكيف تريد أن أقبل طلبك أم كيف تقبل أنت بذلك ولم ترني سوى مرتين واحدة في الكنيسة والأخرى في التياترو. وقد رأيتني بمظاهري الرسمية الخارجية فقط. ألا تخاف أن يكون وراء ذلك أشواك تدمي الأصابع. وهل نظرت مني غير الإنسان الخارجي.

قالت المدموازل فريدة ذلك ثم شخصت بنظرها إلى فريد افندي كأنها تقرأ أخلاقه. فازدادت رغبته فيها بعد كلامها فأجاب:

تعلمين أيتها المدموازل من هيئتي إنني رجل في السادسة والثلاثين من عمري. ومن كان في سني يكون مصيباً في بعض أحكامه إن لم أقل فيها كلها. فأنا عشت إلى الآن قاطعاً كل أمل لي في الزواج لأن ما أراه من بنات هذا الزمان جعلني أكره المعيشة الزوجية وأهابها. وذلك لما بلغته بناتنا من الإسراف والجهل. ولم أجد واحدة في الألف بين النساء أهلاً لهذه المسؤولية. فالفتاة الغنية لا تفتكر إلا في زينتها ومسرّاتها ولا تعلم شيئاً من واجباتها الحقيقية. والفتاة الفقيرة تنفق وقتها ومالها وتعبها بتقليد الغنية من جهة التزين والموضة حيث لا دوطة لها وظناً أنها بذلك تبلغ شأو

رفيقتها. فما أبعد هذه الأفكار عن أفكارنا نحن الرجال خصوصاً العقلاء منا. وهذا هو السبب الذي من أجله لم أجد إلى الآن فتاة أستطيع أن اختارها شريكة لحياتي. على إني يوم رأيتك في الكنيسة واقفة في زينتك البسيطة وسط صاحباتك المتزينات بأفخر الثياب وأنت غير خجلة لوقوفك بينهن بتلك الثياب البسيطة عددتك بين أصدقائي الأخصاء. وفي المرة الثانية نظرتك في التياترو فلم أنسَ استياءك من بعض مشاهد تلك الرواية بينما كان الجميع يقهقهون ضحكاً منها. أفلا تظني أن هذه الأمور دلائل كافية على حسن الباطن.

فأطرقت فريدة إلى الأرض خجلاً ثم قالت: أشكرك على حسن ظنك بي. إنما أعيد ما قلته إنني غير راغبة في الزواج لأنني تعودت الحياة الحرة الخالية من كل قيود. وإرادتي الشديدة لا تسلّم بالخضوع. فلذلك لا أريد أن أربط نفسي بالزواج. إنني أذكر كلمة قديمة للروسيين في صلاة الإكليل إذ يُقال للزوج "استلم الحمل الآن أيها الذئب"، فأنا لا أريد ولا أقدر أن أكون حَمَلاً. ولذلك سأبقى قانعة ببقائي كما أنا إلى الآن.

فنظر إليها الشاب وقال: عفواً سيدتي أرجو أن لا أكون أنا أيضاً ذئباً.

فرفعت إليه نظرها وأجابت بحدّة: من أين نعرف نحن البنات المسكينات ذلك. قلت مسكينات. لأننا ننغشّ بمظاهركم. فأنكم تظهرون دائماً بثياب الحملان قبل الزواج. أما بعده فذئاب خاطفة. ولكن ليس اللوم عليكم دائماً لأن بنات هذا الزمان يجبرن حتى أعقل الرجال على أن يكونوا كذلك.

فأجاب الشاب: لقد سلمتِ نفسك بيدك. فإذا كان الحال كما تصفين من جهة البنات فإنني أظن أننا سنكون سعداء معاً. إذ لا أشك بعقلك وحكمتك. ففي يدك جعل زوجك شقياً أو سعيداً.

فتضايقت الفتاة لكلامه وقالت: إذا كان كل النساء قبلي فشلن من جهة سلوكهن فلا أظن نفسي إنني الواحدة في الألف القادرة أن تنجح. ولا أظن صلاة الإكليل القصيرة ستغير أخلاقي. وأنني أنظر إلى الزواج كما أنظر إلى الموت. غير إنني أموت مضطرة وأما في الزواج فإنني أتزوج مختارة. فلذلك عزمت على ترك هذا الاختيار أبداً. فأرجو أن تعدل عن عزمك ولا تزعجني فيما بعد بالكلام في هذا الموضوع.

فأجاب الشاب حينئذٍ متلطفاً: اصفحي عن تكديري خاطرك واسمحي لي أن أقول كلمة فقط. وهي لو كنتِ تحبينني لما كنت تفتكرين بالزواج هذه الأفكار السوداء. ولما كنتِ تخافينه. إذ أن المحبة تدوس كل صعوبة.

فصبغ الحياء وجهها وقالت: لا أريد أن أحب لأنني لا أريد أن أضع سروري وراحتي تحت رحمة الغير. قد جربت ذلك مرة في حياتي فكانت حياتي شقاءً. ولم أكن لأفتكر أنا بذلك لو لم يضع ذلك الشاب الذي كنت أظنه مخلصاً وفاضلاً ذلك الحب في قلبي. وهكذا صرفت مدة سنتين بالعذاب وهو على غاية ما يكون من راحة ضميره الميت. ومن ذلك الحين سقطت ثقتي في كل الرجال. لأنه إذا كان النور ظلاماً فكيف تكون الظلمة. وعدا عن هذا فإنني اصبحتُ في الثامنة والعشرين من عمري. وفي هذا السن يصعب وجود من يمكن أن أحبه لأنني صرتُ كثيرة الاختيار والانتقاد. قل لي أين الرجال الذين تُحسد نساؤهم لحصولهنّ عليهم. وكم هم الرجال الذين يحترمون نساءهم احتراماً حقيقياً ويظهرون لهم الإكرام إلا أمام الناس. فهل يقف الرجل عند دخول زوجته الغرفة ويقوم يفتح لها الباب لتخرج أو يلتقط ما كان قد سقط منها إلى الأرض إلا إذا كان في البيت زائرون. وأين استحسانه ذوقها وثيابها والرضاء عن كل ما تصنعه كما كان قبل الزواج. ألا يُظهر كل هذه الآداب للمرأة الغريبة عنه بدلاً من اظهارها لزوجته.

فأجابها الشاب برزانة وهدوء: إنني أسلم معك بكل ما قلته ولكن لي عليك أن تعدلي في حكمك. أين رغبة الفتاة في إرضاء زوجها ولبسها ما هو جميل وصنعها كل ما هو حسن ولقائها الباش له عند دخوله البيت. هل كل ذلك بقي كما كان قبل الزواج. إذن الذنب مشترك. فأجابت الفتاة: لك الحق في كل ما تقول إلا بإقناعي. فاتركني بأفكاري الجميلة. وإذا كاشفتك سرّي فلا شكّ أنك تدعني وشأني: إنني سأدخل في سلك الأخوية لأكون ممرضة وأصرف حياتي بهذه الخدمة الشريفة النافعة للناس. فضحك فريد وقال: يمكنني أن أصدق كل ما تقولينه إلا هذا. لأنه كيف يمكنك ترك بيتك وأهلك الذين لا تجدين لذة إلا معهم لتذهبي وتنضمي إلى أخوية غريبة. إنك لا تعلمين ما في هذا من الصعوبة.

فقالت بل أعلم كل شيء قبل صنعه.

فهنا علم الشاب قوة إرادتها وإصرارها على عزمها فافتكر قليلاً ثم قال: افعلي ما تشائين. إنما أرجوك أن تخبريني بعد انقضاء ثلاثة أشهر على هذا اليوم إذا كنت تريدين قبولي زوجاً لك أو لا. فأجابته: ما معنى الانتظار إلى ثلاثة أشهر وأنا قادرة أن اعطيك الجواب الآن وقد اعطيتك إياه. فقال: هذا ما أتمناه. فأرجو من أدبك ولطفك أن تفعلي هذا على الأقل.

فقالت: إذا كان هذا كل ما تتمناه فسأفعله.

وقد لجأ هذا الشاب إلى هذه الحيلة لأنه قد كبر عليه إفلات هذه الفتاة من يده لغير سبب غير الإصرار وفقدان ثقتها بالرجال. وقد تعلّق بها حينئذٍ تعلقاً شديداً لأنه رآها خير امرأة تصلح أن تكون زوجة وأمّاً وربّة بيت. ذلك أن هذا الشاب كان من العقلاء الذين يرددون دائماً في أذهانهم قول الحكيم: المرأة العاقلة من يجدها فإن ثمنها يفوق ثمن الجواهر واللآلئ.

أما الفتاة فقد عادت وهي مشغولة الفكر. فإنها رأت في هذا الشاب ما لم تره قبلاً في الشبان من سمو النفس وصحة الأدب وكرم الأخلاق ومعرفة الحقوق والواجبات. فلبثت تفتكر فيه مدة الثلاثة أشهر. وكانت كل يوم تزداد ميلاً للطفه وأدبه. ولما مضت الأشهر الثلاثة وأرسل الشاب يطلب جوابها وهو بين الأمل والرجاء. كان جوابها تلك الكلمة التي يحلو وقعها في أذن الشاب الطالب وهي: نعم.

فسرّ الشاب بفوزه. وبعد أيام قليلة جرى عقد الزواج وانتقلت الفتاة إلى بيتها الجديد. واستغربت كيف تغير لون الزجاجة التي كانت تنظر فيها حالة الزواج عما قبل. فإن كلمة الخضوع والطاعة التي وردت في الإكليل لم ترعبها كما توهّمت قبلاً بل كل شيء كان حسن الوقع في سمعها إلا وعظ عمتها لها قبل الاقتران إذ أوصتها بالاحتراز من أول نفور يقع بينها وبين زوجها فإن سعادتها في المستقبل متوقفة على كيفية هذه البداية. أما الفتاة فأجابتها: لا داعي لكل هذا الكلام لأننا متشابهان في كل الأمور. فلنا مطمع واحد ورأي واحد ومقصد واحد.

وفي ثاني يوم الزفاف قصدت العروس الذهاب للكنيسة. وحسب عادة العرائس في مثل ذلك النهار لبست أفخر ثوب وأجمل قبعة (برنيطة) كانت قد أعدتها لذلك اليوم. فلما رآها زوجها لمّح إلى عدم رضاه بذهابها إلى الكنيسة في هذه القبعة. فأجابته: عجباً مع إنني سمعتك تقول إن هذه القبعة تعجبك كثيراً. فأجابها لا أنكر ذلك فإنها بغاية الذوق ولكن ليس لمحل كالكنيسة. فبكل أسف أخذت العروس هذه القبعة وأتت بقبعة أخرى. فقال لها الزوج: ولا هذه أيضاً فإنها كثيرة الريش تستلفت الأبصار. فإنك كما يقولون عروس جديدة وأعين الجميع تكون متجهة إليك. وإنما أطلب إليك أن تلبسي ذات البرنيطة البيضاء التي نظرتك بها يوم جدالي معك بشأن الزواج فإنك تعجبينني بها كثيراً. هذه إرادتي أنا فافعلي بعد ذلك إرادتك – قال هذا ثم عاد عنها.

فوقفت الفتاة تتأمل والدموع بعينيها وتقول: إنني لا أحب الإفراط في التزين ولكن ماذا أعمل بكلام الناس. فإنني إذا لبست البرنيطة التي يريدها فإنني ربما صرت أضحوكة بين الناس. وإن لبست ما تريد الناس تكدّر زوجي فماذا أصنع يا رباه. ومن أين لي قوة أدبية أستطيع أن أقاوم بها الرأي العام.

وبينما هي في هذه الحيرة خطرت في بالها وصية عمتها قبل الزواج وهي الاحتراز من أول نفور يقع بينهما. فأسرعت بالحال إلى البرنيطة البيضاء التي طلبها زوجها ولبستها. وحين خرجت نظر إليها زوجها ضاحكاً وقال: ما أجملك الآن. ليس ببرنيطتك بل بأفكارك الجميلة الظاهرة آثارها في عينيك وعلى جبينك وبقوتك الأدبية التي استطعت بها مقاومة عادة كهذه.

وبعد مرور سنة على زواجهما كأنها لحظة قال لها ذات يوم: أرى أنك قد برهنت في سلوكك يا عزيزتي أنك امرأة بمقام ألف. وكم أنا سعيد الآن لحصولي عليك. ولكني أتأسف على الزمن الذي مضى بدونك لأنك جعلت حياتي الآن غير حياتي قبل الزواج. وانني استغفرك لتداخلي بمسألة البرنيطة يوم ذهابنا إلى الكنيسة لأول مرة. ولم أكن لأفعل ذلك إلا خوفاً من وقوعك بنفس مرض النساء وهو حب الإفراط بالتزين خصوصاً في المعابد. فاصفحي عن غلطتي وأني أعدك بعدم تداخلي فيما بعد بأمر من أمورك. فأجابته فريدة: كلا يا عيوني فإن لك كل حق بالتداخل في أموري وشؤوني. ولست أريد أن ألبس ولا أن أعمل شيئاً بدون استشارتك ورضائك.

العدد الثالث، حزيران 1903

رواية نسائية لتولستوي

كتب الفيلسوف تولستوي الروسي رواية نسائية سماها "لحن كيوتزر" وقد نقل هذه الرواية إلى اللغة العربية جناب رفول أفندي سعادة في البرازيل ونشرها تباعاً في جريدة "المناظر" الغراء.

أما آراء تولستوي في هذه الرواية فهي كآرائه الاعتيادية، بعضها صحيح يمكن العمل به في كل زمان ومكان وبعضها لا يمكن العمل به إلا بانقلاب عظيم يحدث في تربية البشر ومعيشتهم. ولكن مما لا ريب فيه أنه لو حدث هذا الانقلاب وتغيّرت معيشة البشر طبقاً لتعاليم تولستوي فإن الشر يتناقص في الأرض ويكثر الخير ويصبح الناس أكثر هناءً وأقل شقاءً.

ونرى من الفائدة في مجلة نسائية أن نشير إلى بعض المواضيع التي طرقها تولستوي في هذه الرواية. وقبل ذلك نشير إلى موضوعها.

"**موضوع الرواية**"

موضوع الرواية محاربة الحيوانية في البشر. فإن المؤلف كان مسافراً في قطار فاتفق أن ركب في مركبته محام وامرأته وتاجر شيخ وأخذوا يتباحثون في إعطاء المرأة حقوق الرجال وحريتها وحق الطلاق. فكان المحامي يستنكر هذه الحقوق لأنها تضر العائلة والهيئة الاجتماعية. والمرأة تؤيّدها، والتاجر الشيخ أشدّهم استنكاراً لها. ويظهر من كلام تولستوي أن التمدن الحديث آخذ في إدخال هذه العادات الأوروبية الجديدة إلى روسيا بقوة شديدة. ويؤخذ من آرائه من بين السطور أنه كاره لها أشدّ الكراهة.

فبعد ذهاب المحامي والمرأة دار الكلام بين المؤلف والشيخ التاجر عن موضوع البحث، وكان المؤلف علم منه أنه هو "بوزدنيشف" صاحب حادثة مشهورة، فأخذ بوزدنيشف يقصّ عليه هذه القصة.

وهنا صوّر المؤلف عائلة من العائلات فجعل بوزدنيشف يتزوج بفتاة أحبها وأحبّ أخلاقها قبل الزواج. ثم بعد الزواج بدأ النزاع بينه وبينها. وبعد أن رزق منها بضعة أولاد أشار عليها الطبيب بأن تتناول دواء لقطع النسل حرصاً على صحتها فأطاعته. وبذلك لم يبقَ لها همّ سوى التبرج والتزين لاسترضاء الناس وارضاء أهوائها لأنها تخلت عن وظيفتها البيتية والعائلية. فاتخذت الموسيقى شرَكاً لذلك. فتعرفت بشاب بارع في الموسيقى يدعى "تشفسكي" فرام زوجها طرده فأقنعته بأنها لا تحبه. ولكن "تشفسكي" علمها لحناً يدعى "لحن كيوتزر" فجذبها إليه بهذا اللحن الرخيم. ثم سافر الزوج إلى وظيفة له في محكمة زنتغو وفيها علم من إحدى رسائلها أن "تشفسكي" يزورها في غيابه. فثارت نفس الزوج وعاد مسرعاً إلى منزله فوجدهما معاً في غرفة المائدة فهمّ بقتله ففرّ منه فقتلها هي بأن أغمد خنجره في خاصرتها اليسرى. ولكنه لم يلبث أن ندم على فعلته فاستصفحها وهي تموت. فأجابته "لو إني أعلم إني لا اموت لسامحتك" ثم ماتت. ومغزى الرواية أن النساء في التربية الحاضرة لا همّ لهن إلا الزينة وحسن اللباس واستهواء القلوب وإثارة الأهواء. ولكن ما هذه بوظيفة المرأة ولا هذا هو الغرض الحقيقي من الزواج. "إن الغرض من الزواج كما قال تولستوي ليس أن يجعل الرجل المرأة هدفاً لشهوته ولا منظراً كلما رآه اشتهاه بل أن يجد الرجل في المرأة معيناً له ورفيقاً صادقاً وعظماً من عظامه ولحماً من لحمه. أما الشاب في وقتنا الحالي فقلما يتزوج إلا للفحشاء وقلما ينظر إلى المرأة إلا ليشتهيها ولذلك نراه يختار المرأة ذات الجمال الخارجي الزائل وقلما ينظر إلى آدابها وعفتها وفضيلتها".

فمما تقدم يتضح معنى قولنا أن غرض تولستوي من هذه الرواية محاربة الحيوانية في البشر.

***

والآن ننقل بعض الآراء النسائية عن هذه الرواية.

رأيه في الحب والزواج

قالت المرأة في القطار "إنني استغرب كيف تكون الزيجة مقدسة إن لم تكن مبنية على الحب وإن لم يقدسها الحب". فقال الشيخ وقد احمرّ وجهه وانتفخت عروقه "ما هو هذا الحب الذي يقدس الزيجة يا سيدتي"؟ فأجابت بعد تردّد "هو حب الزوج".

فسألها الشيخ بلهجة المستهزئ "كيف نقدس الزيجة بالحب"؟ فقالت المرأة "أظنك تتجاهل". قال المحامي للشيخ مساعداً امرأته "أظن أنها تقصد أن الزيجة يجب أن تكون نتيجة حب أو ميل بين الزوجين قبل عقد الزيجة، وأن في مثل هذه الحالة يكون الزواج مقدساً، وإلا فالزيجة التي تعقد بدون تبادل الحب بين الخطيبين أولاً لا تكون ثابتة ولا مبنية على أسس متينة كما أنها لا تكون مقدسة أيضاً". فأجاب الشيخ "إذا اعتبرنا أن الزيجة مقدسة فليس لأن الحب يقدسها كما تتوهمين يا سيدتي بل لأن بالزيجة تصبح المرأة ملك رجلها. وحيث أن الأملاك مقدسة ولا يحق لأحد أن يختلسها من صاحبها كذلك المرأة بعد الزيجة لا يعود لأحد أن يسطو عليها أو ينظر إليها ليشتهيها سواء أحبّت زوجها أم أبغضته". فقالت المرأة بغضب "إذا كنت تنكر أن الزيجة تتقدس بالحب فلا يمكنك أن تنكر أنها إذا لم تكن مبنية على أسس الحب فلا تثبت". فقال الشيخ "أرجوك أن توضحي لي جيداً ما هو هذا الحب وما أساسه"؟ فابتسمت المرأة وقالت "هذا شيء بسيط، الحب هو

تفضيل امرأة أو رجل على النساء أو الرجال الآخرين تفضيلاً حقيقياً مبنياً على ميل خفي وجد في القلب بعد رؤية ذلك الشخص". فقال الشيخ مستهزئاً "تفضيل امرأة أو رجل؟ وكم تدوم مدة هذا التفضيل؟ إلى شهر أم يومين أم إلى نصف ساعة". فقالت المرأة "إلى طول العمر". فقال الشيخ "لقد غلطت يا سيدتي. فإن في الأقاصيص والحكايات الكاذبة يدوم هذا التفضيل طول العمر أما في الحقيقة فلا يدوم إلا لمدة معلومة لأن الجمال الذي هو أساس هذا الحب والتفضيل لا يلبث أن يضمحل متى زالت نضارة الشباب، وبزوال السبب يزول المسبب". فقالت المرأة "إنما أعني الحب الذي يُبنى على الجمال الداخلي، جمال القلب". فقال الشيخ "الذي يعتقد بدوام الحب بين رجل وامرأة كمن يعتقد أن الشمعة إذا أشعلت استمرت مضيئة إلى الأبد". فقالت المرأة "إنما أعني الحب الطاهر الخالي من كل غاية وهو الحب الذي يبقى طول العمر". فأجاب الشيخ هذا الجواب الذي لا نظن تولستوي يوافقه عليه من كل وجوهه "إن المرء طُبع على حب نفسه فإذا أحبّ شخصاً آخر فلغايات في النفس وإذا فرضنا وجود الحب الطاهر الذي نعنينه فلا يمكن أن يكون في الزواج"، نقول وأنت تعلم نتيجة هذا القول الهائل. ولكن تولستوي أصلح شيئاً من ذلك بقوله بعد عدة أسطر ما خلاصته "إنما الحالة قد تغيّرت لأنهم كانوا يعتقدون أن الزيجة مقدسة لأنها عهد يرتبط به الزوجان أمام الله أما الآن فهذا الاعتقاد يتلاشى شيئاً فشيئاً لأنه لم يعد يوافق الهيئة الحالية ولا العصر الجديد".

الشبان المتهتكون وأهل البنات

وقال في الشبان المنغمسين في الرذائل والخلاعة على لسان الشيخ قبل زواجه وهو شاب "كما أن السكير والمقامر ومدخن الأفيون إذا تولع بهذه العوائد أضاع صحته وعقله وأضرّ بني جنسه هكذا أصبحتُ أنا أيضاً، أو بالحري أصبحتُ كتلك الدويبة الخضراء كتلك الدودة المنتنة الصفراء التي تلبس ثوب

الطبيعة السندسي لتستر به نتانتها وفسادها وتمشي بين الأزهار والبقول الجميلة فتقرض أصل هذه وتفسد ماء تلك بما تمتصه منها"، وقد كان "من الواجب على الأب عندما كنت أدنو من ابنته أو على الأخ عندما كنتُ أدنو من اخته أو على الشيخ عندما كنتُ أدنو من حفيدته أن يتقدم إليّ ويأخذني بيدي إلى زاوية البيت ويقول لي "يا صديقي أنا أعلم جيداً معيشتك وكيف تصرف لياليك بالخلاعة ولهذا أخبرك أن لا دخل لك في هيئتنا. فاذهب وفتش عن خليلاتك في أسواق صدوم وعن أصحابك في بيوت عموره"... لكن بالعكس كانوا يهشون ويبشون لي ويحسنون استقبالي وكنتُ إذا تقدمت إلى فتاة وطوّقت خصرها بذراعي ورقصت معها يبالغون في إكرامي أيضاً. فوا أسفاه هل يأتي يوم تسود فيه الحقيقة والطهارة بين البشر ويبطل الكذب والرياء".

البنات والشبان

"مسكينات العذارى فإنهن ينخدعن بزخرفة الشباب وجماله وتأنقه في كلامه وملبسه. وجهالٌ الشبان لأنهم لا ينظرون إلى آداب المرأة وأخلاقها وفضيلتها بل إلى جمالها الخارجي. سلْ الفتاة هل تحب الاقتران بشاب حسن البزّة والهندام جميل الخلقة كاذب يصرف أيامه بالكسل والرذائل أو بشاب أديب جميل الأخلاق بسيط اللباس عاقل نشيط. فإنها تجيبك على الفور أنها تختار الأول وتكره الثاني مع أنها تعلم جيداً أن زخرفة الأول باطلة وأخلاقه فاسدة. وليس هذا فقط بل أنها تغتفر للأول ذنوبه وهفواته الأدبية وتهزأ ببساطة الثاني ونشاطه فتلبس الثياب الناعمة النحيفة الضيقة لتشف عن صدرها وذراعيها وتشد خصرها لتظهر نحافته ودقته لأنها تعلم جيداً أن الأول يسرّ ويميل إلى هذا. كما هو يتزيّن ويتزخرف أيضاً ليظهر بمشهد جميل كما هي تحبّ".

سلطة النساء وطلبهن حقوقهن

"إن للنساء السلطة العليا في هذه الحياة والمتكآت الأولى في المجامع وصدور المجالس والمقام الأعظم عند الرجال، وهن مع ذلك يشكين هضم حقوقهن وعدم مساواتهن الرجال. ولست أدري كيف يريد النساء أن نساويهن بالرجال وهن المتسلطات عليهم. سلّ اليهود واستقصِ عما يضمرون عندما يشكون ظلم الآخرين لهم والتسلط عليهم ترهم يقولون: إذا لم يبق في أيدينا سوى التجارة فنحن بالتجارة والمال سنسود على الشعوب ونتسلط على العظماء". وهكذا النساء عندما يتظاهرن بالمسكنة وخفض الجانب يقلن: إذا لم يبقَ في أيدينا من القوة سوى الغاية التي وراء الزواج فنحن بهذه القوة سنسود على الرجال ونتسلط عليهم كما هو واقع الحقيقة. زرْ أكبر المحلات التجارية في أكبر المدن وتفحص جيداً حركة الأعمال وأصناف تلك البضائع التي ملأت المحلات ترَ هناك أن سلطة المرأة سائدة وأن تسعة أعشار تلك البضائع متعلقة بالمرأة والعشر الواحد فقط متعلق بالرجل. وترَ عدا عن ذلك أن كل تلك الملايين من الرجال التي تقوم بأعباء تلك الأعمال الكثيرة تشتغل لإرضاء المرأة. والمرأة من علو السلطة التي أباحها لها التمدن الحالي تنظر إلى تلك الأعمال وتلك الأشياء باسمة كأنها ملكة تنظر في وجوه رعاياها".

التنميق والتزويق وكشف الصدور

قال الشيخ "كم كنت أتعذب عندما كنتُ أشاهد امرأتي تكذب عليّ وتخدعني بصبغ وجهها ودهنه وشدّ خصرها وإبراز صدرها وذراعيها وعنقها. وكم يعذبني الآن منظر النساء اللواتي يصنعن كذلك ويرتدين الحلل الجميلة (في اصطلاحهن) والثمينة. وكثيراً ما هممت بمناداة الحرس لإلقاء القبض على اللواتي كان يقع نظري عليهنّ وهنّ في تلك الحالة لأن صوتاً خفياً ينادي دائماً أن ذلك

مخالف لمجرى النواميس الطبيعية، لأن ظهور الأوانس والعقائل في المحلات والحدائق العمومية عاريات الجسم تقريباً لأشدّ خطراً على الهيئة من ذلك الشرير الذي يكمن للمسافر على الطرقات ليقتله ويسلبه ما معه". "نعم إن في هذا الأمر لخطراً شديداً ومع ذلك فالحكومة تهتم بمنع المقامرة أكثر من اهتمامها بمنع النساء من الظهور عاريات الصدور والأكتاف واليدين في المرسح والمحلات العمومية. وإذا كان الأمر الأول (المقامرة) يؤول إلى فساد الآداب فالثاني همجي محض وأقبح كثيراً من تلك المراهنات".

استئجار المرضعة عبارة عن سلب

قال الشيخ "ولقد اتفق لي أن امرأتي مرضت بعد أن حبلت وولدت ثمرة بطنها الأولى فاستدعيت الطبيب ليعالجها. وبعد أن فحصها جيداً التفت إليّ وقال: "إن امرأتك لا تقدر بعد الآن أن تقوم بإرضاع ولدها لأن اللبن الذي يمتصه الطفل منها يضرّ بصحته وينهك قواه أيضاً فمن الواجب تسليمه إلى مرضع". فلم يسعني إذ ذاك إلا العمل بقوله واستأجرت امرأة فقيرة وسلمتها الطفل بعد أن كسوتها وأحضرت لها كل ما تشتهيه. وهكذا سلبتُ طفل تلك المرأة المسكين أماً حنوناً واشتريت غذاءً بثمن بخس بدريهمات معدودة. ولقد فعلت ذلك قسراً لا طوعاً لأن ضميري كان يوبخني على عملي هذا لأن اغتصابي غذاء ذلك الطفل المسكين واعطاءه لولدي كان أقبح كثيراً من أكل أجرة الفاعل ومن التربّص للمسافر وسلبه دراهمه".

حب الأم وحب أنثى الحيوان

وقال الشيخ أيضاً "أنثى الحيوان تحب حباً طبيعياً طاهراً خالياً من كل غش. أنثى الحيوان قد يشتد عليها تأثير الحب عند موت ولدها حتى يحملها على

الموت أحياناً، والمرأة تذبل كما تذبل الوردة ثم لا تلبث أن تعود إلى نضارتها وفرحها. وإذا أخذنا طفلاً صغيراً ورميناه على مشهد من والدته أمام وحش ضار فهل تظن أن الأم ترمي بنفسها أمام الوحش لتخلّصه يا ترى. أنا أظن أنها لا تفعل وإذا سمعنا أن امرأة فعلت ذلك فلا يكون من تلقاء نفسها بل لأن الوحش هجم عليها وافترسها. ولكن نرى بالعكس يجري مع باقي الحيوانات الغير ناطقة فالدجاجة مثلاً تحمي فراخها وتطرد عنها الكلب والهر، والكلبة تدافع عن جرائها حتى الموت. أما المرأة فإنها تصنع بالعكس تسلم ولدها الطفل إلى غيرها من تلقاء نفسها. وفساد التربية والأخلاق هو الذي أوصل المرأة إلى هذه الحالة".

النساء والذين يطيلون النظر إليهن

قال الشيخ عن "تشفسكي" الذي كان يطيل النظر إلى زوجته "ولست ألومه على عمله أبداً لأن كل الرجال ينظرون إلى النساء الحسان ولكني ألوم امرأتي لأنه كان في استطاعتها ردعه عن النظر إليها بنظرة واحدة مملوءة احتقاراً".

المذنبة أمام طفلها

وقال الشيخ وهو مسرع إلى البيت "ولدي فسبا ماذا تفكر إذا رأيت ذلك اللئيم يقبل ويعانق أمك الخبيثة. أيها الملاك الصغير لا يمكنك أن تفكر إلا بأنه يحبها لأن التقبيل عندك دلالة الحب الطاهر فقط. ولو أنك تفهم أن ذلك اللئيم يدنس شرف أبيك بتلك القبلة لعضضته بأسنانك الصغيرة وردعته عن فجوره".

هذه آراء تولستوي في المرأة والعائلة والزواج. وبعض آرائه هذه في غاية السمو والجمال، والشرقيون يقدرونها قدرها لأنها تنطبق على عاداتهم وأخلاقهم خلافاً لغلاة الغربيين الذين ينكرونها لغلوهم في الحرية. على أن بعض هذه الآراء مما يحقّ للسيدات أن يسخطن منه لأنها ضد حرية المرأة وشخصيتها على خط

مستقيم. نعم إن تولستوي لا يقول بالحجاب ولكنه يجعل للرجل سلطة هائلة على المرأة. والمرأة في عصر كهذا العصر وحالة اجتماعية كهذه الحالة إذا جعلناها عبدة للرجل خربنا الهيئة الاجتماعية لأن الرجل لم يصل بعد إلى الدرجة التي يريدها تولستوي من الكمال والنزاهة وبناء رئاسته على اللطف والمحبة والألفة بدل القوة والشدة. هذا فضلاً عن أن المرأة مضطرة في الهيئة الاجتماعية أحياناً أن تسعى لنفسها طلباً لرزق أولادها وإلا هلكت مادياً وأدبياً إذا لم يكن لها سند. فمتى صار الرجال كما يريد تولستوي أن يكونوا وتغيّرت الهيئة الحاضرة يجوز حينئذٍ تحميل المرأة هذا النير الثقيل أي جعلها ظلاً للرجل لا حرية لها ولا استقلال من دونه. فحلّ هذه المشكلة إذاً في أيدي الرجال لا في أيدي السيدات...

العدد الرابع، تموز 1903

بنت البيت وبنت الباللو

(وخطيب بينهما)

بينما كانت لطيفة جالسة تحت الشجرة في حديقة البيت تتأمل في أحوال الزمان وإذا بأختها لميا تركض نحوها. فلما وصلت إليها قالت والغضب ظاهر على وجهها: لماذا يا ست لا تريدين الذهاب إلى الباللو مع أمك في الأسبوع الآتي؟ فأجابت لطيفة بضعف: أي فائدة لنا في الباللو يا عزيزتي. وفضلاً عن ذلك فإنك تعلمين أنه ليس لي ثوب للباللو. فإذا رمنا الذهاب اضطرت أمي أن تصنع لي ثوباً خصوصياً كثوبك وذلك يقتضي عدة جنيهات، فبدل أن ننفق هذه الجنيهات لصنع ثوب الباللو ندفعها للدكاكين إذ غداً في آخر الشهر يأتي الجزار بقائمة حسابه وكذلك البقال وبائع الخضر وغيرهم. فصاحت لميا: هذا الحساب البارد ليس من شؤونك بل من شؤون أمك. وبما أن أمك تريد أن تذهبي للباللو فيجب عليك أن تطيعيها ولا تتحملي همّ النفقة. فضحكت لطيفة وأجابت: لكنني أعلم لماذا تطلب مني أمي أن أذهب للباللو وتضحّي في هذا السبيل عدة جنيهات نحن في حاجة إليها. أنها تظن أن ذلك ينفع بناتها وربما دبّرن بسببه "نصيباً" لهنّ. أما أنا فلشفقتي على أمي أكره أن أحملها فوق طاقتها من أجلي. ومع ذلك فلماذا لا تذهبين معها وحدك يا لميا؟ فأجابت لميا: لا ريب أن هذه سياسة الحيات تحت التبن فإن تعلمين أن أمك لا تذهب من البيت بدونك فتقولين هذا. ثم إن لميا حمقت وعادت غضبى من الحديقة.

وحين غيابها ظهر في الطريق رجلان كانا يتنصتان لحديث الفتاتين على غير علم منهما. فقال أحدهما للآخر: هل رأيت يا صديقي كيف تكون الإبنة العاقلة والإبنة الطائشة. فهزّ الثاني رأسه وسار في طريقه، لكنه بقي يتلفت كثيراً للجهة التي كانت لطيفة جالسة فيها.

وفي ذلك اليوم نغصت لميا عيش أهلها في البيت بسبب رفض أختها لطيفة الذهاب إلى الباللو. ففي صباح اليوم التالي بينما كانت الأختان تتجادلان في ذلك في غرفة النوم وإذ قرع الباب ودخل ساعي البريد يحمل علبة كبيرة، فتحوا العلبة فوجدوا فيها ثوب باللو في غاية الجمال والزهو ومعه مروحة ثمينة. فصاحت الأم هذا ثوب للطيفة. ولكن من أين أتى؟ ها ها لا ريب أن عمها عرف بحاجتها إليه فأرسله إليها. فضحكت لميا ولطيفة بقية ذلك اليوم واستعدتا حينئذٍ لحضور الباللو.

وفي ليلة الباللو لبست لطيفة ولميا ثوبيهما الجميلين. وكانت لميا فاتنة للناظرين بجمالها الساحر وخدها الزاهر وعينيها السوداوين اللتين كانتا كأنهما رُكبتا فوق الزئبق. أما لطيفة فإنها كانت أقل جمالاً من أختها ولكنها كانت هادئة بسيطة في كل حركة من حركاتها. وقد اجتهدت ما أمكنها تخفيف زينتها خلافاً لأختها التي اجتهدت ما أمكنها لزيادتها.

وفي ليلة الباللو ساد الفرح وعمّ السرور بين الزائرات والزائرين. وكانت أم لطيفة ولميا جالسة معهما في زاوية مع بعض صديقاتهن. فكان يتردّد عليهن شاب يدعى "جميل" وهو من أحسن الشبان الحاضرين. فلما دار دولاب الرقص تقدم جميل من المدموازل لطيفة واستأذنها في أن ترقص معه. فأجابته لطيفة خجلة. فلما رأت لميا ذلك اغتاظت في نفسها غيظاً شديداً. ولم يكن غيظاً من أختها بل من ذلك الشاب نفسه. فإنها قالت في نفسها لمّا أخذ بذراع أختها: "يظهر أنه بلا ذوق حتى فضّل أختي عليّ فأي مناسبة بين جمالي وجمالها".

ولما عادت لطيفة من دور الرقص كان وجهها بلون الأرجوان. وكان الخجل ظاهراً في عينيها. فقالت أمها في نفسها لا بدّ لذلك من سبب ذي شأن. فلما انفرط عقد الحفلة وانصرفن إلى البيت سألت الأم لطيفة على انفراد. فأجابتها

أن ذلك الشاب حادثها في الخطبة فأجابته بخجل أنها هي لا تتكلم في ذلك لأنه من شؤون أمها.

وكانت أم الفتاتين تعرف جميلاً وتتمنى أن يكون من نصيب إحدى بنتيها. فإنه كان الوريث الوحيد لعمّ له تقدر ثروته بعشرين ألف جنيه. فانتظرت الأم في ذلك اليوم أن يأتي أحد من قبله. وفي الحقيقة أن عمه جاء في ذلك المساء بنفسه لزيارة أم لطيفة ولميا. فلاطفته الأم كما تلاطف كل أم أهل العريس قبل الخطبة والزواج.

وفي اليوم التالي شاع أن عمّ جميل يكره اقتران جميل بلطيفة ويروم اقترانه بلميا. وقد كانت هذه الإشاعة حقيقية لأن جميلاً جاء في مساء ذلك اليوم لزيارة أم لطيفة رغبة في أن يبلغها أمراً مهماً. ولما دخل البيت استأذنها في أن يحادث ابنتها لطيفة أمامها. فأذنت له الأم في ذلك. وكانت لميا حينئذٍ في غرفة النوم تقرأ رواية فرنسوية في سريرها.

فقال جميل لأم لطيفة وكان التأثر بادياً في وجهه: سيدتي لما طلبتُ يد المدموازل لطيفة منها ليلة أول من أمس كنت وارث عمي، أما اليوم فلم يبقَ لي حقّ في إرثه لأنه على ما يظهر سيحرمني من هذا الإرث. ومثلك يعلم أن الشاب لا ينبغي أن يتكل على إرث أو على أهل بل على نفسه، فهل تردّين عليّ طلبي المدموازل لطيفة إذا علمت أنه لم يبقَ لي الآن ثروة ولا مورد غير اسمي وجدّي.

فلما سمعت لطيفة ذلك ضحكت في نفسها لأول وهلة وقالت في نفسها: ما حاجتي معه للثروة ما دمت أحبه وهو قادر على تحصيل رزق عائلة، فسيان عندي حرمه عمه أو أعطاه. إلا أن فكرها لمع بغتة فخطر لها أن عمه لا يريد حرمانه من إرثه إلا لأنه خالفه ولم يرد أن يأخذ لميا بدل لطيفة كما شاع وتناقلته

الألسنة. فتقطر هنا قلب لطيفة جزعاً. وبسرعة البرق الخاطف قام في نفسها صراع بين حبها لهذا الشاب وأملها في السعادة معه وبين راحة أختها ورغبتها في سعادتها. فلو وضع أحد يده على قلبها في تلك اللحظة لأحسّ بأن ذلك القلب الكريم اللطيف كان يضرب في تلك اللحظة ضربات شديدة.

أما الأم فإنها لحظت أيضاً ما لحظته ابنتها فاستمهلت جميلاً في الجواب ريثما تمرّ تلك العاصفة. فخرج جميل من البيت وهو يقول لها: إنكم إذا رفضتم إعطائي لطيفة فإنني أقسم بالله وبحبي لها إنني لا أتزوج بغيرها في هذه البلاد بل إنني مسافر في هذا الأسبوع.

ولما وقفت لميا على مرام عم جميل رفعت رأسها باختيال كالطاووس وصارت تقول في نفسها "حقيقة أن الشيوخ صاروا في هذا الزمان أسلم ذوقاً من الشبان".

أما لطيفة فإنها لم تتناول طعاماً في ذلك المساء وقد دخلت إلى فراشها قبل الساعة الثامنة وقد صلّت طويلاً قبل أن تستلقي في فراشها. إلا أنه لم تنم قبل الساعة الثانية بعد نصف الليل.

وبينما كانت راقدة رأت في ذلك الليل حلماً ذهبياً: فإن ملاكين نزلا من السماء ووقفا فوق سريرها وصارا يُطيلان النظر إليها وهي تراهما وهما يحسبانها نائمة. فقال أحدهما للآخر وهي تسمعه: إن لوائح الحزن على وجه هذه الفتاة فما الذي يسؤوها يا ترى؟ فأجاب الملاك الآخر: لقد قدموا لها خاتماً فترددت في أخذه لأن أختها طلبته أيضاً. ولو كنت مكانها لأعطيته لأختي فإن الله يرسل أحسن منه لمن يعرف كيف ينكر ذاته... ثم ضحك الملاكان ضحكاً شديداً.

فارتعبت لطيفة من هذا الصوت الباطني وانتبهت من النوم مذعورة. فبقي في نفسها جواب الملاك. فسرى حينئذٍ همها. ورأت من واجباتها أن تتنازل عن خطيبها إلى أختها من تلقاء نفسها حسماً لذلك الخلاف بين جميل وعمه. وفي صباح ذلك اليوم أبلغت إرادتها هذهإلى أمها وأختها.

فلما سمع جميل بهذا الأمر وقع عليه أشد وقع لأنه كان محباً للطيفة. ونقل القلب من مكان إلى مكان أمر صعب. فبينما هو يهيئ نفسه للسفر وإذا بعمه داخل عليه وهو يضحك، فاغرورقت عينا جميل حينئذٍ بالدمع. فقال له عمه: على أي أمر عزمت يا جميل؟ فأجاب الشاب عابساً: على السفر إلى جهنم. فقهقه عمه وقال: وكل ذلك من أجل مسألة صغيرة كهذه. اسمع يا بُني واترك الغضب والسفر. أنا ما قصدت بما فعلتُ إلا تجربتك وتجربة حبيبتك لطيفة. فإنني رمت أن أعلم هل أنت رجل أم لا تزال صبياً. فلما رأيتك لا تبالي بثروتي التي تهددتك بحرمانك منها بل تعتمد على نفسك كبُرَ قدرك في عيني. ولما رأيت لطيفة تتنازل عن الاقتران بك إلى أختها مع أنها تحبك وتحبها فعلمت أنها ملاك بصورة إنسان لأنني لا أعرف شيئاً يدل على ارتقاء الإنسان ارتقاءً حقيقياً غير انكار الذات. وإذا كنت لا تصدق كلامي الآن يا بني بل تظنني لجأت إليه لخوفي من سفرك فسل صديقتك لطيفة من أين جاءها ثوب الباللو الذي حضرت به المرقص في تلك الليلة. فهي لا تعلم ذلك ولكن أنا أخبرك. فإنني كنت يوماً ماراً مع صديق بجانب حديقة بيتها فسمعتُ أختها لميا تعنفها وهي تعتذر عن الذهاب إلى المرقص لعدم وجود ثوب للباللو عندها وكراهتها أن تحمّل أمها نفقته من أجل أمر لا فائدة فيه. فمنذ هذا الحين قلت في نفسي هذه خير زوجة لجميل. فذهبت وأرسلت إليها الثوب الذي كانت في حاجة إليه دون أن تعرف اسم مرسله. فاذهب يا بني وتأهب للاقتران بها بارك الله لك فيها.

فبكى جميل حينئذٍ من فرحه وانطرح بين ذراعي عمه قائلاً: مثلك فليكن الكرام يا عماه. ولكن في الحقيقة كان عم جميل أكرم من ذلك كثيراً لأنه لم يشأ تزويج لطيفة بجميل حتى وجد أيضاً خطيباً للميا لئلا يكون قصاصها في هذه الحادثة أشد من ذنبها.

العدد الخامس، آب 1903

وأسفاه على ذلك الخاتم

جمعية شبان سرية لمحاربة البنات

منذ عشر سنوات (أي في سنة 1893) حدثت في الإسكندرية حادثة لا تزال كثيرات من الأمهات والبنات يذكرنها إلى اليوم وإليك تفصيلها:

مضت عدة أشهر في الإسكندرية في أواخر عام 1892 دون أن تحدث فيها خطبة أو زواج، ولا أن يُسمع فيها ذكر للأفراح. فعجب الناس من ذلك. وصارت العجائز والأمهات يهززن رؤوسهن ويقلن: هذه الحالة سيئة. الشبان يشبّون ويكبرون والبنات يملأن البيوت. فمتى يتزوجون يا ترى؟ هل يتزوجون حين اقترابهم من سن الشيخوخة!

وكان بين أولئك العجائز عجوز بلغت الثمانين من العمر وكانت صالحة محبوبة من الجميع، وكان لها ابن متزوج وعنده سبع بنات أكبرهن في العشرين وأصغرهن في السابعة. ففي ليلة رأس السنة قبل الرقاد زارت العجوز غرفهن حسب العادة وصلّت فوق كل واحدة وهي نائمة. ثم عادت العجوز إلى غرفتها وهي تفتكر بهن. وكان افتكارها بأمرين: الأول ذكرها شبابها حين رؤيتها شبابهن الغض وصباهن الرطب. والثاني تحيّرها في أمر شبان هذا الزمان الذين يتركون في المنازل بدوراً كهؤلاء البدور ويصرفون أوقاتهم في الوحدة والانفراد كأنهن نساك وزهاد.

ذلك أن العجوز الساذجة ذات الأخلاق والتصورات القديمة كانت من حسن الحظ لا تعرف شيئاً من أخلاق وآداب بعض الشبان الذين تعنيهم.

فلما استلقت العجوز في فراشها رقدت وهي تفتكر في ذلك الموضوع.

ولكنها لم تنتقل من هذا العالم إلى عالم الحلم والخيال حتى رأت شيئاً غريباً. فإن ملاكاً كبير الجثة كأنه الجبار جليات بأجنحة كأنها شراع السفن الكبرى هبط عليها وهو يتأمل ويفتكر. فجثت العجوز على ركبتيها (وذلك بالحلم طبعاً) ورفعت يديها إليه قائلة: ماذا تريد أيها الملاك الكريم؟ هل حانت ساعتي فجئت تطلب نفسي؟ خذها فإنها حاضرة مستعدة. أم أتيت ذنباً عظيماً يستوجب عقابي في هذه الدنيا عاجلاً لأن إله العدل كره تأجيله إلى أن أنتقل منها؟

فعبس الملاك وأجاب: لا هذا ولا ذاك وإنما هناك أمر أهم من هذا، فاسمعي لأقصه عليك. إن فريقاً من الناس قد تآمروا على البنات في الأرض فأنشأوا جمعية سرية سموها "جمعية الألوف" وغرضهم منها أن لا يتزوجوا بفتاة إلا إذا دفعت ثمنهم ألوف الجنيهات وهو ما يسمونه الدوطة. وبما أن الأب السماوي يعتني بالبنات كثيراً فقد أرسلني إليك لرد كيدهم إلى نحورهم. فهذا "خاتم" هدية مني إليك. ضعيه في اصبع أية فتاة شئت ودعيها تمر أمام أي شاب شاءت حتى إذا صارت أمامه فلتدر فص الخاتم إلى الخارج، أي إلى جهته ولتنظر في وجهه نظرة واحدة، فحينئذ تسحره سحراً لا انفكاك له منه. فلا تمضي 24 ساعة حتى يركض الرجل إلى أهلها راغباً خاطباً.

قال الملاك هذا ثم مدّ يده نحو العجوز وفيها الخاتم، فتناولته العجوز وأجفلت. فانتبهت مذعورة. فالتفتت إلى يدها فأبصرت فيها ما أدهشها.

أبصرت خاتماً جميلاً بلون أحمر وهو مؤلف من ثلاث قطع وقد نُقش على كل قطعة كلمة بلغة لا تحسن قراءتها.

فلبثت العجوز في فراشها مبهوتة ترتجف من هذه الحادثة. وكانت تفكر وتقول أظن هذا هو "السحر" و"الكتابة" و"الربط"، فكيف ينكر الناس هذه الأمور.

وهل يجوز لي أن استعمل ذلك! وبعد برهة قالت: نعم نعم يجوز لأن الطريقة رحمانية لا شيطانية.

ففي الصباح نهضت باكراً ولبست ثيابها وطلبت أكبر بنات ابنها لترافقها إلى الكنيسة وكان الخاتم في جيبها. فبعد الصلاة تناولته ويدها ترتجف ووضعته في أصبع الإبنة قائلة: عزيزتي أدما. ضعي هذا الخاتم في أصبعك. ولما نقترب من ذلك الشاب الجالس في الكرسي أديري فصه إلى نحوه وانظري إليه نظرة واحدة فقط. فدهشت الفتاة ورامت الاستفهام، فأجابتها العجوز: اصنعي ما أوصيك به وسنتباحث في ذلك فيما بعد.

فصنعت الفتاة ذلك. أما الشاب فما وقع نظره على نظرها بعد إدارتها الخاتم حتى وثب عن الكرسي كأن قوة كهربائية تدفعه نحوها. فتوردت وجنة الفتاة وخجلت. وضحك منه بعض رفاقه الشبان الواقفين بجانبه. ولكن لم يأت المساء حتى ذهب أبو الشاب وطلب يد أدما.

فلما رأت العجوز ذلك ركضت إلى غرفتها وجثت تصلي شكراً لله على هذه الهدية الثمينة. وصارت في كل يوم أحد تأخذ إحدى بنات ابنها إلى الكنيسة ومعها الخاتم. فلم تمض بضعة آحاد حتى خُطبت البنات إلا أصغرهن.

فانتشر هذا الخبر في الإسكندرية بسرعة البرق واستغربت العائلات ذلك. وهرعت الأمهات إلى ذلك البيت لتهنئته في الظاهر ولكن كان قصدهن المضمر معرفة سبب تلك الخطبة المتتابعة. فانفردت العجوز ببعض الأمهات وأطلعتهن على الخبر. فسررن بذلك وصرن يشكرن الملاك على حسن هديته الفاخرة. وصارت العجوز تذهب في كل يوم بالبنات إلى المنتزهات المختلفة كالمكس وسان ستيفانو ومعها الخاتم. فلا تغيب الشمس إلا وقد خطبت ست أو عشر من البنات.

وهكذا قلما مرّ أسبوع في ذلك الزمن إلا وتزوج فيه عشرة من الشبان مسرورين بأنهم وجدوا شريكة حياتهم.

ولكن هذا الأمر لم يلبث أن أغضب جمعية الشبان الذين كانوا قد تآمروا على البنات، فقطعوا علائقهم مع كل شاب يتزوج. وكانوا ينددون به في جلساتهم السرية ويسمونه متقلباً لا يقدر على حفظ شرف قوله. ولكن ماذا يضر كل هذا الكلام ما دام ذلك الشاب مسروراً بحالته سعيداً مع زوجته وحبيبته.

ولما رأى الشبان أن كل مساعيهم ذاهبة أدراج الرياح لأنهم لا يقدرون على منع رفاقهم من الزواج، قالوا لا بد لذلك من سبب مهم. فنادوا عجوزاً داهية يعرفونها وأطلعوها على مرادهم ووعدوها إذا كشفت لهم ذلك الأمر أن يملأوا جيبها ريالات.

فلم تغب العجوز يومين حتى عادت ضاحكة وقصت عليهم قصة الخاتم لأنها عرفتها من إحدى المتزوجات في ذلك الأسبوع.

فقامت قيامة الجمعية حينئذ، وعذروا رفاقهم الذين انفصلوا عنهم. وبعد الدهشة الأولى وعدوا العجوز بعشرين جنيهاً إذا كانت تأتيهم بالخاتم المذكور.

فذهبت العجوز تفتكر. وفي المساء قصدت بيت العجوز الصالحة صاحبة الخاتم. وبينما كانت إحدى المركبات مارة من أمام البيت ألقت العجوز الشريرة نفسها على الأرض وصارت تصيح أن المركبة داستها. فركضت العجوز الصالحة مع بعض الخدم واصعدوها إلى المنزل لمداواتها. فنامت عندهم في تلك الليلة. ولم تشأ أن تنام إلا في غرفة العجوز الصالحة إستئناساً بها كما قالت. ولكن ما استغرقت العجوز الصالحة في النوم حتى قامت العجوز الشريرة إلى ملابسها

ففتشتها كلها حتى وجدت الخاتم. وعند بزوغ الفجر استأذنت وشكرت وذهبت غانمة.

فلما قبض أعضاء الجمعية على هذا الخاتم السري الذي ضعضع جمعيتهم برهة فَرِحوا وصاروا يتأملونه. وكان أحدهم يُحسن اللغة الهيروغليفية، فقرأ على أجزائه الثلاثة هذه الكلمات: "الاقتصاد في المنزل والملبس – حب خير الناس – تقديم جمال النفس على جمال الجسد". فتناوله رئيس الجمعية بغضب وكسره محتداً وقائلاً: "اقتصاد، حب الخير، جمال النفس... كل هذا لا نريده ولا نفهمه. إنما قبل كل شيء نريد جنيهات جنيهات...".

وما كُسر الخاتم حتى عادت الحالة في الإسكندرية إلى ما كانت عليه. وانتصرت الجمعية، ولا تزال منتصرة. فما أحوج الإسكندرية وغيرها إلى هذا الخاتم الآن.

الجزء السادس، 1903

الساحرة

أشهر رواية تمثيلية أوروبية في هذا العام

عروسها فتاة مسلمة

في فصل الشتاء تكون (مراسح) باريز مقصد محبي الروايات التمثيلية في كل أقطار الأرض إذ تمثل فيها الروايات الجديدة التي يضعها كتّاب باريز. ومن المشهور أن جميع (مراسح) أوروبا تقلّد المراسح الباريزيّة في هذه الروايات لأن الفرنسويين امتازوا بإتقان الفنون الجميلة امتيازاً لا يشاركهم أحد فيه. والمغرمون بالتمثيل من الأجانب يشهدون هذه الروايات متى كانوا في باريز ويقرأون أخبارها في جرائد باريز متى كانوا في بلادهم. ويؤخذ من مطالعة جرائد باريز في هذا العام أن أهمّ رواياتها كانت اثنتين إحداهما للمؤلف فيكتور بين ساردو عنوانها "الساحرة". والمسيو ساردو هو رئيس جمعية المؤلفين للروايات وهو أشهرهم وأكبرهم لأنه أقدمهم عهداً وأكبرهم سنّاً. وقد رأينا أن نضع روايته في هذا الجزء موضوع "القصة الشهرية" لجمالها وعلاقتها بالشرق. ذلك لأن عروس هذه الرواية فتاة مسلمة من بلاد الأندلس. ولقد أصابت هذه الرواية من النجاح نصيباً عظيماً ومثلتها الممثلة المشهورة ساره برنار فزادت جمالها جمالاً. وكان لها فيها "دور" الفتاة المسلمة "الساحرة" فطبق الحاضرون المرسح بالتصفيق والهتاف لها واستعادوها في منتهى كل فصل مرات عديدة.

وإليك هذه الرواية باختصار.

***

في القرن الخامس عشر استردّ الأسبانيون أسبانيا من العرب، وكمل هذا الاسترداد بأخذ "غرناطة" التي كانت آخر ما بقي في يد العرب في أسبانيا. وبعد هذا الاسترداد في أثناء اتقاد نار الضغائن بين الأسبانيين والمغاربة كانت الحكومة الأسبانية تجدّ في اضطهاد المغاربة والإساءة إليهم حتى أن مجرد مساكنة الأسباني لامرأة عربية أو مغربية أو مساكنة العربية أو المغربية لرجل أسباني كانوا يعاقبون عليها بالأشغال الشاقة والسجن. أما تهمة السحر فكان عقابها الإعدام حرقاً بالنار. وكان مفتشو "ديوان التفتيش" يبحثون بتدقيق عن مرتكبي هذه الأمور وغيرها.

ففي ذات يوم كان رئيس شرطة طليطله الدون "انريك دي بالاسيوس" يبحث ويفتش في البرية فلقي فيها فتاة عربية تُدعى "زريا"[1]وكانت هذه الفتاة ابنة طبيب عربي مشهور في الأندلس وقد تلقت عن أبيها علم الطب وأسراره. وإنما كانت تجول في البرية في ذلك الحين تحت أشعة القمر الفضية لقطف شيء من النباتات والأعشاب النافعة في الطب، فاستوقفها الدون انريك واستخبرها خبرها. وبدل أن يقبض عليها لمخالفتها قانون الحكومة لأنها قطعت في أثناء الطريق الحبل من عنق رجل مشنوق رأفةً به كما علم ذلك منها، قبضت هي عليه بنظراتها النافذة. فأحبها الدون انريك. ثم أظهرت على سبيل المزاح أنها تعلم الغيب فأخذت كف انريك وقرأت له فيها أنه سيحب حباً شديداً وتحدث له حوادث كبرى ويموت شاباً. ومنذ هذه الساعة تعلّق بها الدون انريك فذهب معها إلى قصر لها صغير في طليطله.

---

[1] في الأصل Zoraya وهي كما عربناها لكنا لا نعرف علماً عربياً لامرأة بهذا الاسم. إلا إذا كان مراد المسيو ساردو "ثريا" وهو اسم جميل جداً لكن يجب كتابته çoraya و tho و so.

ولكن لم تمضِ عليها مدة في هذا القصر حتى صارت "ثريا" ترى بعض رجال الشرطة المتخفين يطوفون حول قصرها يرقبونها. وبعد حين جاء انريك مغتماً مهتماً وأخبرها أنه مضطر إلى التغيب عنها طويلاً لأسباب سياسية وخصوصية. فودّعته وودّعها وداع من يفارقها فراقاً طويلاً. وبينما كانت ثريا جالسةً في قصرها تفتكر جاءوها بفتاة أسبانية هي ابنة حاكم طليطله. وسبب مجيئهم بها أن هذه الفتاة على عزم الاقتران في تلك الليلة وكانت هستيرية، فإذا كانت نائمة في فراشها نهضت من الفراش وهي نائمة وذهبت دون أن تشعر بذلك. فخافوا أن يحدث لها هذا الأمر ليلة زواجها فجاءوا بها إلى الطبيبة لمداواتها وكان اسمها جوانا.

وكانت ثريا تعرف فن الاستهواء والتنويم المغنطيسي[2] فنوّمت الفتاة وأمرتها وهي نائمة أن تجتنب كل نوبة هستيرية في ليلة زواجها ثم نبهتها وأعادتها مسرورة ضاحكة.

ولكن جوانا لم تخرج من قصر ثريا حتى علمت ثريا أن الذي سيقترن بهذه الفتاة في تلك الليلة هو "انريك" نفسه. فتغضب وتأخذ إزارها على عجل وتسرع إلى قصر انريك وتدسّ نفسها بين الجموع المحتفلة بعقد الزواج حتى تصل إلى غرفة النوم حيث يكون انريك وجوانا بعد انصراف الجموع. فلما يقع نظر انريك عليها ويقع نظرها عليه يغضب الاثنان ويتخاصمان. ورغبة من ثريا في الانتقام من انريك تقصد جوانا عروسه وتأمرها أن تنام فتنام الفتاة رغماً عنها نوماً مغنطيسياً.

وبينما كان انريك وثريا يتخاصمان، دخل القصر أحد رجال الشرطة مقتفياً آثار ثريا لأنه رآها داخلة إلى هذا القصر وكان رقيباً عليها. فلما علم انريك بأن

---

[2] انتقد منتقدو الروايات في باريز على المؤلف هذا الأمر لأن هذا الفن كان غير معروف في ذلك العصر ولكن مؤلفي الروايات لا غنى لهم عن الافتراض بل أن صناعتهم كلها افتراض في افتراض.

ثريا صارت في خطر لأن الشرطي سيقبض عليها انتبه حبه القديم لها. ورغبةً في إنقاذها يهجم على الشرطي ويخنقه. فلما ترى ثريا هذا الأمر تصيح بأنريك هلمّ الآن يا حبيب نفرّ لنخلص كلانا. هلمّ نذهب إلى طنجة ونعيش معاً. فإن وطن الإنسان هو المكان الذي يحب فيه.

ولكن انريك يأبى الفرار فيقبض ديوان التفتيش عليه وعلى ثريا. وفي الفصل الرابع يقدّم الاثنان لدى هذه المحكمة لمحاكمتهما. والمهم في هذا الفصل تاريخياً وصف ديوان التفتيش وطرق محاكمته. وقد تقدّم أن انريك اقترن بابنة حاكم طليطله. فأعضاء المحكمة يهتمون بإنقاذه من جناية القتل لأنه صهر الحاكم... وتوصلاً لذلك يتهمون ثريا بالسحر وبأنها هي التي دفعت انريك بسحرها هذا إلى قتل الشرطي. أما ثريا فإنها تنكر السحر أشد انكار لأنها لا تعتقد به. وكيف يكون ساحراً من لا يعتقد بالسحر. وهي تصيح على مسمع من القضاة: نعم أنا مسلمة. نعم قد بقيتُ في السر متمسكة بديني. نعم أنا طبيبة عاملة. ولكنني لست ساحرة قطعياً.

فلما يرى القضاة أن كلامهم لا يجدي نفعاً يلجأون إلى آخر الطرق. فينفرد بها بعضهم ويفهمها أنها إذا اعترفت بأنها ساحرة تخلص حبيبها انريك بهذا الاعتراف. فهل تكره خلاصه؟

فلما تسمع ثريا هذا الكلام وتفهم غرض القضاة تصيح بهم: نعم نعم أنا ساحرة أنا ساحرة. لا تصدقوا ما قلته لكم فأنا ساحرة أنا ساحرة.

فهنا لا يقدر أحد على وصف الانفعال الشديد الذي حدث في نفس الجمهور الحاضر في (المرسح) فإن جدران المكان ارتجت ارتجاجاً من شدة التصفيق وقوة الهتاف. ذلك أن ثريا جادت بنفسها لإنقاذ حبيبها. وحب كهذا الحب

لا يكون إلا في النفوس العظيمة الكريمة التي لها قوة على إنكار الذات. وبعض المنتقدين قالوا إنه لا يكون إلا في الروايات...

أما انريك البارد فإنه لما يقولون له إنها اعترفت بأنها ساحرة يدهشه ذلك فيتبرأ منها لأنه لا يريد الدنو من امرأة ساحرة[1].

أما محكمة التفتيش فإنها تحكم على ثريا بالاعدام حرقاً. فيسوقونها إلى ساحة الاعدام بالاحتفال الاعتيادي. وفي طريقها إلى الساحة تمرّ بالكنيسة. فتسمع فيها ضوضاء. وكان سبب هذه الضوضاء أن جوانا عروسة انريك التي نوّمتها ثريا نوماً مغنطيسياً انتقاماً من انريك كانت لا تزال نائمة وقد نقلوها إلى الكنيسة ليصلّوا عليها لعلها تنتبه. فلما علمت ثريا بذلك قالت: لا يقدر أحد غيري على تنبيهها. فيسرع إليها أبو الفتاة حاكم طليطله ويقول لها أنها إذا شفت ابنته ونبهتها فإنه يعفو عنها. فتجاوب ثريا: إنني أشفيها حبّاً بالإنسانية فقط لا رغبة في الحياة لأنني لم أعد أبالي بها. ثم تقصد ثريا الفتاة جوانا النائمة وتنبهها فيفرح أبو الفتاة ويأمر بإطلاق سراح ثريا.

ولكن هذا الأمر لا يكفي لإطلاق سراح الفتاة. فإن الشعب رأى ثريا تشفي الابنة النائمة فيتحقق حينئذٍ أن ثريا ساحرة. فيثور ويطلب شنق الساحرة. وفي أثناء ذلك كانت ثريا قد التقت بأنريك وأعلمته أنها لم تعترف بالسحر إلا لإنقاذه. فيعود إليه حبه لها. فيجرد حسامه ويهجم على الشعب لإنقاذ ثريا من قبضته. ولكن ماذا يصنع سيف واحد بشعب هائل. فتمدّ ثريا يدها إلى جيبها وتخرج منها سمّاً كانت قد خبأته فيها ثم تتناول منه مع انريك في أثناء قبلة مشتركة بينها وبينه. فيموتان بأيديهما لا بأيدي الشعب فراراً من عذاب التمثيل بهما.

[1] هنا اعترضوا أيضاً على المؤلف بقولهم كيف تحب فتاة ذات نفس إلهية كثريا فتى كأنريك هذه نفسه.

وبذلك تُختم هذه الرواية البديعة التي جعل المسيو ساردو أرقى وأجمل نفس فيها نفس فتاة عربية.

وعندنا أنه إذا كان بعض أدباء المصريين والشرقيين يكتبون إلى المسيو ساردو لشكره على تصويره النفس الشرقية هذا التصوير الجميل فإنهم يفونه حقه من الثناء. ولولا أن الرواية كلها مبنية على الحب لكنا نشير بذلك على بعض القارئات.

***

حاشية: قدّروا أن المسيو ساردو سيربح من روايته هذه في سنتين فقط خمسة آلاف ليرة فرنسوية. وبما أن الفنون الجميلة هي مقياس ارتقاء الأمم كما قالوا فمن هذا الفرق بين رواياتهم ورواياتنا يُعلم مبلغ ارتقائهم عنا.

الجزء التاسع، كانون الأول 1903

فريد وحارس الجنة

قصة فكاهية تأليف (صاحب الجامعة)[1]

بينما كان فريد متجهاً إلى سريره للرقاد في نحو الساعة الثامنة مساءً كانت أخته فريدة تبكي في زاوية بكاءً خفيفاً متتابعاً كأنه نشيد محزن. فيظهر أن أمها سئمت هذا البكاء. فصاحت بالولد: فريد فريد لا تنم قبل أن تكلم أختك فإنها تبكي طوال الليل إذا لم تكلمها. فأجاب الولد بحمق: لا أكلمها ولو لم تنم الليل كله فإنها قطعت خيط طيارتي فذهبت مني. وقد عزمت على أن لا أكلمها بعد اليوم. فاشتدّ حينئذٍ بكاء فريدة وقالت وهي تبكي: لم أقطعها لأفلتها قصداً بل لألعب معك، فأفلتت رغماً عني. فنظر إليها فريد بغضب وأشار إليها إشارة تهكم وازدراء ثم دخل غرفته وأغلق الباب ورقد في سريره.

وبعد أن بكت فريدة قليلاً بعد دخول فريد إلى الغرفة، تعبت من البكاء على ما يظهر فتركته وصارت تفتكر. فقالت في نفسها ماذا أصنع لأغيظه كما أغاظني؟ فبدا لها أمر فجثت على ركبتيها ورفعت يديها إلى السماء وقالت: يا لَبّ (تعني يا رب) أجعله يبكي كما أبكاني. ثم مسحت دموعها ونهضت. فلم تخطُ خطوتين حتى بدت لها هرة كانت في البيت وكان فريد يحبها جداً. فأخذتها فريدة بين يديها وصارت تقول لها: أبكاني فليد (تعني فريد) يا بسّه أجعليه يبكي كما أبكاني. وبينما هي تخاطب الهرة هرع كلب صغير كان أيضاً لفريد، فمسحت فليدة (نتكلم بلغتها) الكلب الصغير بيدها وقالت: عضّه غداً يا فوكس وانتقم منه لي. فهزّ الكلب ذنبه وخُيّل لفريدة أنه يضحك لها ويعدها بأن ينتقم لها من فريد الشرس

[1] "صاحب الجامعة" هو فرح أنطون. من كتاب له للأولاد تحت التأليف.

القاسي. فقبّلته فريدة في رأسه مسرورة ثم تركته هو والهرة يتداعبان على البساط لما بينهما من الإلفة وإن كانت طباعهما متنافرة، وذهبت إلى فراشها للرقاد أيضاً.

وعلى هذا فقصتنا كما يرى القارئ بين غلام في نحو التاسعة من العمر وفتاة في نحو الثامنة.

أما فريد فقد كان في أثناء هذا الحين يسرح ويمرح في عالم الأحلام. فإنه كان قوي البنية دموي المزاج ولذلك كان الكرى يسرع إلى عينيه. فأبصر فريد في نومه أنه واقف على سطح يقوم بتطيير طيارته. وفيما هو يطيرها جاءت أخته وقطعت الخيط فذهبت الطيارة. غير أن فريداً لم يتركها تذهب وحدها بل أسرع للقبض عليها فوثب وطار وراءها. فلبثت الطيارة طائرة في الفضاء وفريد طائر وراءها للقبض عليها. وما زالا على هذه الحالة حتى وصل فريد إلى الجنة. فلما بلغ الجدران أبصر من إحدى النوافذ رأس حارس الجنة ينظر إليه ويضحك. فاقترب فريد من الباب وقرعه بيده. فقال له الحارس ماذا تريد يا فريد. فقال فريد أريد طيارتي التي وقعت عندكم. ففتح الحارس الباب لفريد فدخل فريد إلى الجنة وشاهد ما فيها من الأنهار والأشجار والأثمار والأزهار. فطرب لذلك المنظر طرباً شديداً ونسي طيارته. إلا أنه بعد برهة انقبض الغلام قليلاً وظهرت عليه علائم الحزن. فقال له الحارس ما بك يا فريد. فأجاب الولد: أريد... أريد... فقال الحارس: ماذا، ماذا؟ فقال فريد: أريد أن... أعملها... أعني... أن... أبوّل. فضحك الحارس وأشار إلى زاوية وقال له: بُلْ هنا واسترح. وفي هذه اللحظة انتبه فريد المسكين من نومه وهو يبوّل في فراشه.

وكان قد أصبح الصباح واليوم يوم اثنين وفريد تهيأ منذ أمس ليذهب إلى الامتحان المدرسي لقرب زمن الفرصة المدرسية. فلما رأى نفسه في تلك الحالة

الكئيبة أجهش بالبكاء بصوت رفيع. فانتبهت فريدة لهذا الصوت فنهضت وركضت إلى غرفة فريد وهي تقول لقد سمع الله مني فأبكاه كما أبكاني.

وبعد أن ضحك جميع من في البيت لحادثة فريد، بدّل فريد ملابسه وجلس على مائدة الطعام في الصباح وهو عابس غاضب والرائحة الكريهة لا تزال في أنفه رغماً عن استحمامه. وكان الطعام لبناً وجبناً وأثماراً. فهرعت الهرة حبيبة فريد إلى ركبتيه كالعادة وأسرع كلبه إلى جانبه يهزّ ذنبه ويطلب طعاماً. فكان فريد حسب عادته في كل يوم يتناول قطعة من الجبن فيقسم نصفها ويضعه في فمه والنصف الثاني يلقيه إلى الهرة وإلى الكلب. ولكن ما انقضت برهة على ذلك حتى تحركت الهرة بغتة حركة عنيفة في حضن فريد. ثم وثبت نحو إحدى زوايا البيت. وبعد نصف دقيقة عادت وفي فمها شيء يختلج. ثم أسرعت إلى صحفة فريد فقطعت نصف ما في فيها ووضعته في الصحفة والنصف الثاني ابتلعته متهنئة.

فتميز فريد ما وضعته الهرة في صحفته فإذا هو نصف فأر.

ذلك أن الهرة أرادت أن تجزي فريداً على حسن صنعه معها بأن تكافئه بمثله. أي أن تقاسمه طعامها.

فثارت نفس فريد لذلك المنظر المكرب فأخذ يتقيأ ويصيح باكياً فأفرغ من جوفه في دقيقة كل ما دخل إليه من الطعام.

أما فريدة فكانت في إحدى الزوايا تضحك في أثناء ذلك بالسر وتقول: برافو يا بيسه برافو لقد انتقمتِ لي. وفي هذا الحين حانت منها التفاتة فأبصرت الكلب الصغير يجرّ شيئاً بفيه ويداعبه. ثم رأته جرّ هذا الشيء حتى حقيبة الكتب التي تحتوي على كتب فريد وكان يحملها بها إلى المدرسة. وبعد ذلك صار الكلب يلعب بالحقيبة والشيء المذكور آنفاً حتى أدخله في الحقيبة. فازداد ضحك فريدة

وقالت: قد جاءت نوبة الكلب. عافاك يا فوكس. وفي أثناء ذلك كان فريد قد عاف الطعام وغسل وجهه وفاه وأسرع غضوباً إلى حقيبة كتبه ليذهب إلى المدرسة. فأقفل الحقيبة كالعادة وحملها وسار في طريقه مزمجراً مرغياً مزبداً.

ولما وصل فريد إلى المدرسة وجد جميع الأولاد في فرح وسرور لقرب الفرصة المدرسية. وكان بعض رفاقه في الدرس تحت شجرة يقرأون دروسهم. فجلس فريد بينهم وفتح حقيبته ليخرج كتبه.

فماذا وجد فريد في الحقيبة؟

لقد وجد فيها فوق الكتب سرواله الذي بال فيه في الليل...

فانتشر هذا الخبر بين التلامذة بسرعة البرق فأسرعوا لمشاهدة هذا الأثر البديع. فأخذ فريد يبكي بمنتهى قواه ويضرب كل من حوله كأنهم هم الجانون عليه. فأسرع المعلمون ليعلموا الخبر وصاروا رغماً عنهم يضحكون مع الضاحكين. ولكن لم تمضِ برهة حتى قدم من بيت فريد خادم مرسل من قِبل أمه لأنها علمت من فريدة بمسألة السروال وخشيت على فريد من رفاقه. فعلم حينئذٍ حضرة ناظر المدرسة بحقيقة المسألة. فانفرد بفريد وأسكته وهدّأ من روعه وسقاه كأساً مرطباً ثم قال له: أنت المخطئ والجاني على نفسك. فلماذا لم تفتح حقيبتك قبل أن تحملها لترى ما فيها. لا ريب أنك لا تملك فضيلة التدقيق والتحقيق في أعمالك. فقال فريد وأثر الدموع في عينيه: نعم أنا محقوق. فقال الناظر: ولماذا تأثرت كل ذلك التأثر من طعام الهرة فإن هذا أيضاً ضعف شديد. فلها طعامها ولك طعامك. فقال الولد شاهقاً بزفرة: نعم أنا محقوق أيضاً. فقال الناظر: ولماذا بلت في سروالك وجلبت على نفسك هذه البلية؟

فعند هذا السؤال فتح فريد عينيه وقال: أما هذا يا معلمي فالذنب فيه لحارس الجنة. فلماذا قال لي بُل يا فريد واسترح...

وفي أثناء ذلك كانت فريدة الساذجة تعترف في البيت لأمها بأنها هي سبب تنغيص عيش فريد في ذلك اليوم لأنها هي التي طلبت من الله أن ينتقم من أخيها وهي التي سألت الهرة والكلب أن يساعداها عليه. فعاقبتها أمها عقاباً شديداً لأنها فكرت في الانتقام ولم تصفح عن إساءة أخيها.

وا أسفاه أيتها السيدة لا تشددي العقاب على ابنتك. وانزلي يوماً إلى ميدان العلم لتري كيف يعامَل فيه الذين لا يحبون الانتقام. إن الثعالب تضحك منهم والذئاب تعبث بهم.

الجزء 12، 1904

قصة جديدة للفيلسوف تولستوي

(هذه قصة من قصص هنود أميركا الجنوبية)

خلق الله البشر في بدء الأمر ولا حاجة لهم للعمل ولا اللباس ولا المسكن ولا الغذاء وكانوا يعمرون حتى المائة سنة دون أن يصابوا بمرض ما.

ثم بعد أن مرّ على ذلك زمن قصير عاد الله ليرى البشر في أية حالة أصبحوا، فرأى أنهم بدل أن يتمتعوا بالحياة باتوا يتخاصمون ويحسدون بعضهم بعضاً لأن كل واحد منهم لم يكن يفكر في غير نفسه. ولذلك بدل أن يحمدوا الحياة صاروا يلعنونها.

فحينئذٍ قال الله: "هذا لأن كل واحد يعيش من أجل نفسه". ورغبةً في أن يمنعهم من ذلك رأى أن يشغلهم عن أنفسهم فأدخل بينهم أمراً جديداً وقال في نفسه: متى أصبحوا يخافون البرد والعري والجوع فإنهم يطلبون العمل رغماً عنهم. فالعمل يجمع قلوبهم ويحملهم على التعاون. لأنه لا يمكن للفرد الواحد أن يبني الجسور والمنازل ويحرث ويزرع ويحصد وينسج. وهكذا فكلما كثروا زاد اتحادهم واجتماعهم وتعاونهم على حياتهم.

وبعد انقضاء مدة أيضاً عاد الله ليرى كيف يعيش البشر.

فرأى أن حالتهم صارت من رديء إلى أردأ. نعم إنهم باتوا يعملون إذ لا غنى لهم عن ذلك ولكنهم لم يكونوا (يعملون معاً) بل كانوا يتفرقون جماهير جماهير وكل جمهور يسعى لأن ينتزع من الآخر عمله أو ثمرة عمله. ولذلك كانوا ينفقون وقتهم وقواهم في المخاصمات فيما بينهم فتسوء أحوالهم. فلما رأى الله ذلك قال في نفسه: سأجعلهم لا يعلمون ساعة موتهم. فإنهم متى علموا إنهم يموتون

بغتةً على غير علم سابق منهم فإنهم يتركون مخاصمة بعضهم بعضاً من أجل حياةٍ هم تاركوها. وساعاتهم المعدودة ينفقونها حينئذٍ في الإلفة والتعاون بدل الخصام.

ففعل الله ذلك. ولكنه عاد بعد مدة أيضاً وافتقد البشر فوجدهم في أسوأ حال. وجد أن الأقوياء منهم لما علموا إنهم تحت خطر الموت كل يوم أصبحوا يرغمون الضعفاء بالعمل لهم ويقيمون هم في الراحة والبطالة والكسل والضجر. ووجد أن الضعفاء يعملون أعمالاً فوق قوتهم وطاقتهم دون أن يجدوا راحة لأنفسهم. ولذلك كان الفريقان يتباغضان ويتخاصمان على الدوام وصارت حياتهم أتعس مما كانت.

فلما رأى الله هذا الأمر قال في نفسه: فلنتخذن لمداواة هذه العلّة العلاج الأخير. فأرسل الله بين البشر الأمراض المتعددة والآفات وهو يقول في نفسه: متى صار جميع البشر تحت خطر الأمراض والآفات المتعددة فإن أقوياءهم يخفضون من غلوائهم ويعتنون بالضعفاء رغبة في أن يمرضهم هؤلاء عند مرضهم ويعتنون بهم. ثم أن الله ترك البشر لأنفسهم مرة أخرى ليرى ماذا يصنعون. فلما عاد إليهم وجد حالهم أيضاً أسوأ مما كانت. فإن هذه الأمراض والآفات التي أرسلها الله إلى البشر لتجمعهم كانت سبباً في زيادة تفريقهم. فإن الأقوياء كما إنهم أجبروا الضعفاء على العمل ليستريحوا هم، أجبروهم أيضاً على تمريضهم ولم يمرضوا هم أحداً. وكان الذين يمرّضونهم يتعبون في تمريضهم تعباً شديداً يشغلهم حتى عن تمريض أقربائهم وأولادهم.

فلما رأى الله ذلك غضب وقال: إذا كانت كل هذه الطرق لم تُفهم البشر الطريق الحقيقية إلى راحتهم وسعادتهم فليدبروا هم مصائبهم وآلامهم. ثم أنه تخلى عنهم وتركهم.

فلما بقي البشر وحدهم عاشوا زمناً طويلاً دون أن يعلموا طريق سعادتهم. ولكن في الأزمنة الأخيرة أصبح كثيرون منهم يفهمون ويعلمون أنه من الواجب أن لا يكون العمل تسلية وإلعوبة لبعض البشر وعذاباً إجبارياً للبعض الآخر. بل يجب أن يكون عملاً عمومياً للجميع يشترك فيه الجميع ويسرّ الجميع. وإن أول أمر بديهي يجب على الإنسان ذي الأيام المعدودة في الأرض والذي يتهدده الموت كل يوم أن يصرف أيامه هذه وساعاته ودقائقه في المحبة والإلفة والتعاون بين الناس لا في الخصام والنزاع.

لاون تولستوي

المعرّب: إن مقصود تولستوي بهذه القصة الصغيرة إظهار تكليف الإنسان بالعمل وإلزاميته لكل البشر. وهو يدعو إلى ذلك في كتبه ورسائله ويقول إنه من الظلم والفساد أن يسخّر أكثر الإنسانية لأقليتها. وقد مازحه يوماً أحد زائريه وسأله لماذا لا تطبق أنت فعلك على قولك فتعمل بيديك كل حاجاتك كما تدعو الناس إلى ذلك؟ فأجابه بهيئة جدية: "إنني أتأسف لأنني صرت شيخاً هرماً لا أقدر أن أعمل بيدي وأعيش من عملي. وأنا الآن أعمل كتباً غير إني أفضل أن أكون عاملاً بيدي. فتأمل". ولم يقل تولستوي هذا القول مع معرفته فائدة كتبه في تنبيه البشر إلى الحقيقة التي نسوها في زحام حياتهم إلا لرغبته في حفظ هذا المبدأ قولاً وفعلاً. وبحفظه يقلب النظام الحاضر المبني على عمل وتعب الأكثرية وراحة وبطر الأقلية.

العدد 2، السنة 2، كانون الأول 1904

عاقل ونصف مجنون ومجنون

بين فلسفتين

قصة للكبار لا للصغار تأليف صاحب الجامعة

وقف المعلم في وسط تلامذته في ليلة سبت وقال لهم: لقد عزمتُ على أن أعيّن نصف يوم السبت من كل أسبوع لمحادثتكم في الحياة وواجباتها وشؤونها وماذا يُطلب منكم فيها لتكونوا على استعداد لها، ورأيت أن أبدأ بذلك منذ اليوم فاتركوا كتبكم واصغوا إليّ.

فابتسم التلامذة لطلب المعلم منهم أن يتركوا كتبهم وحصلت بينهم ضجة خفيفة نشأت عن إطباق الكتب ورفعها لوضعها في أماكنها.

وكانت المدرسة عبارة عن منزل صغير يضم نحو أربعين طالباً أكبرهم في الرابعة عشرة وأصغرهم في نحو الثالثة. وكانت أزياؤهم المختلفة تدل على تباين حالاتهم الاجتماعية. وكان الناظر إليهم يرى ضعف سلطة المعلم عليهم لأن عدم انتظام جلوسهم وحركاتهم أمامه كانت تدلّ على ذلك دلالة واضحة.

ثم زادت هذه الدلالة بغتة بأن التفت جميع التلاميذ لفتة واحدة نحو الباب الذي كان إلى ظهورهم وذلك لصوتٍ ضعيف خصوصي سمعوه وارداً من جهته.

ويظهر أن المعلم كان قد تعود هذه اللفتات وألف أسبابها لأنه لم يلبث أن أدار ظهره للتلامذة وصار يضحك وهو يقول في نفسه (جاء المنحوس).

وفي الواقع برز حينئذٍ في نافذة بجانب الباب رأس رجل قادم. ولما وقع نظر هذا الرجل على نظر المعلم تنحنح الرجل فقهقه التلامذة قهقهة شديدة.

أما المعلم فإنه ملك نفسه رغماً عنه ونظر إلى الرجل وقال بهيئة جدية: يا كبريه إرميا إذهب فما هذا وقتك الآن. ثم التفت المعلم إلى التلامذة وقال: دعونا منه فكفاكم ممازحته في أوقات اللعب واصغوا إليّ. إنني الآن أخاطبكم كمحدّث لكم، ولكلّ واحد منكم أن يعارضني أو يستفهم مني إذا شاء.

فصاح الرجل الذي في النافذة: وهل أنا وحدي المحروم من الكلام إذاً.

فضحك الجميع حتى المعلم. ثم أخذ هذا يقول:

- اسمعوا أيها الطلبة. أنتم الآن في زهرة الحياة وربيع العمر. فإنكم ترون الآن كل شيء زاهياً زاهراً بلون تصوّراتكم الجميلة. ولكن متى نزلتم إلى ميدان العالم وجدتم في وجوهكم عثرات وعقبات على ثلاثة أنواع: (النوع الأول) يضعه في طريقكم الأردياء ومحبو ذواتهم (والنوع الثاني) أنتم تضعونه في طريقكم ولا تدرون لجهلكم أو لاستسلامكم إلى من تثقون بهم (والنوع الثالث) تضعه الأقدار والأحداث في طريقكم ولا يكون الذنب فيها لكم ولا لغيركم.

"فأنا عزمتُ على أن أشرح لكم هذه الأمور الثلاثة وأعطيكم السلاح الماضي الذي تقدرون على الانتصار به في الحياة، وأعني المفتاح الذي يفتح كل مغلق في وجوهكم".

وكان التلامذة قد أخذوا يتثاءبون في أثناء كلام المعلم وربما لم يفهم أحد منهم شيئاً من هذا الوعظ. ولكن الرجل الذي كان في النافذة كان مصغياً أشد اصغاء. فأردف المعلم بقوله:

"وقبل الشرح أذكر لكم يا أولادي هذا المفتاح الذي يفتح كل مغلق في وجه البشر ويجعلهم يدوسون كل المصاعب. هذا المفتاح ينحصر في كلمة وحدة وهي: أن تحبوا الناس وتخدموا بعضكم بعضاً".

ولكن المعلم لم يأتِ على هذه العبارة حتى صرخ الرجل الذي كان في النافذة صرخة شديدة مقهقهاً كالقرود. ثم سُمع صوت الرجل الذي في النافذة من خلال الضحك يقول: هكذا التربية وإلا فلا... فرائس فرائس ربوا للعالم فرائس... ضحايا ضحايا قدموا للناس ضحايا... أحبّوا بعضكم بعضاً قه قه قه... عافاك الله يا مربّي الخرفان وسائقهم للذبح... إنني اشتم رائحة لحمهم منذ الآن... كمّل كمّل فإنني مسرور جداً من تعليمك...

وكان الرجل يتكلم من النافذة ويهذي كالمجانين والأولاد مستمرون في الضحك والمعلم واقف يشير لهم بالسكوت دون أن يقدر على الكلام. وكان قد أمسى المساء وكاد يدخل وقت الانصراف فرأى المعلم أن يختم ذلك اليوم ختاماً مفرحاً للتلامذة. فأمرهم بالانصراف والانتظار في دار اللعب. فخرج الأولاد يثبون ويتداعبون وقد التفوا حول الرجل الغريب الذي كان في النافذة. ولما اجتمعوا في دار اللعب أجلسهم المعلم على العشب وقال:

- هنا يمكننا أن نكمل حديثنا وضحكنا فإن خير الحديث ما خالطه الضحك. ثم التفت إلى إرميا وقال: أما أنت يا إرميا فاسمع ولا تقطع حديثنا ومتى فرغنا منه سمعنا لك كما سمعت لنا، فإذا كان لك اعتراض أو انتقاد حسب عادتك نظرنا فيه.

ثم أن المعلم استأنف الكلام عائداً إلى موضوعه الأول فقال:

- نعم أيها الطلبة. إن مفتاح كل مغلق في الحياة هو أن يحب الناس بعضهم بعضاً ويخدموا بعضهم بعضاً. وأساس هذه القاعدة "إخلاص" الفرد للفرد واعتباره صديقاً وقريباً له. ولذلك قيل "أحبّ قريبك كنفسك"، فالقريب هنا هو كل إنسان على الإطلاق. وانظروا تأثير هذه المحبة...

ثم أن المعلم أخذ يُسهب في هذه التعابير. فذكر أنه أقوى من الشهوات والموت والمصائب... لأن المحبة صفة الله وكلمته ونوره إلخ... كل ذلك وإرميا يضحك والأولاد صغارهم يتثاءبون وكبارهم يضحكون لضحك إرميا.

إلا أنه كان في مقدمة الطلبة بعض الأولاد الكبار يصغون إلى كلام معلمهم ويقابلون مبدأه بمبدأ إرميا المجنون بل "نصف المجنون" كما كانوا يسمونه. ذلك لأن هؤلاء الأولاد كانوا على باب العالم تقريباً ولا يفصلهم عنه إلا نحو سنتين. فانبرى أحدهم في أثناء كلام المعلم وقال:

- كنت أمس سائراً مع رفيقي فوجدنا على الأرض طابة جلد جميلة. فأسرعنا إليها ونحن نتدافع عنها. ثم تماسكنا فغلبني رفيقي وأبعدني عنها واستولى عليها وحده. وقد حاولتُ كثيراً أن أفهمه إنني قريبه وإنني أحبه وذلك لكي يتركها لي فلم يفعل. فما فائدة المحبة إذا كانت لا تنفع في إقناعه وأي تأثير لها هنا.

فصفّق إرميا لهذا الكلام. أما المعلم فعبس وقال: المحبة هنا تنفع كثيراً إذ أمامك طريقان: فإما أن تحبه حباً حقيقياً وتترك الطابة له مؤثراً قريبك على نفسك. وإما أن تحبه حب نصح فتقول له إن للطابة مالكاً وقد ضاعت منه فجيب عليه أن يسلمها للمعلم لكي يفتش عن صاحبها ويعيدها إليه.

فضحك إرميا ضحكاً شديداً وصاح: نعم نعم، ثم إذا وجدتَ معدتك على الأرض أو دماغك فاتركه لصاحبك أيضاً حباً له وإكراماً لسواد عينيه.

ويظهر أن المعلم ضاق ذرعاً بقهقهة إرميا وتهكمه وضحكه أو أنه رام أن يضحك من إرميا كما ضحك إرميا منه فالتفت إليه مازحاً وقال: إذا كانت أقوالنا لا تعجبك أيها الحكيم العظيم فاسمعنا أقوالك.

وكأن إرميا كان ينتظر هذه الدعوة فإنه ما فاه المعلم بها حتى انبرى في الوسط وأخذ يقول والطلبة يضحكون لاشاراته وحركاته:

"أيها الطلبة... إنني في أسف لأنهم يعلّمونكم عكس المبادئ التي تلازم النجاح في العالم... فهؤلاء المعلمون والأساتذة هم مضلّلوكم لا مرشدوكم... فإذا كنتم تريدون الرشاد والطريق المستقيم الذي يوصلكم في الدنيا إلى أغراضكم وأماني نفوسكم فلكم عندي وصيّة واحدة. اعكسوا جميع المبادئ التي يغرسونها في نفوسكم منذ الصغر. هذا هو المفتاح الحقيقي الذي يفتح اليوم كل مغلق في وجوهكم.

"أيها الطلبة أول تلك المبادئ المبدأ الباطل الكاذب الذي ذكره معلمكم وهو قوله أن الإنسان قريب وصديق للإنسان... كل شيء إلا هذا أيها الطلبة... من هذا المبدأ الفاسد تشتق كل مصائبكم ومتاعبكم في العالم... إن الإنسان في الحقيقة "عدو" الإنسان لا صديقه. فعليه أن يحذره لا أن يثق به ويحبه. الثقة؟ المحبة؟ قه قه قه... زه زه زه... بخ بخ بخ... المحبة؟ نعم إنني أحبكِ أيتها السمكة التي تغذيتُ منك الظهر... ولذلك أكلتك. وأنت أيتها الهرة القوية التي ترصدين العصافير هناك تحت الشجرة... الله كم تحبّينها. فليحيَ هذا الحب الجذاب القوي الذي يُدغم الأشياء والمخلوقات بعضها ببعض ادغاماً شديداً بفضيلة القضم والهضم.

"أيها الطلبة. قال شاعر فرنسوي "في باطن كل إنسان خنزير يرقد"، قه... قه... قه... أرأيتم أبلغ وأجمل من هذا الكلام. خنزير راقد... يعني أن الإنسان خنزير لطيف. إلا أن هذا الخنزير قد يكون في باطن الإنسان شديد الرقاد أو شديد اليقظة وذلك تبعاً لتربية وأخلاق الإنسان الذي يسكن فيه ذاك الخنزير... فمن البشر من تشمّ رائحة خنازيرهم أول ما تقربهم أو تخاطبهم ومنهم من لا تشم رائحة خنازيرهم إلا بعد أن تختبرهم... أيها الطلبة لا تقاوموا الخنازير... وأعني بها التي في نفوسكم والتي في نفوس غيركم... امشوا معها وجاروها لترضوها أو تكبحوها... وبذلك تبلغون في الحياة كل مأرب... ولكن مع مجاراتكم لها احذروها... "الحذر الحذر" هذه هي أول وآخر كلمة في قاموس أهل النظر. والذي يُهمل الحذر حتى من أخص أصدقائه وأقرب الناس إليه ليس من البشر. بل يكون من البقر. ويستحق أن يُكسر رأسه بحجر.

"أيها الطلبة ليس في كلامي شيء غريب. إنكم مع معلمكم تضحكون مني وتستهزئون. ولكني أقسم لكم بالخنزير الذي في داخلي والخنازير الصغيرة التي في داخلكم إنني لا أقول لكم غير الحق... وكل شيء غير هذا القول باطل. الدنيا نزاع على الرزق وعلى السيادة.. فليس المهمّ فيها إفعام العقول في المدارس بضروب المعقول والمنقول. ولا شحن الأفئدة بكل مكرمة ومحمدة. ولا غسل القلوب من الأحن واللغوب... كلا كلا فإن كل هذا لا ينفع. المهم قبل كل شيء أن يكون لكم "أظافر وأنياب ولسان وطبيعة زحّافة"، فالأظافر للدفاع والأنياب للنهش واللسان لمقاتلة الناس به حين لا ينفع الظفر والناب... اللسان هذا هو السنان... فإنه قد يقتل الخصم عند من تريد قتله عنده ببضع طعنات... ولا يهمّ كون ذلك الكلام صدقاً أو افتراء فقد جاء في قول مشهور عند الفرنسويين[1] "افتروا افتروا فإن كل

[1] القول منسوب إلى Talleyrand الداهية الفرنسوي.

افتراء ينجح إذ لا بدّ أن يبقى منه أثر". بقيت الطبيعة الزحّافة وعني بها التي تسير إلى أغراضها الخصوصية زحفاً تحت أقدام الناس دون مبالاة بعلو ولا ارتفاع. فهذه تفسيرها في قول أحد مشاهيرهم أيضاً[2] "يصل الإنسان إلى كل شيء في الدنيا متى كان بطبيعة متوسطة زحّافة".

Médiocre et rempant, 1, home arrive à tout.

"فالدفع أيها الطلبة والنهش والنمّ والزحف: تلك هي أسلحة الحياة الحقيقية. تلك مصادر النجاح والتقدم والارتقاء. فيا سعد من يفهمها وتكون طبيعته مستعدّة لها... فإن هذا الأمر أيها الطلبة موهبة خصوصية... وما كل إنسان يساعده طبعه عليها... فعليكم أيها المعلمون والأساتذة والمرشدون غرسها في نفوس تلامذتكم وصرف أذهانهم إليها... لقد سمعتك أيها المعلم الساذج تقول في بدء كلامك إن أساس تعاليمك ومبادئك "الإخلاص" فأنا أهنئك به... أحفظ جيداً... وإياك أن تدعه يفرّ منك.. أما أنا سلطان العالم وجامع المفاخر والعظائم فأساسي شيء آخر... شيء جميل... شيء بديع... أعلمتم اسمه؟ أنتم تضحكون وتستهزئون. نعم أصبتم. فأساسي "الضحك والاستهزاء" قه قه قه. نعم. الضحك من الكبير والصغير. من الصديق والعدو. من الحيّ والميت. من الأرض والسماء. إنني أضحك لأنني إذا لم أضحك اضطررت أن أبكي. وأنا لا أرى في الأرض والسماء شيئاً واحداً يستحقّ دمعة واحدة... فاضحكوا اضحكوا... ليحيَ الضحك يا خنازيري الصغيرة. ليحيَ هذا الشيء الصغير الكبير الذي يجعلنا في العالم ندوس كل الأمور الباردة السخيفة التي يسمونها "أموراً محترمة". الاحترام؟ نعم. ولكني لا أحترم إلا أمراً واحداً وهو: نفسي ومعدتي وكيسي ومصلحتي. يقول معلمكم

[2] هو Rabelais وقد وجدنا هذه العبارة في كتاب الفيلسوف تولستوي الأخير إلى جلالة القيصر بشأن الحرب وقد ذكرها عن مقرّبي البلاط الأمبراطوري.

الإخـلاص ولكـن ألسـتُ أنـا "مخلصـاً" لنفسـي؟ فـأي إخـلاص أعظـم مـن هـذا.. الإخلاص؟ لا بأس. ولكن قشرة نحيفة على الوجه. قشرة بقدر ما يكفي لانخداع الخنازير وبلوغ الأرب منها... وهذا هو الأمر الوحيد الذي ينفع فيه ما يسمونه المبـادئ الأزليـة الأبديـة (مبـادئ الحـق والعـدل والصـدق والنزاهـة والإخـلاص والآداب). أجل يا خنازيري إن هذه المبادئ هي في الحقيقة ستار وحجاب عند أولي الفطن والألباب... ووراء هذا الستار (الباب)... الباب الواسع المؤدي إلى الدار الواسعة الرحاب... فادخلوا من الباب الواسع... ادخلوا فيه غانمين ظافرين واتركـوا البـاب الضـيق للمجـانين... وليحـيَ كـل خنزيـر نبيـه يفهـم هـذا المبـدأ الثمين...".

وهنا سكت المجنون.

ومما لا يحتاج إلى بيان أن الطلبة كانوا منشغلين بالضحك في أثناء كلامه الطويل فلم يفهموا أقواله حق الفهم. أما المعلم فقد كان يضحك ويفكر معاً. ولو كنتُ ذا سلطةٍ عليه لعاقبته على تركه هذه المبادئ "الخنزيرية" تُبسط على مسمع من تلامذته دون أن يُظهر لهم شناعتها.

ولقد كنتُ وأنا أسمعها واقفاً وراء جدار المدرسة أرى الحلقة ولا تراني. وكان بجانبي شيخ جليل أحنت السنون ظهره، فلما انصرفت الحلقة التفتُ إليه وسألته: ما رأيك يا عمّ في أقوال هذا المجنون؟ فهزّ الشيخ رأسه وقال: يا أخا العرب لا عتب على هذا المجنون فكم من العقلاء اتخذوا مبادئه هذه مبادئ لهم بزيادة ونقصان. فقلتُ وقد أدهشني جوابه: وهل تنكر يا عماه بعد اختبارك الحياة أن الذي يتبع مبادئ هذا المجنون بزيادة أو نقصان كما قلتَ يكون أحسن حظاً في الدنيا ممن يتبع مبادئ ذاك المعلم!

فهنا أطرق الشيخ إطراقاً مهيباً كأنه يفتش عن جواب لا يخالف مبدأه ولا يناقض اختباراته. ثم رفع رأسه وقال: يا أخا العرب. إن الإنسانية تعيسة. لأنه يظهر أن خالقها قد غضب عليها وتخلى عنها. ومع ذلك فليكن رائدنا التسامح والمعذرة يا أخا العرب. فإن الذي يتأمل في حالة الإنسان ويرى أن أقل ألم أو شهوة يغيّر مزاجه وأخلاقه وإن المصاعب الطبيعية والوراثية والاجتماعية تحيط به من يوم يولد إلى يوم يُلحد فإنه لا يسعه إلا أن يعذره وان كانت معذرته لا تمحو ذنبه. فالمعذرة المعذرة يا أخا العرب. طيبة القلب طيبة القلب حتى مع من لا يعرف قدرها. لأنه لا يقتل تلك المبادئ الخنزيرية شيء غيرها، وبعبارة أخرى أقول إن النزاع في الأرض ليس بين أقوام "يتنازعون على الرزق وعلى السيادة" كما يقولون، بل أن النزاع بين طبيعتين وإنسانيتين: واحدة سهلة قنوعة تكره الظلم وهي تتنازل عن هذا النزاع متى وجدته مخالفاً لطبيعتها وعادتها. وواحدة صعبة طامعة ظالمة تفرّ من العدالة بجعلها هذا النزاع ناموساً للهيئة الاجتماعية البشرية كما هو ناموس الهيئة الحيوانية. هذا يا أخا العرب في لغة العلم. ولكن فليبقَ كلامنا في لغة السذاجة ولنبقَ من الفريق الأول ولذلك أعود إلى قولي: طيبة القلب طيبة القلب يا أخاه أفضل من كل شيء.

وكان هذا الشيخ المهيب يتكلم بسذاجة كسذاجة الأطفال وحماسة كحماسة الرجال. فلم يأتِ على كلامه إلا وقد صرخ صبي كان يرصدنا من بعيد وقال:

– حقاً هذا هو المجنون لا ذاك.

ثم فرّ الصبي ومرّ مرور العصفور في الهواء.

العدد 3، السنة 2، كانون الثاني 1905

عاقل ونصف مجنون ومجنون

(بين فلسفتين)

(قصة للكبار لا للصغار تأليف صاحب الجامعة)

تابع لما قبله في الجزء الثالث

الطبيعتان والإنسانيتان

ولم يكد يمرّ الصبي اللعوب حتى علت جلبة من جنينة المدرسة. فالتفتّ لأقف على سبب الجلبة فأبصرتُ جمهوراً من الطلبة يتزاحمون على شيء في أيديهم. وكان الشيخ رفيقي منشغلاً حينئذٍ بالضحك من الصبي الذي نسب الجنون إليه وفرّ من أمامه. ولذلك لم يلتفت نحو جمهور الطلبة الذي كان يتدافع نحونا وهو يثب ويجلب ويضحك ضحكاً شديداً.

ولما دنا الطلبة منا علمنا أن سبب ضحكهم أفعى سوداء عثروا عليها في جدار المدرسة فقتلوها وأخرجوها. وكان طول هذه الأفعى نحو ذراعين تقريباً وكانت لا تزال تختلج وأكبر التلامذة سناً يحملها مطوية على عودٍ في يده والطلبة يتزاحمون حولها دون أن يدنوا منها.

فلما أبعدوا عنا تركتُ التفكير فيهم وفي الصبي الذي أهان الشيخ وفرّ ضاحكاً، وعدت إلى الموضوع الذي أثار خاطري. فالتفتُ إلى الشيخ وقلت له:

أنظر يا عماه ما أجمل الربيع وما أحسن الطبيعة في هذا الفصل. فلنجلس قليلاً على هذا البساط السندسي الذي حاكته الأرض أمنا الحنون لنتحادث قليلاً.

فجلس الشيخ في المكان الذي أشرتُ إليه وهو يقول: الربيع جميل يا بنيّ ولكن لأهل الربيع. أما نحن أهل الخريف فالربيع عندنا حسرة على ربيعنا الذي مات وعمرنا الذي فات. ثم تنهد وقال: سقياً لكِ أيتها الطبيعة العظيمة فإنك تتجددين في كل عام. أما نحن ففي كل عام تسيخ أرجلنا في القبر قدماً أو بضعة أقدام. كلّ شيء يفني ولا يبقى إلا وجه ربك ذي الجلال والإكرام.

فضربت صفحاً عن هذه الأفكار السوداء ولم أجارِ الشيخ فيها لعلمي أن من يدخل مع الشيوخ في موضوع كهذا الموضوع لا يبقى له من سبيل إلى الخروج منه. وعدتُ إلى موضوعي الذي كنتُ أحب كشف الستار عنه. فإنني سمعتُ من الشيخ في خاتمة كلامه في ما تقدم قولاً رفع الغطاء عن عينيّ وخيّل لي أنه الحلّ الوحيد للمسألة العظمى التي أعيى الناس حلّها من قديم الزمان. إلا أنه بقي في نفسي شيء من الريب في أمر القسمة التي قسمها. فالتفتُّ إليه وسألته: قلت يا عماه في خاتمة كلامك السابق ما نصه:

"إن النزاع في الأرض ليس بين أقوام يتنازعون على الرزق وعلى السيادة كما يقولون بل إن النزاع بين طبيعتين وإنسانيتين: واحدة سهلة قنوعة تكره الظلم وهي تتنازل عن هذا النزاع متى وجدته مخالفاً لطبيعتها وعادتها. وواحدة صعبة طامعة ظالمة تفرّ من العدالة بجعلها هذا النزاع ناموساً للهيئة الاجتماعية البشرية كما هو ناموس الهيئة الحيوانية. هذا يا أخا العرب في لغة العلم. ولكن فليبقَ كلامنا في لغة السذاجة. ولنبقَ من الفريق الأول. ولذلك أعود إلى قولي: طيبة القلب طيبة القلب يا أخاه أفضل من كل شيء".

فماذا تعني بقولك هذا؟ هل تعني به أن الله كما قال أحد الرسل "يخلق إناءً للإهانة وإناءً للكرامة"، وكيف تكون الإنسانية إنسانيتين ونحن نراها واحدة؟

فضحك الشيخ لسؤالي هذا وقال: اتركوا أيها البشر تلك الخصلة القبيحة التي تجعلكم تُدخلون الخالق سبحانه وتعالى في كل شيء. وأي عاقل يعتقد بأن الخالق يقضي على بعض البشر بالخير وعلى بعضهم بالشر. وما عدا هذا فمن يقول يا أخا العرب أن تلك القسمة التي ذكرتها هي قسمة بين خير وشر! كلا لا تجعل المسألة بسيطة إلى هذا الحد. فإن شؤون العالم وطبائعه مشتجرة مشتبكة أكثر مما تظن. ولكن مالي والكلام في هذا الشأن فإنني أخشى أن يبلغ بي إلى ما لا أرضاه ولا أعتقد به. فلنحصر كلامنا في بيان الشيء لا في ماهيته. إن الماهيّة يا بنيّ هاوية عميقة هائلة لا يطلّ عليها إنسان ليرى ما في عمقها إلا ويصيبه دوار هائل يفقده الرشد والحس. حتى رجال المواهب العظمى أنفسهم لا يقدرون أن ينظروا فيها زمناً طويلاً وإن كانت مواهبهم قد جُعلت عظيمة عميقة مثلها لتقدر على مواجهتها وتستطيع فهمها وتفهيمها للناس الذين يطلبونها. إذاً فلنترك ماهيّة تلك القسمة ولننظر في بيانها.

ويكفي لبيانها مثل صغير نقتبسه من الطلبة الذين مروا بنا الآن يحملون الأفعى المقتولة.

إن هذه الأفعى يا أخا العرب ذكّرتني بالموضوع الذي سألتني عنه قبل أن تلقي سؤالك عليّ. فقد كنتُ بالأمس أقرأ قصة صغيرة لمكسيم غوركي الكاتب الرومي المشهور بناها على "أفعى وطائر" واسمع لألخصها لك.

كانت الأفعى تزحف مسرورة على الأرض فوق الجبال وتقتات من حشائش الأرض وأقذارها. وأنها لكذلك وإذ سقط بعيداً عنها طائر مكسور الجنح برصاصة. فاختبط الطائر ثم قام يمشي مترضضاً منتوف الريش بجنح مهيض وقلب مريض. فأخذت الأفعى تتأمل في هذا الكائن العجيب وترقب حركاته وسكناته فوجدته يمشي كئيباً حزيناً والدم يسيل منه ونظره موجّه على الدوام نحو

السماء يتأمل في الجو دون أن يلفت رأسه إلى الأرض ليبحث فيها عن قوّته. فعجبت الأفعى من فعل الطائر وصيامه فالتفتت إليه وخاطبته بقولها: أنت أيها الكائن العجيب ما سبب حزنك وكآبتك؟ انظر ما أجمل هذه الأرض وهذه الجبال. هلمّ نزحف معاً على هذا التراب وهذه الوحول نطلب فيها قوتنا وهناءنا. لماذا تنظر دوماً إلى الفضاء حيث لا شيء... عجيب أمرك أيها التارك الحقيقة المتمسك بالخيال... ما لك لا تزال تنظر إلى فوق.. قلتُ لك هناك لا شيء لا شيء لا شيء... فدع النظر إلى فوق وانظر إلى التراب أمامك. هنا اللذة والمسرّة والسعادة.. هنا كل ما يسكّن النفس ويرضيها. أما هناك فليس غير الهواء.

قال الراوي: فلما سمع الطائر المكسور جنحه هذا الكلام ابتسم وكان هذا أول ابتسام له بعد انكسار جنحه ثم أجاب: أيها الأفعى الزاحفة على هذا التراب. إذا كان التراب وأكلك منه يسكّن ويرضي نفسك فهنيئاً لك ولنفسك. أما أنا فقد حاولت الرضى والاكتفاء به فلم ترضَ نفسي. ذلك إنني أيتها الأفعى الزاحفة على التراب ابن عالم غير عالمك. إنني ابن السماء، ابن الفضاء الواسع، ابن الشمس الساطعة، ابن الهواء الطلق النقي... إنك لم ترتفعي عن الأرض شبراً واحداً لتذوقي هذه النعم السماوية وتعرفي قدرها وتفهمي معناها. فأنا أعذرك وأتركك وشأنك فدعيني وشأني.

وهنا سمع الطائر هديراً بعيداً فالتفت إلى الجهة التي ورد منها الصوت ثم سار مسرعاً في تلك الجهة وهو يعرج. وكان سبب هذا الصوت نهر يجري مرغياً مزبداً وراء الجبل. فانتعشت روح الطائر لمنظر النهر وذلك لتذكره برودة الماء ورؤيته الخضرة والظل الوارف على ضفتيه... فودّع الأفعى وهبط نحو النهر وهو يغرد تغريداً شجياً لأنه وجد حتى في سجنه على التراب شيئاً يقوم لديه مقام جمال منزله الجوي الأول. وكان نشيده في هبوطه نحو النهر عبارة عن نداء مُنادٍ ينادي

في تلك الجهات الصخرية القاحلة الممتلئة حجارة وشوكاً داعياً الناس إلى النور والهواء والحرية التي بدونها لا تكون الأمم أمماً ولا الإنسان إنساناً.

قال الشيخ: هذا معنى قصة غوركي يا بني وإن أخطأتُ مبناها. فلما رأيت أفعى الطلبة ذكرت أفعى غوركي وما رمز بها. فإنك تعلم ولا شك أنه لم يقصد الأفعى والطائر إلا رمزاً إلى الإنسانية في الأرض وكونها بطبيعتين. فطبّق الآن هذا المثل على القسمة التي سألتني عنها.

ولما سكت الشيخ نظرتُ في عينيه وفي نفسي مسألة وفي شفتي ابتسامة ثم سألته: يا عم أخبرني ماذا وقع لطائر غوركي بعد ذلك. ألم يذكر غوركي شيئاً عنه؟ فقال الشيخ: إن الطائر انحدر يا أخا العرب في ماء النهر ليسبح فيه كباقي رفاقه الطيور. ولكنه لانكسار جنحه لم يقوَ على السباحة فغرق في الماء وذهب مع التيار وهو ينشد نشيد الحرية والنور والهواء. نعم إنه مات ولكنه مات بنفس حرّة كريمة بيضاء بينما الأفعى لا تزال تعيش بنفس سوداء في رأس الجبل في وكرها المظلم فوق ترابها القذر.

فهنا لم أتمالك أن ضحكت ضحكاً شديداً وقلت للشيخ: يا عم صفحاً عن جرأتي. إني أرى في جنبيك قلب فتى رطب الإهاب لا قلب شيخ هرم عرك الدهر وعركه الدهر. فلقد فهمت مغزى قصة غوركي. إنه يريد بها أن الناس رجلان: رجل "نفعيّ" ورجل "فكريّ"، فأفعاه الرجل الأول وطائره الرجل الثاني. وقد يخاطر الرجل الثاني بكل شيء مسوقاً إلى ذلك بفطرته وطبيعته فيصيبه ما أصاب الطائر. ولكن أين نحن من موضوعنا الأول يا عماه. إنني لم أسألك عن هذا ولكني سألتك تفسير قولك عن "الإنسانيتين بالنظر إلى مبدأ تنازع الرزق والسيادة في الأرض"، فكيف تطبق جوابك على سؤالي.

فأجاب الشيخ وقد ضحك لضحكي ضحكة أشدّ من ضحكتي: لقد فهمتُ سبب ضحكك يا أخا العرب. إنك ضحكت لأنك رأيتني مع شيخوختي أتحمس بعض التحمس لحياة طائر غوركي وموته ولكن لا تظن يا بني إنني تحمست للهواء... وقد أصبتَ في قولك أن بين جنبَي قلب فتىً لم يهرم. فقد خُلقتُ محباً لمبادئ النفس وقواها ونفسي تفضلها على مبادئ المادة وقواها. فماذا أفعل بجبلتي وما أنا جبلتها ولا أنا اخترتها. ولكن حبي شؤون النفس لا يمنعني من رؤية الحقيقة في مبادئ الذين يراعون مقتضيات المادة. والذين تغريهم طبيعتهم بعدم مراعاة هذه المقتضيات ستضطرهم "مدرسة العالم" إلى مراعاتها ولو بعد زمان. فأنا أفهم مقتضيات المادة وأراعيها ولكن من مبادئي أن لا أدعها تؤثر على اعتقادي بمبادئ النفس وقواها. وإذا تعارضت عندي مبادئ النفس وقواها ومبادئ المادة وقواها فلا أتردد عن إتباع مبادئ تلك قبل هذه. كذا كنتُ منذ كنت في العاشرة من عمري وأنا الآن على ما كنت عليه مع إنني أصبحت اليوم في السبعين. فإن كبر السنّ يا بنيّ قد يزيدنا معرفة بالأشياء والأشخاص في الأرض ويجعل نفسنا أكثر ميلاً للمعذرة والصفح ولكنه لا يبدّل طبيعتنا. فاقصر ضحكك واصغ جيداً إليّ. ليست المسألة بيني وبينك الآن مسألة هل يجب أن يعمل الإنسان بكل جهده ونشاطه في الأرض لمنفعته والتمتع بخيرات الدنيا وجرّ الفائدة لنفسه بكل الطرق المحلّلة فإن هذا أمر بديهي. ولكن المسألة هي "هل من حقنا أن نتعمد ضرر غيرنا حتى إهلاكه إذا قوينا عليه رغبةً في جرّ الفائدة لنا؟" هذه هي كل المسألة بين الطبيعتين والإنسانيتين اللتين سألتني عنهما. فأفعى غوركي تجيب "نعم من حقنا ذلك"، وطائره يجيب "لا ليس من حقنا ذلك". وهذا هو النزاع الأبدي بين الفريقين إلى أن تتلاشى الطبيعة القاسية الظالمة وتسود الطبيعة السهلة العادلة.

وإذا شئتَ زيادة بيان لهذا الموضوع فإليك مثلاً آخر في "أفعى أخرى" من كاتب آخر. وهذا الكاتب فرنسوي واسمه بول بورجه وهو من رجال الآكادمي

الفرنسوية. فقد وضع هذا الكاتب في هذا العام رواية عنوانها "الأفعى السوداء" بناها على موضوعنا هذا تقريباً. ومن ذلك يظهر لك أن هذه الأفكار التي تختلج بيني وبينك منذ مدة إنما هي تختلج أيضاً بين جميع بني الإنسان في جميع أقطار الأرض. والذي يضحكني أن بعض الناس يقولون: إن هذه المسائل هي مسائل فلسفية لا يفهمها الناس وما لنا والفلسفة! فاضحك اضحك يا بني من قول كهذا القول. إذ ما هي الفلسفة؟ هل يظنون أن الفلسفة عبارة عن بحث في الأمور الإلهية فقط؟ هل يظنون أن الفلسفة مباحث علمية أو دينية؟ كلا كلا يا بني. إن أصل الفلسفة معرفة نفسك ومعرفة ما لك وما عليك. أنظرتَ ذلك الولد الذي ضربه رفيقه فأخذ يفكر بعد الضربة في ما يفعله معه، هل يضربه أم يصفح عنه؟ إن هذا الولد يُسمّى حينئذٍ متفلسفاً. وهل رأيت الحمّال أو سائق المركبة لما تدفع إليه أجرة أقل من أجرته الحقيقية ويقول بعد الجدال والنزاع "ماعليش الله يعوّض"... إن هذا الرجل يسمى أيضاً في تلك الدقيقة متفلسفاً. وأعني بهذا أن جميع أفكار الناس وأفعالهم تنشأ عن احتكاك قوتين فيهم، والقوة الحاكمة بين هاتين القوتين المميزة بينهما لك أن تسميها كما تشاء: تعقلاً أو إدراكاً أو فلسفة. فالفلسفة إذاً فعل يومي دائم يصحبنا كل ساعة في كل عمل من أعمالنا الكبيرة والصغيرة دون استثناء. والعقل يحتاج إليه احتياج البدن إلى الغذاء.

فلنتم إذاً كلامنا يا بني ولا نخف من كلمة "فلسفة"، فأعود إلى المثل الثاني الذي يشرح المثل الأول. إن اسم "الأفعى السوداء" الذي سمى به بول بورجه كتابه الذي ذكرته لك مقتبس من حكاية شرقية قديمة خلاصتها على ما علق بالذهن أن أفعى سوداء عضت عنق أحد الرعاة وأخذت تمتص دمه بالتدريج والرجل حيّ. فبنى المؤلّف روايته على هذا الرمز ونسجها على مبدأين هذا محصلهما: المبدأ الأول، كان أحد العلماء العظام يشتغل باختراع خطير فأنفق عليه ثروته وتعبه دون أن يبلغ تمامه. وكان متزوجاً بامرأة تحبه وتحنو عليه. فلما كاد يعدل عن اختراعه

هذا لحاجته إلى المال جاءه صديقه واقترح عليه أن يقترن بفتاة جميلة ذات دوطة طائلة وبذلك يكمل اختراعه ويصبح ذا سعة. وقد سمى له الصديق تلك الابنة. فأجاب العالم: وماذا أفعل بزوجتي؟ فأجابه الصديق: الأمر بسيط، يجب أن تطلقها. فاستشاط العالم غيظاً وقال: "إنني أفضّل الموت والفقر على أن أخون شخصاً وضع ثقته فيّ"، يعني زوجته.

هذا هو أحد المبدأين اللذين بُنيت الرواية عليهما. وهو مبدأ الأيدياليست (الفكري) الذي يدوس فائدته لكي لا يخون غيره. فمسكين أنت أيها العالم المغرور الذي رفض الثروة والجمال والشباب والجاه حفظاً لعهده مع امرأة. إنك لو رأيت ما يفعله الناس بعهودهم وكيف يعاملون من يضعون ثقتهم فيهم لتعلمت حينئذٍ منهم ما هي قيمة العهد والثقة.

المبدأ الثاني الذي بُنيتْ عليه رواية "الأفعى السوداء" عكس المبدأ الأول. فقد قيل لأحد أشخاصها لماذا فعلتَ هذا الفعل مع معرفتك أنه فعل مضرّ قبيح فأجاب: "يجب على المرأ أن يترك الحياة إذا كان يريد أن لا يؤلم فيها أحداً ولا يضرّ أحداً"، وهو مبدأ الأوتيليتر (النفعيّ) كما سميته. فقابل يا أخا العرب بين المبدأين تتجلى لك الإنسانيتان وتستغني بعد هذا عن كل ايضاح.

وإن سألتني أين الأفعى السوداء هنا، فأجيبك أن الأفعى السوداء التي سمى المؤلّف كتابه باسمها إنما هو يعني بها مبادئ الأديان القديمة والآداب القديمة التي لا يزال أثرها في نفوس الناس في هذا العصر يمنعهم من العمل بالمبدأ الثاني في زحام هذه الحياة، وبذلك تكون سبب ضعف شديد لهم. فكأن المؤلف يريد بهذه التسمية وهذا الرمز الإشارة إلى أن في الإنسانية قسماً زالت من نفسه أثر مبادئ الأديان والآداب القديمة وانطلق في الحياة انطلاق وحشٍ ضارٍ لا نظام له ولا ناموس غير منفعته. وإذا كان له نظام فالمبدأ الثاني الذي ذكرته آنفاً.

وقسماً لا يزال في نفسه أثر لتلك المبادئ القديمة يقبض همته عن مجاراة القسم الأول فيكون منه بمثابة أفعى تمتصّ دمه شيئاً فشيئاً. وهذه أيضاً قسمة أخرى تشرح القسمة الأولى.

فما ترى الآن يا أخا العرب هل فهمتَ تفسير تلك القسمة أم تطلب أيضاً زيادة ايضاح؟

فهممت بأن أجيب الشيخ ولكني لم أكد أفتح شفتيّ حتى سمعتُ صراخاً عظيماً طبق الفضاء. فالتفتُ والشيخ فرأينا إرميا المجنون في وسط خمسين طالباً وهو ينشد ويرقص قادماً نحونا والطلبة حوله يصفقون له ويرددون نشيده.

وكان نشيد إرميا متقطعاً مضطرباً فلم أفهم منه غير الفقرات التالية:

صـــيغوا الأحـــلام بـــالكلام فمـــــا هـــــو إلا كـــــــلام
طبيعتـــــــان انســــــانيتان مـــــاذا يهمّنـــــي الاثنتـــــان
افعـــى ســـودا. افعـــى بيضـــا نـــورٌ ســـماء. طيـــرٌ هـــواء

يا ضحكي على الأوهام

اهجــــــمْ اصـــــدمْ اغلــــــبْ اســــلبْ احتــــلْ اغتـــــلْ

ذاك عندي كل النظام

إلـــى الإمـــام ولـــو فـــوق الجثـــث ولـــو فـــوق الجثـــث إلـــى الأمـــام

العدد 6، السنة 2، أيار 1905

مسائل اجتماعية

الرقص الافرنجي ونظامه

الرقص (عربياً كان أو افرنجياً) من العادات غير الحسنة التي لا نتمنى انتشارها في البلاد. على أنها آخذة في الانتشار أردنا ذلك أو لم نرده. وكثيرون من عقلاء أوروبا لا يستنكرون هذه العادة متى كان المقصود بها رياضة جسدية للسيدات[1] ولكن إذا كان المقصود بها ما يُقصد بها اليوم من التسلي (وأحياناً الخلاعة) فإن عقلاءهم يستنكرونها. قال أحد فلاسفتهم (وهو جول سيمون): من الأسف أن اختيار العروس أو العريس يكون في حفلات الرقص بعد دورة من البولكا أو الفالس. ونحن نقول إن ذلك من الأسف ألف مرة خصوصاً في بلادنا. لأن بعض المدموازلات حتى الأمهات – ويا للأسف – صرن يعتقدن أن الابنة لا تجد نصيبها إلا في حفلات كهذه الحفلات. وهذا خطأ ووهم سنعود إليه لإزالته من العقول في الأجزاء التالية.

أما الآن فإننا ننقل على سبيل الفكاهة نظام الرقص الافرنجي عن كتاب "آداب السلوك" لأن أكثر الشرقيين والشرقيات سمعوا بحفلات الرقص (المراقص أو الباللو) دون أن يحضروها وهذا ما رأينا من الفكاهة نقله.

---

[1] ذلك أن الرقص الافرنجي اكثره وثب وزحف شديد بالأقدام خلافاً للرقص العربي.

"رقاع الدعوة إلى هذه الحفلات تُكتب بإمضاء صاحبة الدار على ورق صقيل صغير الحجم. ويبيعون في مكاتبهم أوراقاً خصوصية لهذا الغرض موسومة بماء الذهب أو الفضة. ولا يستعملون لها ورقاً ملوناً وتوزع هذه الرقاع قبل اليوم المعين للحفلة بنحو أسبوعين على الأقل. وكثيراً ما يبعثونها قبل ذلك بشهر من الزمان. ولا يحدّدون فيها غالباً ساعة الاجتماع لاصطلاحهم أن تكون الحفلة عادةً بين الساعة العاشرة ونصف مساءً والساعة الثانية ونصف صباحاً على الحساب الافرنجي. ويجاوب عليها المدعوون قبل مضي ثلاثة أيام من استلامها ويكون الجواب برسم ربة البيت. وإذا كان المدعو لا يقدر على الحضور فيجب أن يبسط عذره وأسفه. وتجتهد صاحبة البيت في أن تجعل عدد المدعوين مساوياً لعدد المدعوات حتى لا يتكدّر البعض من عدم وجود شريك له ليرقص معه. وإذا كانت قاعة الرقص في الطبقة العليا من البيت وقفت صاحبة الدار على أعلى الدرج لاستقبال ضيوفها عند وفودهم. وإذا كانت في الطبقة السفلى استقبلتهم على باب القاعة. ويجب عليها أن تحيي كل فرد منهم بهزّ الأيدي سواء سبق لها معرفتهم أو لم يسبق. وتتوجه السيدات المتزوجات إلى هذه الحفلات مع أزواجهنّ أو إحدى معارفها المتقدمات في السن.

ويخصصون إحدى غرف المنزل في ليلة الرقص للسيدات لإعداد أنفسهن وراحتهن. فيكثرون فيها من المرايا والخادمات ليصلحن ثيابهن وشعرهنّ ويجعلون فيها ما يلزم لحفظ الشالات والكبابيت وغيرها مما يستغنون عنه داخل المنزل، ويضعون فيها بعض الأوقات دبابيس وخيوطاً وإبراً لرتق ما يتفق مزقه من الأثواب وقت الرقص. وقد يعدون غرفاً أخرى للرجال وكذلك يخصصون غرفة للمنعشات والمشروبات والمرطبات من القهوة والليمونادة والنبيذ والكعك والبسكويت والحلوى. ويدعون إليها الضيوف أولاً حال مجيئهم ثم يأتون إليها كلما طاب لهم. والموسرون منهم يعدون مائدة منظمة لعشاء المدعوين عند منتصف الليل. وفي غالب الأحيان

يوكلون بإعدادها رجلاً خارجاً عن هيئة المنزل يتولى أمرها حتى تتفرغ صاحبة الدار وخدامها لضيوفهم بغير أن يضطربوا بأمر الطعام والشراب.

وعندما يدخل الضيف منهم إلى قاعة الرقص يذهب إلى صاحبة المنزل ويقدم لها التحية والإكرام ثم يحيي من يعرفه من الحاضرين. وإذا أراد أحدهم أن يرقص مع سيدة غريبة عنه فعليه أن يطلب من أحد أعضاء البيت أو بعض أصدقائه أن يعرفه بها أولاً. وهم لا يدققون في الحفلات العائلية كتدقيقهم في الحفلات العمومية من هذا القبيل، بل مجرّد اجتماعهم تحت سقف صديق واحد يكفي لجعلهم يثقون بعضهم ببعض. ولا يعتبرون التعارف بقصد الرقص إلا وقتياً فيحق للسيدة بعد ارفضاض الحفلة أن تديم تلك المعرفة أو تفصم عروتها مع كل من تعرّف بها في أثناء الرقص. وهم يعدون فن الرقص من الضروريات التي يجب معرفتها على كل رجل منهم وامرأة، فيتعلمونه منذ نعومة أظفارهم وله عندهم مدارس مخصوصة. أما من لم يتعلمه جيداً فلا يليق به أن يرقص في حفلة حافلة إلا بعد أن يتقن هذا الفن على أصوله.

والعادة عندهم بعد الانتهاء من دور الرقص أن الرجل ينحني لمن كانت ترقص معه. ثم يتمشيان حول القاعة ويصحبها إلى مقعد لتستريح عليه أو يسير بها إلى غرفة المرطبات ويقدم لها ما تريده. وإذا كان الرقص في محل عمومي كانت المشروبات تباع بالثمن فلا يسوغ للرجال في أي حالة من الأحوال أن يسمحوا للسيدات بدفع شيء من النقود. ولا يحسن بالرجل أن يكرر الرقص مع سيدة واحدة مراراً ولو كانت خطيبته لئلا يجذب الأنظار إليه ويكون موضوع الانتقاد. ومن آداب الرقص عندهم أنه إذا وعدت سيدة رجلاً بأن ترقص معه ثم أخلفت الوعد عن غير قصد منها فرقصت مع غيره حملوا ذلك على محمل السهو ولا يُظهر الرجل ضجراً ولا كدراً لئلا يسوء بذلك مضيفيه ويكدر صفاء بقية الحضور. وإذا رأت صاحبة البيت أو

سيدة فيه وقت الرقص سيدة من المدعوات بلا شريك طلبت من الشخص الذي يرقص معها أن يعفيها عن الرقص ويأخذ تلك السيدة مكانها. ويشترط على كل مدعو أن يرقص ولو مرة مع إحدى بنات البيت أو سيدات العائلة. وفي أثناء الرقص لا يجوز له أن يتكلم إلا مع السيدة التي ترقص معه فإن ذلك يسيئها ويسيء شريك التي يكلمها أيضاً.

وينتبه الرجال جداً وقت الرقص إلى أثواب السيدات حتى لا يدوسوها بأرجلهم ولا يتلفوها بأيديهم. وليس من عادة المتزوجين بينهم أن يرقصوا مع زوجاتهم. ومتى تنحت سيدة عن الرقص فلا يليق بها أن تعود إليه إلا إذا صرّحت قبلاً أنها ستعود إليه بعد الاستراحة هنيهة. وإذا رفضت سيدة طلب رجل للرقص فلا يحسن به أن يعرض نفسه على غيرها حالاً على مسمع منها بل إذا كانت هي عازمة على الرقص مع شخص آخر فعليه أن يفتش عن غيرها في جهة أخرى من القاعة. وإذا اعتذرت إليه بأنها متعبة فلا يليق به أن يعدل عنها إلى غيرها بل ينبغي أن يبقى معها ريثما تستريح. ويقدّم لها ما تريده من المنعشات. ولا يجوز للسيدة أن تعطي المروحة أو الكفوف أو طاقة الأزهار لرجل ريثما ترقص إلا إذا كان هذا الشخص زوجها أو أخاها أو أحد أقاربها المقربين. ومن شروط الرقص عندهم أن الرجل لا يضع يده حول خصر السيدة حتى يشرع الجميع معاً في الرقص. وان يرفعها عنه حالما تبطل آلات الموسيقى العزف.

وكيفية إمساك السيدة وقت الرقص ليس بالأمر السهل فيجب أن يكون بخفة واحتراس من غير أن يدنيها منه بحيث تكون المسافة بينهما قدر قبضة يد. ويرقص الإفرنج غالباً أزواجاً كل رجل مع امرأة فيضع الرجل يده اليمنى حول خصر المرأة وتضع هي يسراها على كتفه وتمسك بيمينها يده اليسرى ويرفعانهما بميل إلى الأعلى. ويكون جسماهما متوازيين غير متلامسين. وإذا طلبت سيدة قبل الفراغ من الرقص أن

تجلس لتستريح فلا يليق بالرجل أن يحتم عليها الاستمرار بل يجب أن يأتي بها حالاً إلى مقعد ويعتذر إليها بأنه كان السبب في ازعاج خاطرها. ويجب عليها في مثل هذه الحال أن تلحّ عليه بتركها والرقص مع غيرها ولكن لا يحسن به أن يذعن لذلك. ومن الواجب على السيدات أيضاً أن يحذرن من أن يعدن شخصين بالرقص في آنٍ واحد إلا في الأحوال التي يتبادل فيها الفريقان في منتصف الرقص. وعليها أن تخبر كليهما بذلك حتى لا يقع بينهما حقد ولا بغضاء. ثم أن الرجال يميلون من طبعهم إلى اختيار الحسان للرقص معهن وتفضيل الحديثات منهن على سواهن فلذلك لا يجب التمادي فيه إذ الآداب تقضي عند وجود المتقدمات في السن أن يفضلوهن على غيرهن وإذا تعين على أحد الحضور أن ينضم إلى فريق من الموجودين فلا يليق به أن ينتقل من نفسه إلى فريق آخر فيسيء بتصرفه هذا إلى أعضاء الفريقين الأول، وإذا أراد أحدهم الانصراف من حفلة الرقص قبل ارفضاضها فيخرج منها سرّاً بغير أن يراه أحد من الجمهور حتى لا يكون سبباً في تشتيتهم قبل الوقت المعين لهم.

ويعلقون خارج قاعة الرقص إذا كان عمومياً جدولاً يذكرون فيه ترتيب أدوار الرقص. وإذا كان عائلياً وزّعت إحدى بنات البيت خريطة منه على الضيوف. ويكون عدد أدوار الرقص في الغالب واحداً وعشرين يجري اثنا عشر منها قبل منتصف الليل والباقي بعده. وكثيراً ما يكتب الرجل في كل دور في الخريطة اسم السيدة التي تكون قد وعدته بالرقص معه فيه. ويكتب كذلك اسمه على خريطتها بإزاء الدور نفسه منعاً من وقوع الخطأ والنسيان أو التكرار في المواعيد. والحرية المطلقة للمتزوجات في حفلات الرقص لا تطلق كلها لغير المتزوجات. فلا يليق بالصبية فيها أن ترفض الرقص مع رجل لمجرد رغبتها في الرقص مع غيره. بل إذا اعتذرت إليه وجب عليها أن تنحني عن الرقص تماماً حتى ينتهي الدور ويأتي غيره. ولا يجوز أن تختار من يرقص معها بل أن تنتظر حتى يجيئها الطالب".

ثم ذكر أنواع الرقص وهي البولكا والميزوركا والفالس والوقت المثلث والكدربل واللانسيه وغيرها...

العدد الثالث، حزيران 1903

من الصغائر تتولد الكبائر

إلى البنات والسيدات فقط

عزيزتي فريدة

أخذت كتابك وفيه هذا السؤال:

كانت صديقتك أسما واقفة معك في النافذة المطلة على الطريق. فرفعت يدها وصارت تلعب بشعرها وغرتها. وفي هذه البرهة دخلت صديقتكما هند فضحكتما من صنع أسما. فسألتها لماذا تضحكين؟ فازدادت ضحكاً. فغضبتما منها وتركتماها. ولكنكما بقيتما مدهوشتين من ضحكها بلا سبب. وقلتما في نفسكما إن الضحك بلا سبب من قلة الأدب. ثم سألتماني أن أبدي لكما رأيي في ذلك. فأجاوبكما الآن يا عزيزتي:

كلا أيتها العزيزة لم يكن ضحك هند من دون سبب. فإن هنالك سبباً عظيماً. فإنها لما دخلت عليكما ونظرت أسما تلعب بغرتها في النافذة ظنّت أنها تخاطب بذلك أحداً في نافذة أخرى. ولا ريب عندي أنكما هنا تصيحان وتغضبان إذ ذاك لا يخطر لابنة مهذبة في بال. ولكن يظهر لي أنكما يا عزيزتيّ تجهلان هذه العادات القبيحة. فطوبى لكما ولأدبكما. وأنني أفتخر بكما لو كنت أمكما أو أختكما. ولكن كفاني إنني صديقتكما. على أن هذه الصداقة توجب عليّ أن

أطلعكما على بعض أمور من هذا القبيل فتجتنبانها في المستقبل ولا تدعان لأحد سبيلاً لأن يضحك منكما.

في الفتاة يا عزيزتيّ ثلاثة أمور تُعرف بها مقاصدها وتُقرأ فيها عواطفها. الأمر الأول حركاتها. الأمر الثاني عيناها. الأمر الثالث تغيّر لونها حين سماعها ما يُلقى على مسامعها.

فالفتاة المهذبة العاقلة التي تكره أن تكون أضحوكة لدى الناس وخصوصاً الشبان تبذل جهدها دائماً لتكون مالكة قياد هذه الأمور الثلاثة. فلا تترك حركة تبدو منها ويمكن لناظرها أن يؤولها تأويلاً سيئاً. ولا تدع أحداً يقرأ في عينيها شيئاً مخالفاً للأصول ولا أن تجعل سبيلاً للتأثير على نفسها للكلام البارد الذي يُلقى على مسامعها. بل لتصام عنه كأنها لم تسمعه احتقاراً له ولقائله.

وغرضي هنا أن أذكر لك شيئاً من الحركات والإشارات الباردة التي يؤوّلها الشبان تأويلاً رديئاً بينما لا يكون لصاحبتها في أكثر الأحيان غرض معلوم.

فمن ذلك اللعب بالغرّة والشعر أمام الناس. اجتنبي يا عزيزتي هذا الأمر ما أمكنك وخصوصاً في النوافذ والمجتمعات الرسمية. لأن الشبان يظنون أن السيدة التي تلعب بغرتها وتنظر إليهم إنما تسلم عليهم. ولذلك يأخذون يفتلون شواربهم افتخاراً لردّ السلام أو يتلاعبون أيضاً بغررهم – إذ لبعض الشبان غرر كغرر النساء يا عزيزتي.

وقد قرأت في "مجلة السيدات" أن السيدة أو الفتاة إذا كانت في جمعية فيها رجال فلا يليق أن تهزّ الكرسي الهزاز إذا جلست عليه. وهذا أمر اذكريه دائماً يا عزيزتي.

ثم قد تكونين أحياناً جالسة في مجتمع فيه شبان فلا تظهري لبعضهم البشاشة دون بعض. بل عامليهم كلهم معاملة واحدة لئلا يحقد عليك بعضهم حسداً ممن حازوا رضاكِ. واذكري جيداً أيتها العزيزة أن مركزك صعب جداً بين أصحاب الشوارب في جمعية كهذه الجمعية. والفتاة التي تخرج من هذه الجمعية دون أن يذمها شاب منهم ولا أن يمدحها فوق ما يجب تكون أعقل الفتيات وأذكاهنّ وأفضلهنّ. ذلك أنه عليها في سلوكها معهم أن لا تبتعد كثيراً حتى يُعد ابتعادها خشونة ولا تقترب كثيراً حتى يعاب عليها الاقتراب. بل عليها أن تكون متوسطة في اللطف هادئة دائماً.

وعليها في جمعية كهذه الجمعية أن لا تأخذ ولداً أو طفلاً وتقبله أمام الحاضرين فإن هذا لا يليق لأن بعض الشبان يؤولونه تأويلاً رديئاً، واسمحي لي أن أقول لك لأنني كأختك أن كثيرين منهم يظنون أن الفتاة التي تقبّل الطفل إنما تفتكر بهم لا بالطفل حين تقبيله. وهذا من سوء التربية يا عزيزتي، وما الحيلة بسوء التربية.

تأملي أيتها العزيزة أنك إذا أخذت منديلاً وحركته في الهواء لطرد الذباب عنك فإنهم يقولون أن لذلك معنى أيضاً. وإذا تعبت من الضوضاء وانحباس الأنفاس ورائحة الدخان الكريهة وبدر منك تنهد أو تنفس غير اعتيادي فبالحال يؤولونه تأويلاً رديئاً.

أما التثاؤب والتمطي فهذا لا موجب لتنبيهك عليه لأن جميع أخواتنا لا يجهلن وجوب اجتنابه أمام الناس. وإذا حضر التثاؤب إحداهنّ رغماً عنها فإنها بكل هدوء تأخذ منديلها وتضعه على فيها فلا يفطن أحد إلى الذي صنعت.

وربما تسألين ماذا أعمل إذا أُهديت في أثناء المجتمع زهرة. فجوابي أن ذلك يتوقف على المهدي. فإذا كان المهدي سيدة مثلك فلك أن تستنشقي الزهرة وتعليقها في شعرك أو صدرك حتى فوق قلبك أيضاً. ولكن لا تنظري إلى أحد وأنت تستنشقينها فإن بعض أصحاب الشوارب يؤولون ذلك تأويلاً سيئاً. وأما إذا كان المهدي رجلاً ففيه رأيان. فإذا كان هذا الرجل جليل القدر متقدماً في السن تعتبرينه كأبيكِ لعقله وشرف أخلاقه فلا بأس أن تصنعي بزهرته كما صنعت بزهرة السيدة. ولكن إذا كان شاباً أو رجلاً خفيفاً وهو يهديك تلك الزهرة تزلّفاً إليك، فلكِ أن ترفضيها بلطف وإذا ألحّوا عليك بأخذها فخذيها وابقيها في يدك. وإذا كنت ممن يحلو لهنّ التهكّم والانتقام فإنك تهدينها بعد عشر دقائق إلى ولد صغير أو إلى عجوز جليلة. وإذا رأيت بعد ذلك أحداً قد سعى وحصل على هذه الزهرة وأخذ يشمها ويضعها على فيه وينظر إليك فليكن جوابك نظرة الاحتقار له عقاباً على سوء أدبه وقلة تربيته.

وقد بقيت هنالك أمور أخرى أيتها العزيزة ولكن شرحها يطول. فمنها إذا وقفتِ في بلكون أو نافذة فلا تنحني على البلكون أو على النافذة. ولا تحركي عضواً من أعضائك لئلا يُساء التأويل. والحق أقول لك أن الأفضل عندي عدم وقوفك في بلكون أو نافذة. وما الفائدة من ذلك يا عزيزتي غير قول الناس أنها تعرض نفسها للناس. وإذا قلتِ الهواء النقي فانزلي من منزلك واذهبي مع أمك أو عمتك إلى المنتزهات العمومية ماشية أو راكبة.

وهنا لا ريب إنني أسمع بعض أخواتنا المتفرنجات يقلن غاضبات متهكمات "ما هذه الوصايا الباردة. وما هذه القيود الحديدية. إن السيدة لا يجوز لها رفع يدها إلى شعرها لترتيبه. ولا تحريك منديلها لطرد الذباب عنها. ولا الجلوس في الكراسي الهزازة. ولا أن تلاعب طفلاً وتقبّله. ولا أن تتثاءب إذا حضرها التثاؤب.

ولا أن تهدي شيئاً أو تقبل شيئاً. ولا أن تقف في نافذة أو بلكون. ولا أن تحرك عضواً من أعضائها. فما هذه المعيشة. هل تريدون أن تكون صنماً جامداً يُنصب بين الناس. وما هذه العادات القديمة التي ذهب وقتها"؟

كلا أيتها العزيزات. ليست هذه العادات بقديمة ولا جديدة. إذ ليس في الآداب جديد ولا قديم. بل الآداب آداب دائماً أي أنها تبقى راسخة كالجبال لا تتغير بتغير العصور والقرون. وإذا كانت بعض العادات الجديدة قد صارت تُرينا آدابنا التي نفديها بدمائنا "شيئاً قديماً" يستحق الإهمال فذلك دليل على أن هذه العادات الجديدة مرض طرأ علينا أو إننا لم نفهمها حق فهمها. وعندي إن هذا أصح. فعلمي أخواتك وبناتك أيتها العزيزة أن لا ينسين الآداب القديمة. علميهن أن آداب آبائنا وأجدادنا تلك الآداب الساذجة التي هي نور الله على الأرض... هي الحقيقة التي يزول العالم ولا تزول، وفيها راحة الناس وسعادة الإنسان وجمال الحياة دون سواها.

وهنا أسمع أيضاً معترضات أخريات يقلن: "لماذا نثير سوء الظن إلى هذا الحدّ. أليس الأفضل إيجاد الثقة التامة بين الجنسين وبناء هذه الثقة على كرم الأخلاق ونقاء القلوب وصفاء الآداب. وإذا كنتم تقيدون النساء بكل هذه القيود فأعيدوا إليهن الحجاب أيضاً. وكيف تضعون هذه الأحمال كلها على ظهور النساء ولا تضعون شيئاً على ظهور الرجال"؟

وأسفاه أيتها السيدة إنك تتكلمين كملاك هبط من السماء، وأنت ملاك ولا شك لأن نفسك النقية الكريمة لا تفهم سبب هذه القيود ولا تطيق سوء الظن. ولكن فاعلمي يا سيدتي إن الأرض لا تسكنها الملائكة فقط بل فيها كثير من الأبالسة. إن سلوك بعض الشبان والرجال يحملنا على سوء الظن لأنهم أوجدوه. ولذلك يجب

علينا اتخاذ الطرق لوقاية أنفسنا منهم. وإلا ذهب صيتنا واسمنا – الذي هو أثمن شيء لدينا بل أثمن من حياتنا – ضحية حسن الظن.

أما قولك عن الحجاب فأؤكد لك إنني لو كنت أعلم أنه يمنع الأبالسة من التلاعب بالملائكة لقلت بوضعه. ولكن واأسفاه أن الحجاب رقيق لا يمنع ذلك. بل ربما كان باعثاً على زيادته بإضعاف قوة المقاومة في المرأة وجعلها ألعوبة في يد الرجل. أما سمعت مقال شاعر مشهور في مصر[1].

أما قولكِ عن وضع الأحمال الأدبية على ظهور النساء دون الرجال فهو خطأ لأنني أريد الآداب والفضائل للنساء والرجال معاً. وجميعهم متساوون لديها. ولكن الحق أقول لك لا بدّ للمرأة أن تكون أكمل من الرجل. فإنها أولاً أقدر منه على ذلك لبعدها عن جهاد الحياة. ثم أنها في هذا العالم مثال الرقة واللطف والحنو والرأفة والجمال والكمال فإذا تشوّه هذا المثال أقفرت الأرض من هذه الفضائل وصارت الإقامة فيها كريهة. إذ من يقوم مقامها حينئذٍ في الأرض وأي جمال يبقى فيها. وما عدا هذا فإن المرأة سرير النسل ومهد الإنسانية. ويجب أن يكون مهد الإنسانية مقدساً بالغاً حدّ الكمال. فالنساء يا عزيزتي يفتخرن بكون البشر يطلبون منهن كمالاً أرقى من كمال الرجال لأنهم بذلك يضعونهن فوق الرجال ويسوّدونهن عليهم. ومتى كان الرأس سليماً فلا بأس أن تتشوّه وتتحطم بعض الأعضاء لأن الضرر يكون حينئذٍ محصوراً فيها.

وهنا أسمع أيضاً اعتراضاً ثالثاً: "ماذا؟ هل تريدون إضعاف المرأة إلى هذا الحدّ وترضون لها أن تخجل من تحريك يدها وشعرها في جمعية. أهذه هي التربية التي تُحث المرأة عليها. وهل تكون النساء بتربية كهذه التربية غير مخلوقات

[1] شوقي بك شاعر الحضرة الخديوية.

ضعيفات لا يستطعن خطوة لوحدهن في العالم. فأين هذه التربية من تربية البنات للجهاد في الحياة وتحصيل الرزق حين الحاجة"؟

وأسفاه سيدتي. هنا معك شيء من الحق ومعي شيء من الحق. فلا تستطيعين أن تغلبينني ولا أستطيع أن أغلبك. لأنني أنا أتكلم هنا عن بنات المنازل، بنات العائلات. بنات المعيشة البيتية الهادئة اللطيفة التي هي المعيشة النسائية الحقيقية في العالم. وأما انتِ فتتكلمين عن بنات العمل، بنات الشغل، بنات طلب الرزق. وأنا أحترم الفريقين احتراماً متساوياً إذ لكل فريق منهما غرض شريف وضرورة أحياناً لا بدّ منها. ولكن إذا بحثتِ في أعماق قلبي وجدتِأنني أفضّل بنت البيت. أفضل البنفسجة المستترة بين الأعشاب يشمّ الناس رائحتها دون أن يروها. أفضّل الوردة الجميلة الغضة المستترة وراء أشواك المعيشة المنزلية ومتاعبها الشاقة تنشر رائحتها الطيبة على أهلها ومنزلها وتضحي نفسها في هذا السبيل الذي لا بدّ منه لعمار الكون وتلطيف العادات وإيجاد السعادة الحقيقية. أقول هذا مع علمي بأن رفيقتها الإبنة المجاهدة مساوية لها في الفضل بلا فرق قطعياً متى كان عليها أن تساعد بعملها أهلاً لها بحاجة إلى عملها ولم تقصر في واجباتها الأدبية.

هذا ما أجيبك به هذه المرة يا عزيزتي فاقرأي كتابي هذا مرتين أو ثلاثاً بإمعان وتروٍ وانتظري مني مرة أخرى كتاباً أهم من هذا الكتاب. ثم لا تنسي أن ترسلي إليّ رأيك فيه، ودمتِ سالمة لصديقتك.

"**كليمة**"

الجزء السادس، 1903

صدقت النساء المقربَطات

وأخطأتْ الضاحكات

تُطلق باللغة العامية كلمة "المقربَطات" في الشام على فريق من النساء مصابات بسرساب النظافة والغسل. فإذا قيل "امرأة مقربطة" حضرت في الذهن صورة امرأة لا همّ لها غير النظافة في البيت. فهي تحفّ بلاط الدار وأرض المنازل بالرمل وتغسلها بالصابون أكثر من مرة في الأسبوع. ولا تسمح لأحد أن يدوس فيها بحذائه وإذا اتفق وداس فيها زائر عزيز تستحي من تعنيفه وردعه انتظرته حتى يخرج من بيتها فتحمل الصابون وتأخذ بغسل آثار أقدامه في البلاط والبيت. وقد تبالغ أحياناً في هذا التنظيف فإذا زارتها إحدى رفيقاتها وسلمت عليها غسلت بعد ذلك فمها ويديها بالصابون وغسلت المكان الذي جلست فيه زائرتها. وإذا مسّ ثوبها في السوق ثوب شحاذ أو غيره هرعت إلى البيت وغسلت الجانب الممسوس بالصابون. وفضلاً عن ذلك فإن لها في المنزل غرفة خاصة بها وهي تكاد تكون حرماً على الجميع حتى على أولاد المنزل وخدمه ولا يدخلها أحد قبل أن يغير ملابسه ويُغسل بالماء والصابون. وذلك على طريقة براهمة الهنود غير أن هؤلاء يغسلون الذي يرومون تطهيره ببول البقر وبئس هذا التطهير.

أما رفيقات هذه المرأة فإنهن يضحكن منها ويستهزئن بها في خلواتهن. ورغبة في إظهار "خرفها" تقول إحداهن: إن زوجي يدخل لابساً حذاءه حتى سرير النوم. وتلك تقول: إن أخي لا ينزع حذاءه من قدميه طول النهار بل يروح به ويغدو على فرش البيت وأثاثه. وبعضهن لا يكتفين بهذا الانتقاد بل يعمدن إلى الممازحة والمداعبة. فقد سمع أن إحداهنّ بعثت من يرمي في السر في بلاط دار أولئك المقربَطات جرذاً ميتاً فلما أبصرت صاحبة الدار الجرذ على البلاط أغمي عليها في الحال.

فمن المصيب من هذين الفريقين، المقربطات أم الضاحكات؟

لا ريب في أن كثيرات من الضاحكات يستغربن جداً ما سنقوله في هذه النبذة. فإن العلم قد أثبت أن الحق في ذلك في جانب المقربطات وأن النساء مهما بالغن في اجتناب الأقذار ودفع ما يأتي من السوق والشوارع فإنهن يبقين مقصرات.

إن كل مريض من المرضى بالمدينة. كل مصاب بالسل والجذام والتتانوس والسرطان والطاعون (في أوقات الطاعون) والجدري (في أوقات الجدري) وغير ذلك من الأمراض – كل مصاب بها يمشي في السوق والشوارع ويعاشر الأصحاء ويبصق في الطرق. وهذا البصاق يجف مع تراب السوق ثم يتطاير معه عند أقل نسمة ريح فيقع على المارين ويلصق بأحذيتهم وأطراف بنطلونات الرجال وذيول فساطين النساء. فمتى عاد هؤلاء إلى المنازل عادوا وهم يحملون أقبح الهدايا معهم. فإذا "صوبنت" المرأة "المقربطة" آثار أقدام زائرها أو زائرتها فربما تكون قد أزالت بذلك من موقع القدم جراثيم عدة أمراض. وفضلاً عن ذلك أن الأطباء فحصوا المركبات العمومية في جميع الممالك ومركبات الترامواي ولاومنيبوس ومراقد السفن البخارية والقطارات فوجدوا فيها كلها جراثيم الحمى والسل والسرطان وغيرها. وقد بحث أطباء الجزائر من عهد قريب في النظافة في الكنائس والجوامع فيها فوجدوا في أرضها كثيراً من جراثيم الأدواء ولا سيما في الكنائس لأن النظافة في الجوامع الجزائرية كانت أشد من النظافة في كنائسها. وفحصت بعض الأيقونات فوجد عليها كثير من الميكروبات التي تنتقل إلى الإنسان عند تقبيله إياها. وقد يكون الإنسان مارّاً في طريقه فلا يشعر إلا والبسط والفرش تُنفض من النوافذ فوق رأسه. والله أعلم بما فيها من ميكروبات الأمراض التي تمتزج بالهواء ثم ترسب على الأرض وما فوقها من الحوانيت والمخازن. فلا شيء أقبح من هذه العادة عادة نفض الأشياء من نوافذ المنازل، كما أنه لا شيء أقبح من عادة

أصحاب الحوانيت والمخازن الذين يبسطون بضائعهم وفاكهتهم أمام حوانيتهم تحت تلك المنازل التي ترسل عليهم كل حين صواعق الميكروبات. وما كان أعظم فضل المجالس البلدية لو كانت تقضي بأن لا تُبسط تلك الأشياء إلا ضمن بيوت زجاجية. والأنكى من ذلك كله أنك تكون سائراً في شارع شريف باشا مثلاً مطمئن البال فلا تشعر إلا وأحد الساقة (العربجية) قد تناول من مركبته البساط الذي يوضع في المركبة تحت أقدام الركاب وأخذ ينفضه في عرض الشارع فينعقد منه غبار كثيف حامل أكثر أنواع الميكروبات القاتلة كما يحمل الغيم الكثيف الصواعق المهلكة. فهل يحوز لك بعد ذلك أن تلوم النساء المقربَطات على محاربتهن تلك الآفات بالماء والصابون.

ولكن بالأسف نقول إن منازل "المقربطات" نفسها قد تكون أعشاشاً لميكروبات الأمراض التي ترتع في الرطوبة ويلذّ لها التكاثر فيها، فالماء والصابون لا يُجديان إذاً نفعاً عظيماً ولا كل أنواع المطهرات لأن الجراثيم فاشية في كل مكان في السوق والشوارع والقهاوي والحانات والفنادق والتياترات والكنائس والجوامع والمركبات وفي كل الأماكن العمومية إذ لا سبيل إلى منع المرضى بالأمراض المختلفة من الذهاب إلى الأماكن التي تقدم ذكرها لأنها عمومية. ولا يبعد أن يأتي يوم تنشئ فيه الهيئة الاجتماعية مستشفيات مجانية إلزامية لعزل المرضى فيها ومعالجتهم بأحسن مما يعالجون به أنفسهم استئصالاً لجراثيم الأدواء التي يشتد فتكها في الناس ويعمهم بلاؤها. ولكن قبل أن تُنشأ هذه المستشفيات لا سبيل لحفظ الأجسام من تلك الجراثيم العامة الطامة إلا بطرق دفاعية. ورأس هذه الطرق الدفاعية: (1) حسن التغذية وهو أمر في غاية الأهمية (2) إطلاق الشمس والهواء في المنازل والخروج لاستنشاق الهواء التي في الخلاء ساعة أو ساعتين في النهار مع الرياضة الجسدية (3) عدم التعرض لمنهكات الأجسام ومضعفاتها كالسهر الطويل وعلى الخصوص إذا كان يخالطه اللعب بالورق والمسكر (4) النظافة

التامة وتخصيص غرفة لنفض الثياب فيها والامتناع من الدخول إلى غرف المنزل بالحذاء الذي تدوس به في كل مكان خارجاً.

فإذا حفظت هذه الوصايا حفظاً تاماً كنتَ أكثر مقدرة من "المقربَطات" على مقاومة جراثيم الأدواء بل كنت قادراً على اقتحام تلك الجراثيم ومخالطة المرضى دون أن تخشى شراً لأن جمسك يقوى بتلك المعيشة قوة تجعل الجراثيم عاجزة عن التأثير فيه. وهذا خير دواء عند الأطباء.

العدد 3، السنة 2، كانون الثاني 1905

وجوب تعلّم المرأة عملاً

[فصل من كتاب "المرأة في القرن العشرين" تأليف الفيلسوف جول سيمون وتعريب "صاحب الجامعة" في صباه بإذن من المؤلف قبل وفاته رحمه الله. ونوجه أنظار القارئات والقراء إلى هذا الفصل الجميل الذي جعله الفيلسوف الجليل خاتمة كتابه. وسننشر في هذه المجلة فصول هذا الكتاب المفيد تباعاً وإن كانت من آثار المعرب في صباه كما تقدم].

خذي لك زوجاً يا بنية ففي الزواج السعادة لأنه السبيل إلى الأمومة أما الحب فما هو إلا نشوة ذاهبة. أنتِ بحاجة إلى مدافع يحميكِ ويذود عنكِ. انظري إلى الرجال فإن الضعيف منهم قادر على سحقك بقبضته. كذلك أنتِ بحاجة إلى رئيس مدرّب يُحسن تدريبك بهذه الحياة لأن عقلك مهما كان سامياً فإنه يكون دائماً بحاجة إلى أمر لا بدّ منه. وهذا الأمر هو قوة الطبع. ولذلك فإنه يتحطم كلما استفرغت وسعك في أمر ويضعف بعد العناء. فيكون بحاجة لأن يجد في غيره القوة التي ليست له.

أنتِ كثيرة التخيل والتصور. لذلك تعتقدين بخلود الحب. إن خلود الحنو والوداد أمر ممكن أما خلود الحب فوهم لا يوجد إلا في مخيلة الشعراء والقصاصين. لأن الحب يذهب بذهاب سببه وهو الجمال. حتى أنت نفسك لا ترضي بأن تكوني محبوبة لجمالك فقط فإن هذا الأساس ضعيف واهٍ ولا يخلو من خطر على سعادة مستقبلك بل يجب أن تعتمدي في الزواج على امتزاج الأرواح واتحاد النفوس. فإن محاسن النفس أسمى وأشرف من محاسن الجسد دائماً. ومما يزيد شرفها أن الوقت لا يزيدها إلا نموّاً وازدياداً. وأنك ترين الجسد في كل الأمور آلة تخدم النفس فيكفي أن لا يكون الجسد كريهاً وأن يخضع للنفس وهي مع الوقت تزينه وتحسنه بختمها الجميل. فلا تفتكري يا بنية إلا بها ولا تنظري إلا إليها.

واحذري يا بنية الشبان وما يُبدون من الظواهر الكاذبة واحترسي لئلا تصادفين من يقول عنكِ في سرّه "هذه عشيقتي" بينما تقولين عنه أنت في سرك "هذا خطيبي وزوجي".

واحذري يا بنية أن تكترثي بالخطيب أكثر مما يجب فإنه ربما يكون شاباً رديء الأخلاق يبغي التلاعب بأقدس ما في هذا الوجود وهو شرف العذراء.

وكوني أيضاً على حذر من كل من يظهر لك الحب فإنه قد يكون مخادعاً لا يقصد غير قطع الوقت ويضحك منك غير عابئ بشرفك وصيتك.

وبينما أنت عذراء في زهرة العمر منهمكة بإعداد نفسك لواجبات الحياة لا تنسي أن الزواج – متى تزوجت – يخفف مصاعب الحياة دون أن يمنع حدوثها. ثم اذكري أن عليك بعد الزواج واجبين عظيمين: الأول إرضاء زوجك، والثاني تربية أولادك أحسن تربية.

هذه واجباتك الخصوصية، ولكن عليك أيضاً واجبات أخرى قد تصبح من أهم الواجبات التي يجب عليك القيام بها. إني أخاطبك بلهجة الأب الحنون. فعي قولي واصغي لنصائحي. يجب أن تتبصري في عواقب الأمور وتعملي لاستدراك مصاعب الحياة. وإذا كنت لا تعدّين نفسك إلا للتصدر في حفلات اللهو والزهو فإنك تلحقين بنفسك ضرراً كبيراً. وحينئذٍ فإنني أشفق عليك كثيراً. إنك لم تخلقي لتكوني صنماً يُنصب في القاعات فضلاً عن أن في وظيفة الصنم أمراً مملاً شائناً وهو الضجر وعدم الفائدة. واعلمي أنك ربة العائلة في الحقيقة وإن كان زوجك يُدعى صاحبها. ذلك لأن أعمالك فيها أكثر من أعماله وأشد صعوبة منها. وإذا صحّ هذا القول فأنتِ أسمى منه قدراً وأرفع شأناً لأن الفضل في العائلة كما في الدولة إنما يُقاس بمقدار الواجبات وأهميتها.

وأول شيء من واجباتك العظيمة التي لا يليق بك نسيانها هو الموت. نعم الموت الهائل الذي قد يضعضع أساس العائلة في بعض الأحيان. فإنه قد يختطفك من بين ذويك قبل أن تتمي ما يجب عليك من غرس أصول الأدب والشرف والفضيلة في أعماق نفوسهم. وهو فكر هائل يجعلك لا تهملين تربية أبنائك دقيقة واحدة إذ تخشين في كل عام أن تؤخذي منهم دون أن يكون لهم من يقوم مقامك بينهم.

وقد يكون الموت أقسى قلباً فيختطف من بين يديك زوجك الكاتب أو العامل أو البحار. فما أنت صانعة بعد هذا الخطب العظيم؟ قد قيل أن المرأة تلقى من الصعوبة في القيام بشؤونها الخصوصية فوق ما يلقاه الرجل في القيام بشؤون عائلة. وهو أمر حقيقي. فماذا تصنعين يوم تصبحين أرملة ويصبح على يديك الضعيفتين أولاد يُطلب منك القيام بأودهم؟

أنك لا تفتكرين بذلك يا بنية حينما يُعمي الحب بصرك أو يغلب عليكِ حبّ الانتقال من طبقتك إلى طبقة أعلى منها أو بالأحرى إلى ما تتوهمين أنه أعلى منها. فإن الحاضر يحجب حينئذ المستقبل عن عينيك فيظهر لك كل شيء خالداً حسناً. ألا فاعلمي أن كل شيء في هذه الحياة منقلب غير ثابت. بل إن الحياة نفسها غير ثابتة كما تعلمين. وإنما الثابت هو الواجب. فافتكري حين زواجك بأمرين: الأول هو موتك والثاني موت زوجك.

واعلمي أن الحياة إنما هي في الحقيقة واحدة لجميع المخلوقات البشرية وإن كانت مختلفة في الظاهر. وكل الناس سواء لدى الاحتياجات المادية والعقلية والأدبية لأنهم كلهم يفتقرون إليها ويحصّلونها بوسائط واحدة وهي النشاط وعلو الهمة. وقد يُلقي ما بين البشر من الاصطلاح والاتفاق ستاراً على تلك الحقيقة الباطنية الأزلية فيجلّلها وينكرها. ولكن فاعلمي أنه حينما يُفتح كتاب الأدب يبطل

ذلك التباين أو ينقص نقصاً عظيماً. فالملكة كالفقيرة مسؤولة عن أجسام أولادها وعن نفوسهم وعقولهم. وكلتاهما تكونان بالأعمال التي تعملانها عظيمتين أو حقيرتين. والمسيحية تعلمك أن هاتين المرأتين متساويتان لأنهما كلتاهما فُديتا بدم إله واحد. أما الزينونيون فإنهم يقولون قولاً أقل مجازاً وهو "أن العالم مرسح فسيح وكل واحد من الناس يمثل فيه الدور الذي خُصّ به، فالأمر المهم الطريقة التي يمثل بها الدور لا الدور نفسه".

فأنتِ يا ابنتي مع كونك ابنة عامل اعلمي أنك أمام الله – وإن جاز أن يُلفظ بعد اسمه اسمٌ آخر فأمام الحكماء – مساوية لملكة ذات عرش وسلطان. بل أنك أفضل من الملكة وأرفع شأناً إذا أظهرتِ في واجباتك من الشجاعة والفضيلة ما يفوق شجاعتها وفضيلتها. وبعد الموت لما تفرغان من واجباتكما في هذا الوجود وتتمان كلاكما الدور الذي خُصّ بكل واحدة منكما فإنكما لا تُعامَلان في العالم الثاني والحياة الثانية إلا بحسب أعمالكما الذاتية من خير وشر. على أن ذلك لا يمنع من أن تخضعي لها في هذه الحياة وتقومي بما أوجبته عليك لها المواثقات والاصطلاحات البشرية.

ولستُ أيتها العزيزة بذاهب كالزينونيين إلى أن اختيار الدور أمر ليس بذي شأن بل أقول إن أهميته بدون ريب أقل من أهمية الواجب. لأن الواجب أزلي تتوقف عليه المصالح الأزلية أما الدور فإنه حادث وقتي وسحابة تمر. أما الزينونيون فإنهم يزعمون بأن الألم الذي ينالك من تمثيل ذلك الدور هو ألم بالاسم فقط وأنه لا شيء في الحقيقة. وبذلك يفسرون إحدى مبالغاتهم بمبالغة مثلها. كمن يفسر الماء بعد الجهد بالماء. أما أنا فإنني أقول أن ذلك الألم شديد الوطأة وأنه يحق لك الشكوى منه وإن كان حادثاً وقتياً. ولكن الشكوى لا تُزيل البلوى. بل الأجدر بك أن تبذلي قصارى الجهد وتعملي بهدوء وسكوت لإصلاح شؤونك

وبلوغك أحسن حالة تستطيعين بلوغها. وإذا كنت عاجزة أو سقيمة، أي إذا كنت عاجزة عن تحصيل خبزك وخبز أولادك فذلك لا يمنع من أن تكوني أختاً ومساوية لي. ولكنك إذ ذاك تكونين أختاً شديدة التعاسة. ولا أعرف لك والحالة هذه من دواء عدا الإحسان الذي أنا مديون لك به سوى وضعك تحت حماية الله وكرمه. فالله وحده يعلم أسرارك وهو وحده قادر على تخفيف حملك وتقليل مصاعب حياتك.

ولكنك إذا كنت عاملة وكنت متمتعة بصحتك ومقترنة برجل نشيط فلا تحسبي نفسك يا بنية أنك تعيسة ساقطة، فإن الزعم بكون الحاجة إلى العمل أمراً دنيئاً زعم فاسد باطل. نعم يجوز لك الشكوى من عملك إذا كان شاقاً وطويلاً جداً ولكن العمل بحد ذاته، العمل المناسب لقوى العاملة وذوقها واستعدادها إنما هو نعمة وبركة من الله. افتكري يا بنية بالذي كان يصيبك لو حُكم عليك هذا الحكم الهائل وهو "عدم المقدرة على العمل". وليس هذا الحكم قاسياً وهائلاً لأنه يمنعك من الربح فقط بل لأنه يمنعك من العمل نفسه. فإن كوننا ذوي قوة وعجزنا عن انفاذ هذه القوة مصاب لا يُحتمل. وإنما تكون حينئذٍ تلك النفسية المرتبطة بذلك الجسم العاجز القاصر كحيٍّ مرتبط بميت. والعياذ بالله.

إن العمل هو التحصيل، هو انفاذ القوة والتمتع بها. وإذا قلنا "قوة" فإنما نعني بذلك استعداداً طبيعياً. فيجوز لك أن تعتبري جري الاستعداد الطبيعي في مجراه الطبيعي أمراً دنيئاً متعباً. إن البطالة في رأيي أكثر اتعاباً وأشقّ حملاً. ولو سُئل العقلاء: أياً تفضلون الإفراط في العمل أم البطالة الدائمة، لفضّلوا الأمر الأول على الأمر الثاني حفظاً لصحة أجسامهم وعقولهم وآدابهم. ولكنا لسنا الآن في مقام الغلو ولسنا نطيق الإفراط في أي أمر من الأمور. بل إني أرى أن كل إنسان يُضام من عمل فوق وسعه وطاقته يحق له أن يسعى لكشف الضيم عن نفسه وعلى الناس أن يساعدوه على ذلك. وإنما أتكلم ههنا عن العمل المناسب

لقوى العامل ومواهبه الطبيعية. فأقول إن هذا العمل منحة ونعمة من الله يجب علينا قبولها برضى وسرور، ومن يفرّ منها فإنه يفرّ من واجباته نفسها.

وكثيراً ما يكون الإنسان المتولي عملاً ما غير قادر على القيام به ولكنه قادر كل المقدرة على القيام بعمل آخر غيره. فيجب والحالة هذه فصله عن عمله الأول وتقليده العمل الثاني المنطبق على ذوقه وقواه. وكل الحكماء والفلاسفة يشتغلون الآن بحلّ هذه المسألة، أعني مسألة إعطاء كل إنسان الدور الذي يقدر عليه. وقد أبان فوريه هذه المسألة ببراعة فلم يتصدّ أحد لمعارضتها. ولكن من يتولج وظيفة رئاسة الممثلين؟ ومن يستطيع القيام بأعبائها كلها؟ وكيف يُجبرون الناس على الرضى بالأدوار الصغيرة؟ تلك هي المصاعب الثلاث التي لا تزال تعترضهم حتى الآن والتي يسكت عنها أكثر الاشتراكيين، غير أن سكوتهم عنها لا يُعدّ حلاً لها.

أما أنصار العدالة – الذين هم أيضاً أنصار الحرية ولكنهم يمتازون عن الاشتراكيين بهذا الخلق الأخير أي نصرة الحرية – فإنهم يشتغلون بتعميم التعليم بين الجميع على السواء وبتسهيل وسائل العمل لأفراد الأمة. وبهذه الواسطة تنشط القوى من عقالها وتنهض إلى المقام الحقيقي الذي خُلقت له. وهو عمل صحيح وسعي مفيد، ولكن هنا نقطة سوداء وما جئت يا بنية إلا لتوجيه نظرك إليها. وهذه النقطة هي الاعتقاد بكون بعض المهن والأعمال أفضل من البعض الآخر وذلك بمجرد طبيعتها لا بنسبتها إلى أميال صاحبها واستعداده الطبيعي. ومن أجل هذا الاعتقاد الفاسد أصبحت جميع الوسائل التي نتخذها لتسهيل سبل الارتقاء لذوي الاستعداد والمواهب آيلة لإكثار "الساقطين والساقطات" الذين هم الضربة الحقيقية وأصل كل الضربات التي تئن من وقرها الهيئة الاجتماعية.

فإنك يا بنية فتاة ذكية نبيهة قادرة على تحصيل خبزك بشرف في المعامل بواسطة عمل، ولكن صديقتك لا تميل إلى أعمال اليد بل إلى الأعمال الأدبية. ولذلك دخلت المدرسة وما مرّت عليها فيها بضع سنوات حتى نالت شهادتها وأصبحت معلمة بارعة. فمهما بذلتِ أنتِ من الجهد ومهما بذلك هي فلا هي تقدر على عملك ولا أنت تقدرين على عملها.

ولكن ماذا يحدث في بعض الأحيان؟ يحدث أن المعلمة سيدة تلبس قبعة ويسميها الناس سيدة. فهذا البرق الخلب يخطف أبصار بعض البسيطات فيقدمن على التعلم ليصرن "سيدات". فيصرفن أهم قسم من حياتهن في متاعب الدروس التي لا يستطعن البراعة فيها والتضلع منها ثم ينلن الشهادة بعد شق النفس. وحينئذ يعلمن أنهن خرجن عن الوظيفة التي خُلقن لها والعمل الذي هن مستعدات له فيندمن ولكن لات ساعة مندم.

وأنني مهما بالغت في القول لا أقدر أن أصف البون الشاسع الكائن بين عاملة مجتهدة قانعة بعيشها ومعلمة متضجرة غير راضية بعملها. وأنني أحسد الأولى وأغبطها وأما الثانية فلا أعبأ بها. فاحذري أيتها العزيزة ذلك الثوب الحريري الذي يسمونه حريرياً مع أنه مشوب بالقطن. واعلمي أن سيدة فاضلة لا تُلبس إحدى خادماتها ثوباً كهذا الثوب، بل إن الثوب الصوفي يكون أليق بك وبجمالك، لأنه لا أقبح من منظر الزينة الكاذبة.

لقد خطبتُ أحياناً في بعض فتيان خرجوا من المدرسة أو من المعامل لينخرطوا في سلك الجندية فكنت أقول لهم ما يلي: "إني اتمنى لكل واحد منكم يا أبنائي الأعزاء أن يقوم بالوظيفة التي هو أهل لها والتي يقدر على اتقانها. فأتمنى لمن كان منكم ذا معارف وعقل أن يكون قائداً. فإنه يكون حينئذٍ سعيداً مساوياً لزملائه القواد وصديقاً لرجاله الذين يثقون به كل الثقة ويمشون إلى النار مسرورين

تحت قيادته. أما الذي لا يفهم من نظام الجندية شيئاً والذي تكون معرفته محصورة في حمل جرابه وحشو بندقيته والمشي بلا تعب وقتاً طويلاً فهذا لا أتمنى له ولا وظيفة ضابط ثانٍ. لأن رجاله يقولون عنه في سرهم "هذا الضابط جاهل". نعم إنهم لا يقولون ذلك في وجهه بسبب النظام العسكري ولكنه يقرأه بسهولة في عيونهم وعلى جباههم. وقد يرتكب هفوات تذهب بحياته وحياة رجاله مع أنه لو كان ماهراً في وظيفته لسار بهم إلى النصر سيراً محققاً. فليطلب كل واحد منكم يا أبنائي المقام الذي هو أهل له".

وكنت أقول لهم أيضاً: "لا تمزجوا كلامي بالتعاليم الأرستوقراسية التي تقضي على الإنسان بأن يبقى في الطبقة السفلى إذا وُلد فيها وأن تنحصر مقامات الشرف والسيادة في طبقة الممتازين أصحاب الجاه والثروة، فإنني إنما أريد أن يحتل كل واحد المقام الذي هو أهل له من حيث الكفاءة الشخصية. هذا نائب أو عضو من أعضاء مجلس الشيوخ له ولد حمار بليد. ومن الممكن أن يعتني به أبوه وينفق على تعليمه النفقات الطائلة لينيله الشهادة العلمية. وبعد ذلك؟ لا شيء بعد ذلك. كان الإبن قبل نيل الشهادة حماراً أما الآن فإنه أصبح حماراً بشهادة وصار أدعى إلى الهزء والسخرية. فلو كان أبوه رجلاً حازماً أو لو كان الولد نفسه ذا ذوق وإحساس لتعلّم صناعة البناء لأنه كان لا يصلح إلا لها، ولو فعل ذلك وكان مجتهداً أديباً لاكتسب احترام جميع الناس وأصبح في الوطن عضواً نافعاً مكرماً".

أما أنت يا بنية فإنك تقدرين بدون شهادة وبدون فحص أن تندمجي في سلك "السيدات" ولا يكلفك ذلك إلا الاقتران بشخص من تلك الطبقة أي التزوج بـ"موسيو". ولكن هذا الأمر خطر عظيم تجتازينه وتحملين متاعبه. لأن هذه الطفرة من طبقة إلى أخرى لا تنجح إلا نادراً جداً. وبينما يكون الجميع يعجبون بك ويمدحونك وأنت بلباس العملة يصبح الجميع يهزأون بك ويذمونك وأنت بحلل

السيدات. هذا وأخبرك أن ألف واحدة من الطافرات لا تثبت منهنّ إلا واحدة فقط في محلها بعد هذا التغيير والانقلاب.

ولكن هل تعرفين يا بنية الأمر الذي هو أصعب من الصعود؟ هو النزول. وهذه المصيبة تصيب دائماً اللواتي تتطاول أعناقهن إلى العلى وحب الارتقاء فيهبطن هبوطاً سريعاً ويفرح الجميع يومئذٍ بهبوطهن لأنه القصاص العادل على طمعهن الذي تعدى حدّه.

وأني لا أنكر وجود بعض مصائب غير اعتيادية، ولكننا إذا تأملنا وأمعنّا النظر نرى أننا نجلب تلك المصائب بأنفسنا إلى انفسنا. مثال ذلك إننا نعتقد بأن قوة بنيتنا غير قابلة للضعف والمرض. ولكن المرض يأتينا في ذات يوم من حيث لا ندري. فنودع حينئذٍ العافية وصفاء العيش. "أواه لو عرفت ذلك لوقيتُ نفسي وداريت صحتي" ولكنك كنت تعرفه يا أحمق جد المعرفة فلا تتمحل لنفسك عذراً. إنك بحثت عن حتفك بظلفك وسعيت إلى شقائك على قدمك.

وما قيل عن الصحة يقال عن الثروة فإن أقل الأشياء يبددها تبديداً. وقد يوجد بعض مراكز وبيوتات مالية يقولون عنها إنها راسخة لا تتزعزع حال كوننا نرى في كل يوم على عدم ثباتها أدلة جديدة. على أن هذا الرسوخ الذي يعتني مؤسسو الحكومات الدستورية بدعمه وتأييده والذي يعتبرونه حاجزاً ضد هجمات الديموقراطية آخذ بالتضعضع شيئاً فشيئاً. حتى أن رئيس البلاد نفسه ليس بمأمن من السقوط حين يحتدم غضب الشعب ويثور ثائره، وقد يسقط البعض من علٍ فيهوون حتى إلى دركات الحضيض فيمنعهم حينئذٍ ذكرهم حياتهم الماضية من أن ينهجوا في معيشتهم منهجاً جديداً أو أن يأتوا عملاً ما. فافتكري بذلك يا بنية وتذكري أنه يجب عليك هنا واجبان عظيمان يُطلب منك القيام بهما بكل شرف وشجاعة: الأول قبل السقوط ومقتضاه النصيحة والإرشاد. والثاني بعد السقوط

ومقتضاه المعونة والإسعاف. وكثيرات من السيدات يقلن ويعتقدن أن قولهن فضيلة: "أنا لا أتداخل في السياسة"، ومن وراء ذلك يُشرن على أزواجهن بفعل الدنايا. ويقلن إلى ازواجهن: "أنت أسير عائلتك"! كلا ثم كلا. إنه بصفة كونه ابن البلاد أسير بلاده ثم بصفة كونه رجلاً أسير الشرف، أما العائلة فلا تأتي نوبتها إلا بعد. فتأهبي يا بنية لمعاركة الدهر ومحاربة الأيام وأعدّي نفسك فيه مضطرة إلى أن تقولي له: "إنك مديون لي بأمرين: الخبز اليومي وشرف اسم مشترك بيننا. فإن كان لا بدّ من ضياع أحدهما فأنا أفضل خسارة الأول وهو الحياة والتمسك بالشرف: فافعل أنت فعلي". فإذا كنتِ ترين نفسك لا تستطيعين النطق بمثل هذا الكلام الشريف وكنت توجسين من نفسك ضعفاً فأنصحك أن تجتنبي بقدر الإمكان الاقتران برجل يتعاطى الأعمال العمومية، وفي هذه الحال قابلي يا بنية ضعفك بمقدار طمعك.

وربما تقولين إن ثروتي مؤسسة على صخرة الأزلية لا تصل إليها الأغراض والمطامع البشرية، ثابتة وراسخة كمبادئ الملكية التي هي حصن الهيئة الاجتماعية. وليس من الضروري أن تُعدّ بالملايين لأن الرجل الغني هو الذي يتأتى له القيام بحاجاته قبل نفاد ايراده. فأنت هذا الرجل أو بالأحرى امرأة هذا الرجل. وثروتك مضمونة تكفلها كل قوات النظام الاجتماعي. فإذا فقدت زوجك بقيت لك وتبقى لأولادك إذا فقدوك. فمركزك إذاً مضمون أحسن ضمانة يمكن وجودها في هذا العالم. وقد يمكن أن تفقدي الراحة والهناء لأنهما غير منوطين بالمال ولكنك لن تفقدي قط ذلك المركز الراسخ لأنه بحرز عن مطامع البشر وأهوائهم.

ولكن يا للوهم والضلال؟ فإن الملكية العقارية نفسها ليست بمأمن من التغييرات والتقلبات. أما باقي أنواع الملكية فلا أسهل من زوالها. فالرجل يقود المرأة

والعائلة إلى هاوية الخراب والدمار ثم يعمد إلى الانتحار فراراً من العار. ولا يستلزم خرابه وإفلاسه أن يصاب بمصيبة أو تلمّ به نكبة فإن أساليب المعاطاة والأشغال المالية في هذا الزمان صارت تصعد في يوم واحد بفقير إلى قمم الثروة والغنى وتهبط في ساعة واحدة بصاحب الملايين إلى حضيض الفقر والحاجة. فإن زوجك قد يفتح رسالة فيجد فيها فجأة نبأ افلاسه وخرابه فينتحر ويقضي بين أمواج الأبهة والعظمة. فيأتي بعد موته رجال الحكومة فيفتشون منزله بكل دقة وهكذا تنهمر الديون انهمار السيل فتصابين في لحظة واحدة بالفقر المدقع بعد الغنى الواسع وبالضيق بعد السعة وبالشقاء بعد الرخاء. وتجدين نفسك في موقف حرج لأنك ربة عائلة وأم أطفال صغار يجب عليك تحصيل خبزهم والقيام بأودهم. فأين قوتك؟ وأي أمل يبقى لكِ؟

إن المتسولات فئتان: فئة تطرق المنازل والبيوت فتنتقل من باب إلى آخر وتتحمل الطرد والشتائم والخشونة بصبر، وهذه لا يُبعد أن يُقضى عليها في الشوارع والأسواق جوعاً وبرداً. وفئة تقصد الاستدانة أو تطلب الاستخدام براتب قليل في العيال أو في أحد المراكز الصغيرة، وهذه لا يعلم أحد كل العلم مقدار تعاستها ودناءتها لأنها محجوبة عن الأبصار. فإلى أية الفئتين تقصدين حينئذٍ الانضمام يا بنية؟

وأني لا أقدر يا بنية أن أغير الهيئة الاجتماعية كما أني لا أقدر على تغيير الإنسانية. فأنبهك منذ الآن لتكوني مستعدة للقيام بواجبات الحياة والشغل والعمل إذا اقتضت الحال. فاتخذي لك منذ الآن مهنة وتعلمي عملاً بالرغم عن كونك في سعة وغنى. عوّدي نفسك على الشغل وعلى خدمة نفسك وخدمة غيرك أيضاً وتعلمي جيداً دورك لتحسني غداً تمثيله لفائدتك وفائدة الذين يلوذون بك. واجتهدي على الأخص مهما كان مركزك باكتساب الصفات التي هي ضرورية لك

والتي تدوم وتبقى لك إذا اعترى مركزك التغيير واعتوره الانقلاب. ولا تخلطي يا بنية بين الواجبات وضروب الغنج فإن لكل شيء وقتاً. افتكري دائماً بالله والقي اتكالك عليه لأنك بدون مساعدته ترزحين تحت أثقال الحياة. لا تصغي إلى أصحاب "العقول القوية" الذين يظنون أنهم يصنعون خيراً باقتلاعهم الإيمان من الصدور خصوصاً من صدور التعساء الذين ليس لهم غير إيمانهم. علّمي أولادك أصول الإيمان والديانة، امنحيهم هذا السلاح القوي ضد مصائب الحياة وضد شهواتهم. انظري دائماً إلى نفوسهم وتفرغي لتربيتها وتقويتها وترقيتها. اوقفي حياتك لخدمتهم. تفاني في اتمام واجباتك نحو الله ونحوهم. تغذي وغذيهم مع اللبن بالحب وإنكار الذات إذ ليس من أمر قوي مثل الحب ولا أمر عظيم مثل إنكار الذات.

العدد 4، السنة 2، شباط 1905

حادثة غريبة بالاسكندرية

منذ مدة هبّت ريح الخماسين على مصر في يوم شديد أزهق النفوس فكانت الأرض ناراً والهواء ناراً والجو ناراً. وقد استمرّت هذه النار الحامية حتى الليل، فإن الريح التي كانت تهبّ فيه كانت كأن كل ذرة من ذراتها ملتهبة بحرّ الشمس مع أن الشمس كانت قد غابت منذ ساعات. ففي المساء بينما كان بعض السيدات جالسات في حديقة أمام منزل في محطة باكوس، لا نسميه، وإذ دخلت سيدة جميلة خفيفة الروح لا تتجاوز الثلاثين من العمر. وكان في وجه هذه السيدة علامة جمال بارع لو ذكرتها لعرفتها جميع السيدات في الإسكندرية لأنها مشهورة بها. فلما دخلت هذه السيدة تنفّس السيدات الصعداء وصاحت أقلهنّ جمالاً: "أف من هذا الحر لقد جئت بوقتك. تعالي وبردينا ببرادتك". وكان بعيداً من السيدات رجل يصغي إلى حديثهن ويتأمل في مركبات التراموای الصادرة والواردة أمامه، فلما سمع هذا القول عن السيدة الجميلة الداخلة هزّ رأسه وقال: "لو كانت كل السيدات الباردات على هذا الشكل وبهذه العذوبة والحلاوة لما كان بينهن واحدة إلا وهي جميلة معبودة".

ثم جلست السيدة القادمة بعد أن رفعت قبعتها. وكانت تلهث من التعب والحرّ. والعجيب أن جميع السيدات الحاضرات كنّ حينئذٍ يلبسن الكورسه إلا صاحبة البيت طبعاً كأنه لم يكفِ صدورهن اللطيفة ضغط الحرّ والثياب وريح الخماسين. ولما جلست السيدة القادمة التفتت إليها سيدة من الحاضرين وكانت أصغرهن سناً وأبرعهن جمالاً وقالت: "إن الحكاية التي ذكرتِها أمس لنا لم تجز علينا ولم تدخل في عقولنا. فهل لديكِ اليوم حكاية أخرى غريبة مثلها؟" فسألت سيدة أخرى: "وما هي هذه الحكاية فإن صاحبتنا مشهورة بالحكايات الغريبة". فأجابت السيدة: "قالت لنا أمس إن سيدة افرنجية كانت مارة بشارع شريف باشا

فصدمتها مركبة وداستها ومرّت عليها فهرع الناس وفي مقدمتهم الجاويش بعضهم للقبض على السائق وبعضهم لإغاثة السيدة التي ظنوا أنها قد قضت نحبها. أما السيدة فإنها نهضت من سقطتها بكل هدوء وهي تبتسم ومشت سليمة الأعضاء نحو الجاويش ترجوه أن يطلق سراح السائق إكراماً لها...". فضحكت جميع السيدات لهذا الكلام حتى الرجل الذي كان جالساً بعيداً عنهن.

فحينئذٍ قالت السيدة القادمة: "إنكن تزعمن أن تلك القصة غريبة لا تصدّق فما قولكن في القصة التي سمعتها الآن". فقالت إحداهن: "خير إن شاء الله. إذا كانت قصتك هذه أغرب من تلك فعلينا بها الآن في هذا الحرّ الشديد". فقالت السيدة: "لا لا أنا لا أمزح وإنما أتكلم بجدّ. وإن فرائصي لا تزال ترتعد من هذه القصة الغريبة. فقد كنتُ منذ حين عند صديقتنا فلانة وإذ دخلت علينا سيدة مشهورة بطول اللسان.

"فبعد دخول هذه السيدة سكتت السيدات الحاضرات، فقالت صاحبة المنزل: "جميعكن تخشين شرّ السيدة فلانة لماذا تسكتن حين حضورها؟" فأجابت فلانة: "إذا كنت مثقلة عليكن فإنني أذهب في الحال". فقالت إحدى السيدات وكانت أكثرهن تهكماً: "بالعكس أيتها السيدة اللطيفة صاحبة الذوق اللطيف. فإننا شُغلنا عن الكلام بالتأمل في لطف منظرك وملابسك فهنيئاً لزوجك على هذا الجمال الرائع". فقالت فلانة: "أشكرك أيتها السيدة. وأنتِ أيضاً هنيئاً لزوجك على هذا اللسان الذي هو كالسنان". فاحمرّت السيدة التي هاجمت وابتسمت السيدة التي دافعت عن نفسها هذا الدفاع المؤلم.

"وكان في الجلسة سيدة لطيفة حقيقةً، فأرادت صبّ شيء من الماء على هذه النار فبدأت الحديث بقولها: "هل سمعتم بالفتاة الإيطالية المسكينة التي انتحرت مساء أمس في الإسكندرية؟" فقال إحدى السيدات: "يا خسارة المسكينة وما

سبب انتحارها وكيف انتحرت". فقالت السيدة: "سبب انتحارها (مسألة عواطف)... وبعبارة أخرى أقول امتناع أهلها من تزويجها بشاب تريده". فقالت إحدى السيدات: "سلّم الله هذا الفم أيتها السيدة فإنه يعبّر عن أدق الأمور بأرق العبارات ولو كان المتكلم سيدة ورجلاً من الذين أعرفهم فإنه كان في الحال يقول: إن المسألة مسألة عشق". فضحكت السيدة التي مُدحت لوجود مَن فهم عواطفها، ثم سألت سيدة أخرى: "وبماذا انتحرت الفتاة المسكينة". فقالت السيدة: "انتحرت بجرعها شيئاً من حامض الفنيك فقضي عليها لوقتها".

فحينئذٍ إلتفتت السيدة التي دخلت علينا وقالت: "على ذكر هذه الحادثة اسمعوا لأقصّ حادثة مدهشة". فأصغى جميع الحاضرات إلى تلك السيدة لأنها تتكلم جيداً وحوادثها غريبة على الدوام كما تقدم. فقالت: "إن لصديقتي مدام فلان صديقة كثيرة الغندرة والظرف ولكنها كثيرة النزق والصراخ ولذلك لا تقيم الخادمات طويلاً في منزلها. ففي ذات يوم وهي في أشد حاجة إلى خادمة طُرق باب منزلها الكائن في محطة كذا في الرمل ودخلت امرأة حيية لطيفة تطلب الاستخدام. قالت صديقة صديقتي. وكانت المرأة في نحو الواحدة والعشرين وهي سمراء جميلة لطيفة العينين كلما وقع نظرها على نظري ينكسر نظرها وتكاد تذوب خجلاً. فمالت نفسي لهذه الخادمة وجعلتها وحدها تتولى أمر ملابسي وترتيب غرفة الحمام، وكلما خرجتُ من الحمام كانت تدلك جسمي في السرير دلكاً تركياً يريح أعضائي. وبعد مرور عشرة أيام على دخولها إلى منزلي قُرع باب البيت قرعاً شديداً ففتحنا فوجدنا رجال البوليس يطلبون الدخول للتفتيش على شقي فار من أوروبا. فضحكت وأجبتهم أنه لم يدخل أحد منزلي، فأجاب رئيس البوليس بل إن رجالي السريين تحققوا أن الشقي قد دخل هذا المنزل فدعينا أيتها السيدة نفتش عنه فيه وإلا خيف على البيت وسكانه من شقي مشهور كهذا الشقي. فتركتهم يدخلون ويفتشون وعرضت عليهم جميع خدمي فلم يعرفوا أحداً بينهم، فسألوني ألم يبقَ أحد في

المنزل فأجبتهم لم يبقَ أحد غير خادماتي ثم ناديت الخادمات فدخلن. فما وقع نظر رئيس البوليس على الخادمة الجديدة التي كانت تدلك جسمي بعد الحمام حتى انقضّ عليها وقال: هذا هو الشقي فإنه متستر بزيّ امرأة.

"فتأملي في مبلغ الدهشة التي عرتني من هذا الكلام. وهكذا كان. فإن الخادمة المذكورة كانت شاباً متستراً كان يراني أخرج في مركبتي من البيت فأحبّ خدمتي. والغريب أن هذا الشقي المشهور بالقسوة والجمود والشر كان يحمّر خجلاً ويضطرب ضعفاً كلما وقع نظري عليه. فعلى أي محمل يُحمل هذا الأمر الغريب؟"

ولكن السيدة لم تأتِ على هذا الكلام حتى ضحك جميع الحاضرات ضحكة شديدة، وقالت إحداهن: "هذه (خرطة) من خرطاتك. فإن هذه الحادثة نشرتها الجرائد المصرية عن سيدة افرنجية في العاصمة وقع لها هذا الأمر المدهش منذ شهرين". فالتفت هنا الرجل الذي كان جالساً إلى بعيد وقال: "هل الجرائد المصرية روت هذه الحادثة؟" فقالت إحدى السيدات: "نعم وأنا قرأتها فيها". فضحك الرجل وأجاب: "ولكن الحقيقة أن هذه الحادثة قصة قديمة ألّفها مونبان الكاتب الفرنسوي المشهور ونشرتها إحدى المجلات الفرنسوية المصرية منذ مدة. فيظهر أن الجرائد استحسنتها فألبستها لباس الحادثة الواقعية تفكهة لقرائها".

ثم دار الكلام على تأثير اللطف النسائي في إلانة القلوب الجامدة وإصلاح الطباع. وكان الرجل يتحمس وهو يتكلم في هذا الموضوع والنساء يبتسمن مسرورات بهذا الثناء. والغواني كما قال شوقي بك "يغرّهنّ الثناء".

العدد 5، السنة 2، آذار 1905

الزواج والحب

صدى مسألة اجتماعية في غاية الأهمية

بقلم صاحب الجامعة

لم تبقَ جريدة ولا مجلة من جرائد أوروبا وأميركا ومجلاتها لم تبحث في اقتراح اقترحه المسيو بول هرفيو الفرنسوي بشأن الحب والزواج. وهذا تفصيل الخبر لأنه من الأهمية بمكان ولعلاقته بمسألة من أهم المسائل الاجتماعية.

ألفت الحكومة الفرنسوية لجنة لإصلاح القانون المدني. والمقصود من هذا الإصلاح جعله أكثر مطابقة للحالة الاجتماعية اليوم، أعني إدخال ما يجب إدخاله إليه مما تقتضيه التغييرات الاجتماعية التي وقعت بعد وضعه. وقد تألفت اللجنة المذكورة من رجال تختلف معارفهم وأفكارهم كاختلاف عناصر الهيئة الاجتماعية. وكان في جملة هؤلاء الرجال المسيو بول هرفيو مؤلف الروايات الشهير وأحد الأعضاء في الآكادمي الفرنسوية. ولما كان المسيو هرفيو مؤلف روايات، أي دارساً لأحوال الوسط الذي يعيش فيه والناس الذين يعيش معهم، خطر له أن يقترح اقتراحاً يمسّ جرحاً من أدمى الجروح في بدن الهيئة الاجتماعية ونريد به الحب والزواج. فاقترح الاقتراح التالي: قال إن القانون المدني يوجب على الزوجين العناية أحدهما بالآخر والأمانة له. فيجب أن يُضاف إلى ذلك كلمة "والحب" لأن الحب أساس الزواج وسببه الأصلي فهو أول ما يجب على الزوج لزوجه ولذلك يجب أن يكون الشرط الأول في القانون.

فهذا الاقتراح الصغير (أي إضافة كلمة "والحب" إلى واجبات الزوجين)، أثار في جرائد أوروبا ثلاثة آراء: الرأي الأول التهكم والاستهزاء. كتب أحد الكتاب الفرنسويين الظرفاء في جريدة "الفيغارو" يقول: "فليستعد بعد اليوم الأزواج

الفرنسويون لأمور مسلية. فإن أحدهم قد يكون في بيته ساكناً إلى زوجته معتقداً برضاها عنه مسروراً بسرورها منه وإذ يدخل عليه مأمور من قِبل الحكومة فيجري بينهما الحديث اللطيف التالي. يقول المأمور: لقد بلغني يا حضرة المسيو أمر اضطراب شديد في منزلك. فيدهش الزوج ويقول: وما شأنك في المداخلة في ما لا يعنيك. فيجيب المأمور: ألا فاعلم يا مسيو إني مأمور الحكومة وقد أبلغتنا زوجتك المصونة أنك لا تحبها حباً كافياً وأنها تشكو من كيت وكيت وأنها وأنها. فهذا إنذار أول أدفعه إليك يا مسيو حتى إذا لم تحبها بعده الحب الذي تراه هي كافياً ومقنعاً كان لك معنا شأن آخر".

والمقصود بهذا التهكم إظهار شناعة هذه المداخلة من الهيئة القضائية في أحوال الناس وشؤونهم البيتية مما يكون سبباً في زيادة شقائهم لا زيادة راحتهم وعنائهم كما يريد صاحب الاقتراح.

والرأي الثاني الذي أثاره هذا الاقتراح رأي أنصار الزواج المدني. فإنهم أيّدوا اقتراح المسيو هرفيو بكل قواهم. وكان أرفعهم صوتاً المسيو مانيو قاضي محكمة شاتوتييرني المشهور في فرنسا بإسم "القاضي الصالح"[1]وقد كتب في هذا الموضوع مقالة رنانة في جريدة "الجورنال" قال فيها ما خلاصته:

لما كان الزواج عبارة عن رابطة دينية لا تقبل الانفصام كانت طبيعته تختلف عن طبيعته اليوم، وقد أصبح عملاً مدنياً قابلاً للإلغاء الذي هو الطلاق.[2] فالزواج اليوم إنما هو شركة تُعقد بين الرجل والمرأة وأساسها الحب المتبادل والمصلحة المشتركة. فإذا بطل الحب وزالت المصلحة بطل السبب الأصلي في الزواج واندكت دعامته الكبرى. وصار الزواج عبارة عن نير يضعه الرجل على

[1] لهذه التسمية سبب يطول شرحه هنا.

[2] لأن الطلاق موجود في الزواج المدني خلافاً للزواج الديني.

عنق المرأة لمصلحته وحده. أي صار عبارة عن استعباد. وإن اقتراح إدخال كلمة "الحب" إلى القانون اقتراح جميل ولكنه مبهم وصعب تعيينه. فإن روح الحب الحقيقي بين الزوجين لا يدخل في القانون إلا متى قررت الهيئة الاجتماعية "الزواج المطلق"[3] وعيّنت قضاة لتسجيل عقود هذا الزواج تنظيماً لأحوال الإرث والنسل. ومتى صار الزواج مطلقاً، أي متى صار الرجل لا يتزوج إلا بالمرأة التي يحبها والمرأة لا تتزوج إلا بالرجل الذي تحبه، حتى إذا فرغ الحب بينهما وأرادا فسخ الزواج كفى لفسخه طلب أحدهما فقط... فحينئذٍ يمكن أن يُقال إن الحب هو أساس الزواج. إذ كم من أزواج متزوجين اليوم زوجات لا يحبونهم وبالعكس. وهذه هي الواسطة الوحيدة لإبطال الشر والفساد.

والرأي الثالث الذي أثاره ذلك الاقتراح رأي القائلين بالزواج الديني والذين يعتبرون الطلاق والزواج المدني عبارة عن نقضٍ لأساس الهيئة الاجتماعية أعني العائلة. وليس يتسع المجال هنا لبسط براهينهم فضلاً عن كونها مشهورة، فأكتفي بذكر مشاهدة صغيرة بشأن الموضوع الذي نحن الآن في صدده. فقد كنت أمس قبل كتابة هذا الفصل راكباً الترمواي إلى الرمل في نحو الساعة التاسعة مساءً وإذ دخلت مركبة الترمواي سيدة إيطالية وراءها زوجها وخمسة أولاد أكبرهم في نحو الرابعة عشرة وأصغرهم ابن هذا العام وكان بين يديها. وكان بين الأولاد ولد يبكي ويمسح دموعه، وفي أثناء البكاء يمد صوته كأنه ينشد لا يبكي. وكان أخوته يضحكون من فعله والأم تنظر إليه نظرات تسكّنه بها والأب يقرع يده على رأس الولد وخدّه تطييباً لخاطره. وكانت السيدة لا جميلة ولا قبيحة بل كانت أقرب إلى الجمال منها إلى قبح الوجه وكانت هيئتها جدية. نعم إن عينيها الزرقاوين كانتا تغازلان خيوط النور الكهربائي المنبعث من أنوار المركبات وتغزلان غزلها دلالة

[3] قال المسيو مانيو لا تخلط بين "الزواج المطلق" و"الاتفاق المطلق".

على أن ربيع الشباب لا يزال في نفسها ولكنها كما قلتُ كانت امرأة جدية. وأؤكد لك أنها كانت أهلاً لأن تضمّ بين ذراعيها طفلاً طاهراً كذلك الطفل وأن تُلقّب ذلك اللقب السامي الجميل أعني "أمّاً". أما الزوج فلم يكن واأسفاه جميلاً ولا لطيفاً بل كان في منظره ونظره شيء من الخشونة تدل عليها عصا غليظة من الأبنوس يتوكأ عليها. ولكن هذه الخشونة في منظره وفي عصاه كانت تدل على قوته. أي أنها كانت ترمز إلى أن هنا أساس تلك العائلة الصغيرة وقوّتها لدى زوابع الحياة. فلا شك عندي بعد ما لاحظته أن المرأة لم تكن تحب زوجها الحب الذي يريده المسيو هرفيو صاحب الاقتراح. إن قليلين من الأزواج والزوجات يا سيدي الروائي يقدرون أن يوحوا إلى زوجاتهم وأزواجهم الحب الحقيقي. فإن هذا واأسفاه غذاء سماوي لا يُنال بإرادة الإنسان. ولكن هل عدم حب تلك المرأة اللطيفة لذلك الرجل الخشن عذر كافٍ لأن تتخلص منه وتلقي نفسها بين يدي رجل أظرف وألطف منه. والأولاد يا سيدي الروائي ماذا نفعل بهم؟ إنهم كانوا خمسة. ولله ما كان أجملهم وألطفهم. وأخبرني أين توجد الأم الوحشية التي يطاوعها قلبها على أن ترضى بالطلاق من زوجها مع وجود عدة أولاد لها منه رغبةً في سواد عين شاب طائش أجمل من زوجها الأول لأذهب وأغرس هذه الريشة التي أكتب بها في ذلك القلب. كلا يا سيدي الروائي، أن المرأة التي تستحق أن تسمى "سيدة" تستغني بما تجده في جمال أولادها وشبابهم وحبهم عن كل جمال وشباب وحب يكون ناقصاً في زوجها. إن الحب شيء جميل ولكنه هوائي. أما الأولاد فهم شيء جدّي لأنهم أساس العائلة والهيئة الاجتماعية.

تلك أهم آراء الباحثين في هذا الموضوع من جهاته الثلاث بسطناها على سبيل التفكهة والاطلاع. وإذا نظرنا إلى حالة الزواج في الشرق بإزاء الزواج في الغرب وجدنا أن فاعلاً واحداً يفعل في الهيئتين الاجتماعيتين فعلاً واحداً وإن اختلفت الطرق. ففي الغرب يسعى اليوم فريق من رجاله لتوسيع نطاق الزواج

بإدخال "الحب إلى الزواج". ومعنى هذا بعبارة أصرح إعطاء المرأة حق فسخ الزواج بمجرد طلبها وإعطاء الرجل هذا الحق بمجرد طلبه. وهذا أول تمهيد لـ"الزواج المطلق" الذي أشار إليه القاضي مانيو كما تقدم. ومن جهة أخرى نرى بعض أفاضل المصلحين المسلمين في مصر يدعون في تقريرات رسمية وغير رسمية إلى إعطاء المرأة المسلمة حق الطلاق كالرجل بقيود وشروط وذلك إضعافاً للسلطة التي للرجل على المرأة فيما يختص بحقه في الطلاق وحده. ولا مشاحة في أن كلا الأمرين في (الشرق كما في الغرب) مما يزيد "العائلة" ضعفاً على ضعف. ولكن دعاة هذا المذهب ينظرون إلى "العائلة" وإلى أخلاق وعادات الهيئة الاجتماعية (في المستقبل) نظراً يختلف عن نظر الهيئة الاجتماعية الحاضرة. فهناك إذاً طريقان هائلان مجهولان في مفترقهما "الطلاق" و"تحريم الطلاق"، والإنسانية لا تزال حيرى بين هذين الطريقين تتنازع فيهما نزاعاً دائماً. والمستقبل في علم الله وحده.

العدد 5، السنة 2، آذار 1905

أخبار نساء الغرب

رواية غريبة لمسز كلارنس ماكي

إحدى كبيرات سيدات نيويورك

كاتبة وصاحبة ملايين

السيدة هي مسز كلارنس ماكي صاحب الملايين المشهور وابن المستر جون ماكي المشهور بمدّ الأسلاك البرقية الترنستلانتيكية. عمرها 24 سنة وهي في منتهى الظرف والجمال تسكن قصرها الجميل في لون آيلن على مسافة ساعة من نيويورك. وهو من أعظم وأشهر قصور نيويورك أهداه إليها حموها المستر جون ماكي بطريقة غريبة. فإنه لما كان يبني هذا القصر كان يسأل خطيبة ابنه المس كلارنس أن ترشده بسلامة ذوقها إلى بنائه، فكانت الفتاة تذكر له ما تحب أن يكون في القصر من غرف وقاعات ملوكية وأثاث لا مثيل له وحرش يحيط به. فبنى المستر ماكي القصر كما رسمت له، ولما تم أخبرها أنه بناه بحسب ذوقها ليجعله هدية إليها. ولها الآن بجمالها الفتان ومركزها العظيم وثروتها الطائلة وذكائها النادر المثال مقام من أعظم مقامات سيدات نيويورك.

روايتها

إن هذه السيدة التي تلعب بالملايين لعباً لا سعادة لها ولا هناءإلا في صناعة الكتابة. قالت يوماً لأحد زائريها من الأوروبيين وهي تريه كوخاً صغيراً في أطراف الحرش المحيط بقصرها: إنني لا أشعر بأنني سعيدة هنيئة البال إلا حين أجلس في هذا الكوخ للكتابة.

وماذا عسى أن تكتب هذه السيدة الكبيرة التي إذا شاءت جعلت لها ثروتها كل شيء طوع إرادتها. وما هي المبادئ والأفكار التي تختلج في نفسها فتفضلها على ثروتها ولا تجد سعادة بدونها؟

آخر كتاباتها رواية غريبة رأينا أن نلخصها هنا لما فيها من الأفكار الغريبة الجديدة. وقد مُثلت هذه الرواية في العام الماضي في قصر مسز جورج كولد الغني المشهور.

الرواية بين تيوفيل وجبريلة. وكان تيوفيل من العلماء وقد أظهر ارتيابه في سرّ التثليث فاضطهدته الكنيسة. وكان يحب جبريلة حباً شديداً وجبريلة مشغوفة به أشد شغف، وكان يستمد منها قوته في مقاومة الاضطهاد فقال لها يوماً: لقد عرفتك منذ سنة وذلك حين دُعيت لأكون معلماً لك. وكنت قبل ذلك أسير في الأرض منفرداً وحدي بقلب بارد ودم فاتر،فأمرّ بأزهار الحدائق فأستملحها ولكني كنت أمسّها بيدي مسّاً وأذهب دون أن يلذّ لي أن أقطف شيئاً منها[1]. ثم رأيتك فرأيت أنك وردة باهرة بين تلك الأزهار. وأول ما عرفتك شغفت بقلبك المتقد الذي فتن قلبي. وجعلني حبّك أرتعد ارتعاداً. ومنذ ذلك الحين لم يبقَ في نفسي سوى أمرين، ولم يبقَ لي اهتمام إلا بحقيقتين وهما حبك وحب عملي. وسأحبك إلى الأبد لأنني بحاجة إلى أن تكوني بجانبي على الدوام. فأرضي بالاقتران بي أيتها العزيزة. أرضي بأن تكوني ملكي وامرأتي أمام جميع الناس. اقترني بي من أجلك ومن أجل طفلك الآتي. وذلك لكي تكفي نفسك غداً مرارة الألم حين ترين عينين صغيرتين مثل عينيّ تنظران إليك وتسألانك: أين أبي؟

[1] المعاني بين السطور كثيرة في هذه الرواية.

فتجيبه جبريلة: أما سمعت ما قاله القديس جيروم في الزواج؟ فإنه قال: "إنه ينبغي للرجل الحكيم أن لا يتزوج مطلقاً لأن الزوجة والفلسفة حمل ثقيل على الأكتاف البشرية"، فهل تظن الاتفاق ممكناً بين المغزل والكتاب؟ هل يمكن أن يجتمع سرير الطفل ومائدة الشغل؟ هل في العالم إنسان قادر على أن يجمع قواه العقلية ويحصرها في موضوع واحد بينما يسمع إلى جانبه صراخ طفل في سرير وصوت أم تنشد لينام؟ كلا فإن علمك وفلسفتك ينهدمان حينئذٍ وحبنا يسقط بجانب جثتهما المائتة. إننا بعد الزواج لا نستطيع أن نحلم كما نحلم الآن في عوالم مجهولة. وحبنا المطلق الآن لا يمكن أن يعيش طويلاً بين ليالٍ وأيام تمرّ على وتيرة واحدة وسط مشاغل الحياة اليومية الحقيرة.

فقال تيوفيل: اقترني بي من أجلنا ومن أجل طفلنا.

فأجابت جبريلة: من أجل تقدم العلم ورغبة في بقاء الحب بيننا لا أقترن بك. إنني أشدّ حباً لك من حبي لنفسي. ولا شيء يفصلني عنك ولكنني أخشى أن الحب يستغرق قواك ويضعف نشاطك. فلا تضع حاجزاً بين نفسي ودماغك الذي يستمد منها وحيه. إنني إذا اقترنت بك أصبحت كل يوم بجانبك لحماً ودماً فلا تعود تراني كما تراني الآن إلاهة تسكن في مخيلتك كما في أثير السماء.

ولكنها قبل أن تضع طفلها أقنعها تيوفيل بأن تذهب إلى قصره لوضعه فيه وللمعيشة معه. فقالت: إنني أذهب ولكن أذهب كحبيبتك لا كزوجتك. أذهب كزهرة أنت تحب حبسها في قلبك لتكون ملكك. إنني أمكث معك ما دمت محتاجاً إليّ. ولكني متى رأيت أنك صرت تعد الساعات بجانبي وتضجر من طولها فإنك لا تعود تراني بجانبك.

فسارت جبريلة مع تيوفيل إلى قصره فمكث معها عشرين يوماً. وبعد أن وضعت سار إلى باريز للاهتمام بمشاغله العلمية والفلسفية. فأقامت جبريلة مع طفلها تنتظر عودته عدة أشهر. ثم عاد إليها فعادا إلى الكلام في الحب وطبائعه، فوجدت جبريلة أن في تيوفيل شيئاً قد تغير فقالت له:أرى شيئاً قد تغير فيك وأشاهد خطاً يجعد جبهتك، فهل أضعت الحب ووجدت الفلسفة؟

فأجاب: لم أضع شيئاً.

فقالت: هل وجدت السعادة؟

فأجاب: لا توجد السعادة الحقيقية إلا في الملاذ العقلية.

ذلك أن تيوفيل أصبح بين قومه أول داعٍ إلى مبادئ العقل والحب العذري (بلاتونيك).

وبينما هما يتباحثان قدم أبو جبريلة وكان قد أعياه التفتيش عنها، فلما علم بأمرها غضب غضباً شديداً ورام الانتقام لشرفه. فقالت له جبريلة بهدوء وكبرياء: أحببته فأعطيته كل ما لدي. في الحب لا ذنب ولا جرم. هو لم يأخذ شيئاً ولكنني أنا أعطيته، فأنت تستطيع محاكمته قبل قتله ولكني حبي له يبقى أقوى من بغضك له.

ولكن أباها يرجو منها أن ترضى بالاقتران به اجتناباً للعار، فترضى على شرط أن لا يدري بذلك أحد غيرهما.

وفي الفصل الثالث وهو الأخير يُقضى على حب تيوفيل لأن العقل والعلم أماتا هذا الحب إذ لم يبقَ في نفسه موضع لغيرهما. فجاءته جبريلة وكان طفلها قد توفي لأنه لم يعش إلا بضعة أشهر وكانت قد تغيرت هي أيضاً. فإن كل ما كان

يوقد نار الحب فيها زال وتلاشى فأخذت تقول: ترى هل تعود مع الربيع أيامنا الأول؟ أيمكننا أن نقلب صفحة أخرى من صفحات الحياة العظمى؟ فقال لها تيوفيل إنها إذا كانت تحبه فعليها أن تدخل معه إلى دير قريب منهما، وهناك يعيشان معاً عيشة طاهرة أساسها الحب العذري الطاهر. وكانت جبريلة لا تزال تعتقد أن الحب والشباب قادران في كل حين على التمكن من الحياة والاستيلاء عليها... ففضلت سناء الطبيعة وصوت الإنسانية العظيم على سلام الدير وسكونه. فاتجهت إلى الباب وخرجت منه وهي تقول: إنني أؤمن بالطبيعة والخالق العظيم الذي خلقها. أؤمن بالحقيقة التي تدلنا على طريقنا في هذه الأرض. أؤمن بالموت الذي يدل العقل على أسرار اللانهاية، فوداعاً أيها الماضي. إنني أرى الشمس تسطع في طريقي فأسير في نورها وحدي مصغيةً إلى نشيد الطبيعة العظيم الذي يدوي في أذنيّ. الوداع يا تيوفيل. إنني أمشي منذ الآن وحدي في طريق الحياة العظمى وأسمع بأذنيّ حفيف أجنحة الحقيقة القوية وسط رياح الحرية الأبدية... ومعنى كل هذا بالكلام البسيط الخالي من إبهام الفصاحة: حبٌّ مطلق، حياة مطلقة. الحب حياة المرأة كلها.

هذه خاتمة رواية مسز كلارنس ماكي. وغريب أن تصدر هذه الأفكار المطلقة من كل قيد تقريباً عن وسط كثيراً ما فاخر الناس بأنه من أنصار المحافظة على المبادئ الأزلية العائلية القديمة.

العدد 12، السنة 2، أيلول 1906

مجلة السيدات والبنات

كيف تُحرر مواضيعها

عزيزتي كليمة

إساءة لمجلتنا يا عزيزتي. وأعني بها "مجلة السيدات والبنات" التي أعلم أنك لا تألين جهداً في مساعدتها ونشرها بين القارئات والقراء. وهذه الإساءة سببها سوء الظن. اسمعي ماذا جرى يا عزيزتي.

ذهبتُ أول أمس لزيارة صديقتنا هند. واتفق حين دخولي أن الزائرات كنّ يتكلمن عن الجزء الرابع الذي صدر في مساء ذلك اليوم فقطعن الحديث. فسألتهنّ لماذا قطعتنّ حديثكن؟ فأجابتني صديقتنا هند: كنا ننتظر واحدة قوية مثلك لتتولى رئاستنا وترشدنا في ما عزمنا عليه. فقلت لها خير إن شاء الله. فقالت اجلسي واسمعي... ثم أخذت صديقتنا هند تقصّ عليّ ما يلي فقالت:

أرى من الواجب أن نضع حدّاً لاعتداء الرجال واستخفافهم بنساء الشرق. فإن هذا الأمر بلغ حدّاً لم يعد من الصواب السكوت عنه. وإن قلتِ إن سبب هذا الاستخفاف ضعف نساء الشرق أجبتك كلا. إن السبب الأعظم هو ضعف أخلاق الرجال أنفسهم وتعوّدهم معاملة النساء معاملة القاصرين. ولو ارتفعوا قليلاً عن هذا الأمر وعاملوا النساء كما يعاملهن القوم المتمدنون لأصلحوا شؤونهم وشؤونهن معاً

في وقت واحد. فقلت هنا: ولكن ما الداعي الآن إلى هذه المقدمة كلها، هل جدّ شيء جديد؟

فأجابت هند: كنت منذ ساعة عند صديقتنا صاحبة المجلة وقد ضحكت كثيراً وأضحكتنا معها من مجموعة صغيرة وجدناها على مائدة هناك. وهذه المجموعة تحتوي على بضع رسائل وبضعة أقوال مطبوعة مقتطفة من بعض الصحافة "اثنتين أو ثلاث على الكثير" وقد جاء في بعضها عند صدور الجزء الأول من مجلة "السيدات والبنات" "أنها ستكون شقيقة للجامعة في طلاوتها وفوائدها..." وجاء في غيرها عند الكلام عن نساء الغرب الكاتبات "يظهر أن النساء هناك يحررن جرائدهن اسماً وفعلاً..."، "وبعضهم يقول لبعض مازحاً إن صاحبة المجلة مستريحة كما كانت رصيفاتها قبلها... فالمقصود من هذه التلميحات النحيفة كأذواق أصحابها الكرام مفهوم لا يحتاج إلى شرح. وهو دليل في بلادنا على أن من يبتدئ في خدمة نافعة يجب أن يُستهدف في أكثر الأحيان لتثبيط الهمم ووخز الإبر. فلا بأس. نحن لا نشكو من ذلك لمعرفتنا أخلاق البشر وطبائعهم. ولا نحتج عليه لأن احتجاجنا نحن النساء قلّما يؤثر في من لا يحترمنا. وإنما مرادنا أن نؤلف لجنة تكيل للرجال الكيل كيلين وتمنع تأثير هذا المزاح.

فقلت لها ضاحكة وأي تأثير لكلام يذهب في الهواء، لا ريب أن صديقتنا صاحبة المجلة قد كانت منتظرة مثل ذلك من محبي المزاح، ولذلك لا تستاء منه.

فأجابتني هند نعم هي لا تستاء منه لأنها لا تستاء من أحد ولكن هذا المزاح يثبط الهمة ويضعف العزم. والكلام بيني وبينك إنني سمعتها وأنا داخلة تقول لصاحب الجامعة شقيقها: بما أن من لا يعرفني يقول إنك أنت الذي تحرر

مجلة السيدات كما تحرر الجامعة فالأوفق أن نجعلهم صادقين وأتنازل أنا عما أجده من العناء في تدبير المواد وكتابتها.

قلت: فاستنار حينئذٍ فكري هنيهة أيتها العزيزة كليمة وذكرت حادثاً صغيراً حدث في إدارة الجامعة منذ مدة. فقد كنت هنالك مع صديق لمنشئ الجامعة من سوريا. وكان الصديق يقرأ على مقعد وصاحب الجامعة يصلح على مائدته بضع أوراق في يده. ولما فرغ من ذلك التفت إلى صديقه وقال: انظر هذه الأوراق قبل أن أدفعها إلى مرتبي الحروف. هذه "أصول" مجلة السيدات والبنات. وقد كتبتها صاحبتها بقلم رصاصي وأنا أمررت عليها الآن قلمي بحبر أحمر. فخذ وقلبها لتعلم مقدار التصرف الطفيف الذي يُتصرف بها. فتناولت أنا الأوراق الممدودة نحونا فوقعت يدي على صفحة نُشرت في الجزء الرابع عنوانها "الأطفال وتربيتهم الجسدية – الشهر الرابع" فما وجدتُ فيها سطراً محذوفاً ولا سطراً مضافاً وإنما هنا كلمة مغيرة وهناك كلمة محذوفة أو مضافة – ثم قال صاحب الجامعة:

إن صاحبة المجلة تتعب في تحرير مجلتها تعبي في تحرير الجامعة. ففي كل يوم تصرف أكثر أوقاتها في مطالعة الكتب والمجلات الإنكليزية والأميركية التي تردها. وقد طالعت في أسبوع واحد عشرين مجلة مختلفة تختار منها المجلات التي يجب أن تعتمد عليها. وفي أثناء مطالعتها هذه تضع علامات بقلم رصاص على أهم المواضيع التي تعثر عليها. ثم تأخذ أبواب المجلة باباً باباً وتشرع في الكتابة. وكلما فرغت من باب تناولت باباً، فلا يأتي العشرون من الشهر حتى تجتمع عندها مجموعة مقالات وفصول وشذرات وهي مواد الجزء القادم. فأتناولها منها قبل انتهاء الشهر ببضعة أيام وبعد أن أمر عليها القلم كما ترى أدفعها لمرتبي الحروف. فليس ثمت مجال لسوء الظن والمزاح الذي لا محل له في شأن

مثل هذا الشأن، لأنني لست من الذين يرضون الرياء لأنفسهم فكيف لأكرم الناس عليهم، ولا صاحبة المجلة تجيز لها نفسها أن ترضى بهذه المنزلة.

هذا أيتها العزيزة كليمة ما رأيت أن أكتبه إليك، وهو ما سميته إساءة للمجلة. وأي إساءة أعظم من أن ترى العاملة تعبها ذاهباً سدى لنسبته إلى غيرها فيخور عزمها بدل أن يقوى. ولست أقصد بكتابي هذا الاقتراح عليك بأن نعمل بما اقترحته عزيزتنا هند ونكيل الكيل كيلين فإن ذلك لا يليق. وإنما القصد أن نتلافى هذا الأمر ونمنع كل تأثير له على مجلتنا وذلك بتنشيط صاحبتها وتشجيعها بدل تثبيط الهمة وقطع العزيمة بنسبة ما تعمله إلى غيرها. فاقرأي أيتها العزيزة كتابي هذا لكل من يسألك عن هذا الموضوع. وإذا سمعتِ أحداً يقول بعد قراءته "ومع ذلك فإن المواد كلها تمرّ على قلم صاحب الجامعة قبل طبعها"، فأجيبي بهذه القصة الحقيقية: أن أقدم مجلة عربية للرجال أخبرت يوماً صديقاً لها أن كل المقالات والرسائل التي تُنشر فيها تُصلح وتُنقح قبل نشرها إلا مقالاته ورسائله. وهذا أمر عمومي تقريباً. فإذا كان الكتّاب من الرجال تُصلح كتاباتهم قبل أن تُنشر وقد مرّت عليهم سنوات وهم يمارسون الكتابة فلا عتب بعد ذلك على كتابات النساء.

صديقتك (سلمى)

العدد الخامس، آب 1903

عودة "مجلة السيدات"

إلى حضرات قارئات مجلة السيدات في مصر وخارج مصر

إذا طالعت القارئات الكريمات منشور "الجامعة" الملحق بهذا الجزء في آخره يقفن على سبب انقطاع "الجامعة" في السنة الماضية. وقد ذهبت "مجلة السيدات" في أثناء هذه الحدّة في تيار "الجامعة". فكم من مرة رامت صاحبة المجلة إعادة إصدارها وأنا أرجو منها أن تؤجل ذلك لسببين: الأول خوفي من غضب قراء "الجامعة" متى رأوا صدور "مجلة السيدات" وانقطاع مجلتهم. ولذلك قلت لها إنني لا أحرّك ساكناً في "مجلة السيدات" قبل أن تتحرك "الجامعة". والغرض الثاني هو أنني كنت مستاء من انقطاع "الجامعة" ولا عزيمة عندي ولا صبر على التفكير بغيره. أما الآن وقد تأهبت "الجامعة" إلى الظهور أشدّ عضداً وأرفع صوتاً مما كانت من قبل فإن "مجلة السيدات" تعود إلى قارئاتها الكريمات وقرائها الكرام أشد عضداً وأرفع صوتاً أيضاً.

فالذنب في انقطاع "مجلة السيدات" ذنبي أنا لا ذنب صاحبة المجلة، ولذلك وُجب عليّ الاعتذار من حضراتهن، ومن يستعذر السيدات لم يخب ظنّه في المعذرة.

وسيرى حضرات المشتركات والقارئات أن العراقيل التي كانت في وجه مجلتهم هي آخر عراقيل تحول بينها وبينهم. فقد رسخت قدم المجلة بعد الآن رسوخاً يدعو إلى طمأنينة قارئاتها وقرائها، ويمكننا من التفكير بزيادة تحسينها وتوسيع نطاقها لكي تجاري أفضل مجلات الرجال مادة. وآثار التحسين بادية في هذا الجزء من المقالات والفصول الرائقة المفيدة التي خطها بنان كاتب من أفضل كتاب العربية في هذا الزمان.

وربما يظنّ أنه بانتقالي من الإسكندرية إلى نيويورك، كما يعلم ذلك من المنشور الملحق بآخر هذا الجزء، قد خسرت "مجلة السيدات" بهذا الانتقال. والحقيقة أنها تربح بهذا الانتقال ولا تخسر. فإنها أولاً ربحت مساعدة الأخ الذي يقوم مقامي فيها ولذلك ازدادت قواها بانضمام كاتب فاضل من خيرة الكتّاب إليها. وثانياً أن قارئات المجلة وقراءها إذا استغنوا عني بمن لديهم في مصر، فأنا لا أستغني عن محادثتهم ومخاطبتهم إذ لا ألطف ولا أرق عندي من الكتابة لمجلة تقرأها خيرة السيدات المهذبات في مصر والشام. ولذلك سأوالي رسائلي إلى المجلة بلا انقطاع في كل جزء من أجزائها. وثالثاً أن انتقالي إلى أميركا يتيح لي فرصة نشر "مجلة السيدات" هناك فوق انتشارها الحالي، وبذلك قوة جديدة للمجلة سيشعر بها قارئاتها وقراؤها بما سندخله فيها من التحسينات الجديدة.

وإذا كان أحد يخسر في هذا الانتقال فهو أنا. ولست أريد بذلك أنني أفقد الوطن والأهل والخلان، فقد تكلمت عن خسارتي هذه بأسف وكآبة في المنشور الملحق بهذا الجزء. وإنما خسارتي التي أريد أن أشير إليها هنا في صدر "مجلة السيدات" هي فراق شقيقتي صاحبة المجلة.

إن بعض ذوي الصحف والألسنة المازحة الذين لا يعرفون صاحبة المجلة ضايقوها في المدة الماضية بإشارتهم تلميحاً أو تصريحاً إلى إنني أنا الذي أتولى تحرير المجلة برمّتها، وأن صاحبتها ليس لها شيء فيها غير الاسم كما كان ذلك لبعض من تقدمها من الكاتبات العربيات. وقد كانت هذه التهمة تؤلمها في بدء الأمر ثم تعودت عليها. فنعم أنا أساعد صاحبة المجلة في ترتيب المواد وتنقيحها وكتابة الفصول الموقعة بهذه العلامة (***) أي ثلاثة أنجم كما يعلم قارئات هذه المجلة. ولكن الذين يذكرون مساعدتي هذه لها لا يعلمون إنني مديون لها بمساعدة إن لم تكن أكثر منها فمثلها. فليعلموا الآن إنني لم أطبع سطراً حتى هذا اليوم في

"الجامعة" وكتبها إلا بعد أن اطلعت عليه ونظرت فيه. وكم من مرة في المناظرات الصعبة والمواقف النحيفة غيّرت عزمي من شيء إلى شيء؟ وأقرب مثال لذلك منشور "الجامعة" الذي في هذا الجزء. فإنني كتبت أولاً نصفه بطريقة غير هذه، فلما اطلعت على بعضه لم يعجبها ما جاء فيه فقالت: "لا ريب عندي في أنك ستغيّره"، فضحكت لبراعة هذا الطلب. وفي كل يوم كانت تقول لي لحضّي على تغييره:"لا ريب عندي في أنك ستغيّره". ففي ذات يوم كان دماغي صافياً ونفسي ساكنة فقرأت المنشور، فشعرت بأنها مصيبة في ملاحظتها. ولكن عزة نفسي ككاتب بقيت متمسكة به. ولكي أوفق بين اقتناعي الأخير وتلك العزة الكاذبة، اغتنمت مرّة ساعة استيائي من أمر وكان المنشور في يدي فمزقته بغضب. وبذلك اضطررت إلى كتابته مرة أخرى بخطة وأفكار لا أندم عليها في المستقبل. والآن أشعر أنني أحسنت في ما فعلت وأن الفضل في ذلك لها. وما برح هذا تأثير الجنس اللطيف علينا نحن معاشر الجنس الخشن.

هذه هي الخسارة التي خسرتها الآن وإن كانت وقتية. ولقد كانت تقول مازحة في كل فرصة: ليس "المراقب" في بيروت فقط بل هنا "مراقب" أيضاً. فـ"الجامعة" الآن انتقلت إلى نيويورك دون مراقبها. فعسى أن لا تكون خسارتها هذه مما يشعر به قراؤها.

ثم أني أذكر خسارة أخرى. إنني لا أنسى أبداً في كل حياتي لطف معاملات مشتركات المجلة. فإن جميع رسائلهن إلى المجلة كانت تمرّ في يدي، فأقرأ فيها آثار الرقة واللطف وأقلب نظري باسماً مسروراً بين عواطفهن وأفكارهن اللذيذة. وألطف وأوقع من هذا عندي كان زيارتهن للإدارة ليدفعن قيمة الاشتراك في المجلة ومباحثاتهن في مواضيعها. لا ريب في أن لهذه الصناعة التي نشتغل بها مآزق ومصاعب أكثر من كل صناعة أخرى. ولكن لها أيضاً في مقابلة ذلك من

عنايـة ووداد النـاس، وخصوصـاً الجـنس اللطيـف، مـا يسـر ويعـزي أكثـر مـن كـل صناعة غيرها.

والآن أودع حضـرات القارئـات والقـراء، وستصـلهم أول رسـالة لـي مـن نيويورك بعد انقضاء شهر وعشرة أيام على تاريخ هذه الرسالة.

فرح أنطون

صاحبة مجلة "الجامعة"

الإسكندرية 20 أبريل 1906

العدد 7، السنة 2، أيار 1906

انتقال "الجامعة" إلى نيويورك

(بقاء إدارة لها في القطر المصري)

***

كتاب مطبوع من صاحب مجلة "الجامعة"
إلى حضرات مشتركيها وقرائها في مصر وخارج مصر
الإسكندرية في ابريل سنة 1906

***

إلى حضرات مشتركي "الجامعة" وقرائها في مصر وخارج مصر
حضرة الأفاضل قارئي ومشتركي مجلة "الجامعة"

تعود مجلة "الجامعة" إلى الظهور بعد مرور أربعين يوماً على وصول هذا الكتاب إليكم.

ولكنها تظهر في "نيويورك" من أعمال جمهورية الولايات المتحدة لا في الإسكندرية.

ولا ريب أن هذا الانتقال من الإسكندرية إلى نيويورك يوجب الدهشة لدى كثيرين من قرائها، خصوصاً الذين سمعوا بخبر انتقالها من الثغر الإسكندري إلى العاصمة واستئجارها مكتباً فيها لإعادة إصدارها. وبما إننا مديونون لقرائنا في مصر على الخصوص ببيان انتقال "الجامعة" من بينهم فقد وجب علينا أن نذكر لهم السبب الذي أثنى عزمنا عن الانتقال إلى العاصمة بعد استئجار مكتب فيها.

سبب نوم "الجامعة" السنة الماضية

ولكن قبل ذكرنا سبب هذا الانتقال لا بدّ من أن يطالبنا مشتركوها بسبب نومها هذا النوم الطويل في السنة الماضية. فنحن نرجو منهم أن يعفونا من ذكر هذا السبب لأن ذكره يؤلمنا ويؤلم غيرنا. يؤلمنا لأنه يذكّرنا تعطيل الأشغال وخسارة الوقت والمال بالانتظار، واستهداف "الجامعة" لاستياء قرائها ومريديها وسوء ظنهم بها. ويؤلم غيرنا لأن الكلام في ذلك يجرّ إلى الكلام في مسائل خصوصية في جملتها مسائل عائلية لا علاقة لها بالمسائل العمومية خصوصاً إذا كان فيها ما يسوء أناساً نكره إساءتهم وإن أساؤوا إلينا. و"الجامعة" ليس من عادتها أن تطرح المسائل الخصوصية مطرح المسائل العمومية لتجعلها منها. كما أنه ليس من شأنها التذمر والشكوى مهما أصابها، فإنه متى وقع الإنسان في حبائل كهذه الحبائل ولم يحسن التملص والتفلّت منها دون أن يترك ريشه فيها فليس له أن يلوم أحداً غير نفسه لأن سلامة النية والثقة ليست عذراً كافياً له إذ هي مما يجب أن يصحب كما يقولون أهل الأديرة والصوامع لا أهل الأشغال والمنافع. ولذلك لا نحاول تبرئة نفسنا من ذنب القصور في حق "الجامعة"وحق قرائها في السنة الماضية ونتحمّل هذا الذنب وحدنا دون أن نحمّل أصحابه شيئاً منه أونعطي نفسنا حق الشكوى من أحد. أما خسارة الوقت والمال وتعطيل الأشغال فعلى الله التعويض في كل حال... (ماعليش) كما يقول إخواننا المصريون.

سبب الانتقال إلى نيويورك

وبعد هذا البيان الوجيز ننتقل إلى ذكر سبب خروج "الجامعة" من مصر.

من حين أصدرنا "الجامعة" رأينا الصعوبة الكلية في تدبير جميع أعمالها منفردين بها وحدنا. وكل يعلم أن أهم أعمال المجلة أو الجريدة خمسة فروع:

"تأليفها"، "مراقبة طبعها وترتيبها"، "مراسلاتها"، "ضبط حساباتها واشتراكاتها"، "السعي في نشرها". وإذا كانت المجلة واسعة النطاق، فكل فرع من هذه الفروع يقتضي عاملاً مستقلاً بذاته. فلما رأينا صعوبة الانفراد بهذه الأعمال وحدنا، وسّعنا الإدارة لتوزيعها على أيدٍ عديدة تعمل فيها بضبط وأنشأنا مطبعة. غير أن فرارنا من صعوبة أوقعنا في صعوبة أخرى، فوجدنا أن عملنا في المطبعة يستغرق معظم الوقت ويحول دون الاشتغال بإنشاء المجلة خصوصاً إذا كان هذا الإنشاء تأليفاً وشغلاً جدياً يقتضي التمحيص والتحقيق. وفي كل شهر كنا نقول إننا سنعيد المجلة في الشهر التالي فيمتنع علينا ذلك لأن المطبعة كانت تستغرق كل الدخل والوقت. فعزمنا حينئذٍ على تصفية أشغال المطبعة والتخلص منها للعودة إلى "الجامعة" ما دام رأس المال لا يساعد على الجمع بين الاثنين. فقصدنا العاصمة واستأجرنا مكتباً فيها للانتقال إليها لشغل آخر غير شغل "الجامعة"، ثم عدنا إلى الإسكندرية للشروع في الانتقال. فحين عودتنا من العاصمة وجدنا في البريد كتاباً من نيويورك. وهذا الكتاب هو الذي أقنعنا بالانتقال إلى جمهورية الولايات المتحدة.

كان هذا الكتاب من رفيق الطفولة والصبى ابن عمنا إلياس أفندي أنطون التاجر في نيويورك. وقد أسهب في أكثر من 15 صحيفة في تشويقنا إلى نقل الجامعة إلى نيويورك وإثنائنا عن الانتقال إلى العاصمة. وذكر فيه استعداد كرام المهاجرين إلى الأخذ بناصر "الجامعة" والسعي في نشرها أوسع نشر في دار هجرتهم فوق انتشارها الحالي في سائر الأقطار التي يتكلم أهلها اللغة العربية. ورغبة في إزالة كل تردّد واعتراض عندي على هذا الانتقال، ذكر بكل صراحة أنه يرضى بضم شغلي الصحافي إلى شغله التجاري فنكون شريكين مناصفةً في كليهما إذا كان هذا يقنعني بالانتقال. والحقيقة أن هذا القول هو الذي أزال كل اعتراض عندي على الخروج من مصر. فإن السفر إلى أميركا للاشتغال بالصحافة فقط أمر يجد الكاتب نفسه في غنى عنه خصوصاً إذا كان يقيم في مصر البلد

المتوسط بين البلدان العربية. ولكن ضم شغل تجاري إلى شغل صحافي جدير بأن يزيل من ذهن الكاتب كل تردد في السفر خصوصاً الكاتب الذي اختبر ضيق رزق صناعة القلم في الشرق، وبالأخص متى كان المحل المدعو إلى الدخول في شركته محلاً يتولاه منذ عشر سنوات النشاط والنجاح وحسن التدبير. ولا ريب أن "الجامعة" ستستفيد من إدارتها الجديدة ما ينميها نمواً حسناً ويرضي قراءها.

مسرّة وكآبة

بقاء إدارة لـ "الجامعة" في القطر المصري

هذا ما أردنا بسطه هنا اطلاعاً لمشتركي "الجامعة" في مصر على السبب الذي أوجب فراقنا لهم وتطميناً لهم عن مستقبل "الجامعة". ونحن نكتب هنا كلمة "الفراق" ويتنازعنا عاملان: عامل مسرّة وعامل كآبة.

أما الكآبة فهي لتركي بلادنا الشرقية العزيزة التي نشأت فيها، أخصّ منها سوريا ومصر – سوريا التي رأيت فيها أحسن أيام صباي. ومصر التي رأيت فيها أحسن أيام شبابي. ولكن مما يخفف هذه الكآبة عندي عزمي على إبقاء الصلات بين "الجامعة" ومشتركيها من أهل الفضل والأدب في مصر وسوريا كما كانت حين كانت إدارتها في مصر. ومن أجل هذا أبقيت لها إدارة في القطر المصري، فكأن مركز "الجامعة" في مصر لم يتغير لأن إدارتها فيها ما زالت إدارتها. وجميع مشتركيها ومراسليها في مصر يمكنهم مراسلتها ويرسل إليهم الردّ على رسائلهم ويجابون إلى طلباتهم بعد انقضاء يوم من وصولها. فلا يكون ثمّة فرق بين الماضي والمستقبل سوى أن "الجامعة" كانت تطبع في (الإسكندرية) فأصبحت تطبع في (نيويورك). وإن كان هناك صعوبة أو ألم فهما في جانب صاحب "الجامعة" الذي رحل عن بلاد يحبها وفارق في وطنه الذين لقي من أهل الفضل والأدب فيهم فوق ما يستحق من العناية والوداد.

هذا عامل الكآبة. أما عامل المسرّة فهو لانتقال صاحب "الجامعة" من وسط صغير إلى وسط كبير. فإننا في الشرق، في سوريا ومصر وغيرهما، إنما نحن في بلاد صغيرة ضعيفة لم تبلغ المدنية فيهما بعد مبلغاً تستحق معه أن تتخذ أستاذاً لأهل العلم والأدب. ولذلك نحن مضطرون على الدوام إلى تحدي

الأوروبيين والأميركيين والنظر إلى آثارهم العلمية والأدبية والاجتماعية نظر التلميذ إلى آثار أستاذه. فـ"الجامعة" يسرها أن تذهب بنفسها إلى وسط المدينة الراقية وتغترف من منبع النهر العظيم هناك بدل أن تنتظر وصول مياهه الجارية إلى هنا. فإن نيويورك لا تفضلها اليوم عاصمة من عواصم العالم المتمدن غير لندن. فهي ثانية عواصم الدنيا. ومستقبلها سيكون في قول بعضهم أعظم مستقبل لأعظم مدينة في العالم.

لقد أقمنا في سوريا عدة سنوات راقبنا فيها أحوال بلاد شرقية تحكم نفسها بنفسها (إن صح أن يقال هذا)، فاختبرنا ما يؤثره الضعف والعسف والإهمال في أحوال البلاد والعباد من خمود الهمم وتدلي الأمم. ثم انتقلنا إلى مصر وشاهدنا فيها تلك المدينة الشرقية المهمِلة المهمَلة تنفض عنها غبار الضعف والعسف والإهمال والكسل وتتردى رداء المدنية الغربية رداء النشاط والعدل والأمن والعمل. وقد اختبرنا في مصر هذا الاختلاط بين "الشرقي والغربي" تمزجه يد غربية، ورأينا آثاره في الإصلاح والفساد في الخير والشر فإذا هي عظيمة في الأمرين. إلا أن عظمة الإصلاح هذه لم يستفد منها أهل البلاد ربع ما استفاده منها الأجانب. ولذلك كان نصيب أهل البلاد من شر المدنية الجديدة أوفر من نصيبهم من خيرها. والويل كل الويل للأمة التي تختلّ فيها الموازنة بين الخير والشر إلى هذا الحد – فبعد اختبارنا آثار مدنية "شرقية محضة" في سوريا وآثار مدنية "شرقية غربية" في مصر، يسرنا أن نختبر حالة ثالثة هي خير الحالات. ونعني حالة مدنية راقية قائمة بذاتها تسنّ شرائعها لنفسها بنفسها وتطبقها على حاجاتها. وفي ظلّ هذه الشرائع الحرة السهلة العادلة تعمل في العلم والصناعة والتجارة والزراعة والسياسة أعمالاً تحسدها عليها سائر الأمم حتى أوروبا نفسها. فمعيشة مجلة عربية (كـ"الجامعة") في جمهورية الولايات المتحدة بين كلياتها ومكاتبها وجمعياتها

ومتاحفها ومصانعها ومزارعها ومجلاتها وجرائدها، مما يوجب لها المسرّة والارتياح لأنه سيؤثر عليها أنفع تأثير بما تدرسه وتنشره من آثار ذلك الوسط العظيم.

المهاجرون و"الجامعة"

وما عدا هذا فهناك سبب آخر يوجب لها المسرّة أكثر من السبب الذي تقدم. وهو ارتياحها إلى الظهور بين إخواننا المهاجرين في أميركا الشمالية والجنوبية نخصّ منهم مهاجري الولايات المتحدة الذين نستودعهم "الجامعة" كما يستودع الكريم الكريم أكرم شيء عنده. ولولا ما تحققناه من سرور إخواننا المهاجرين في الولايات المتحدة بانتقال "الجامعة" إليهم وابلاغهم هذا السرور إلينا بكل طرق الابلاغ لما نهضت بنا الهمة إلى قطع الأوقيانوس إليهم. و"الجامعة" تعطيهم عهداً على نفسها أن لا تألو جهداً في خدمتهم هناك الخدمة التي يرتاحون إليها ويرون فائدة فيها أسوة برصيفاتها التي تنشر في أميركا الشمالية والجنوبية.

على أن سرورنا من تنشيط المهاجرين إلى أميركا لـ"الجامعة" ليس بحديث العهد ولا نحن نقول ما نقوله هنا تزلفاً إليهم، فإن تنشيطهم لها يبدأ من عدة سنوات. ولما قامت القيامة على "الجامعة" منذ سنتين بسبب المناظرة التي وقعت بشأن "ابن رشد وفلسفته" مع العلامة المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية السابق، قلنا ذات يوم لمن كان يثبط عزمنا من إتمام هذه المناظرة ما خلاصته: هب أن مصر وسوريا وتونس والجزائر والهند وإيران أقفلت في وجه "الجامعة" ولم يبقَ بلد مفتوحاً في وجهها غير أميركا وحدها، فإن مشتركيها في أميركا يكفون للقيام بنفقات صدورها نخص منهم مشتركي البرازيل والولايات المتحدة. فإن مشتركيها في هذين القطرين يبلغون نحو 500 مشترك يجمع منهم ما يكفي طبع المجلة وبريدها. وقد قدرت جريدة "الصواب" في ريو دي جانيرو مشتركي "الجامعة" في البرازيل بثلاثمائة مشترك حولهم ألوف من القراء، وتقديرها

هذا قريب من الحقيقة. ولسنا نذكر ما اقترحه على "الجامعة" منذ سنوات إخواننا المهاجرون في البرازيل بواسطة وكيلنا في سان باولو من إهدائهم إليها مطبعة تامة الأدوات بمبلغ 400 جنيه تجمع منهم على سبيل التذكار بمناسبة المناظرة في "ابن رشد وفلسفته"، ولا الحمية الخارقة العادة التي أظهرها مشتركونا الكرام هناك في تنشيط المجلة ومساعدتها وشرب بعضهم "سرها" (نخبها) في القهاوي والحانات وجعلها موضوع حديثهم حتى لدى الشعب الغير المتعلم. فإن ذكر هذه الأمور لا يليق بمجلة كـ"الجامعة" تعرف عجزها وضعفها وكونها لا تزال في أول نشأتها، فضلاً عن أنه يزيد التبعة التي علينا في إهمالنا مجلة نزلت لدى الجمهور هذه المنزلة. ولكننا ذكرنا ما تقدم للدلالة على ما بين المهاجرين و"الجامعة" من صلات الوداد والعواطف. ومنذ 3 سنوات قام بين إدارة الجامعة ومصلحة البريد المصري خلاف صغير بشأن الأجزاء التي ترسل إلى أميركا. فلما رأى مدير البوسطة سعادتلو سابا باشا عدد هذه الأجزاء قال لنا مستغرباً: "أإلى هذا الحد بلغ هناك إقبال المهاجرين على العلم والأدب؟" وليس إصدار 500 نسخة من مجلة إلى قطر بعيد كأميركا مما يحق لتلك المجلة أن تفتخر به فإن 500 مشترك ليس بشيء يذكر في عمر مجلة. ولكننا ذكرنا هذا استطراداً إلى القول بأن "الجامعة" أصبحت "مجلتهم" وباتت تصدر بينهم وتستمد قوتها منهم وتشعر بحاجاتهم وتنطق بلسانهم. لا ريب أن اعتقادنا هذا الاعتقاد لهو سبب من أهم الأسباب التي أقنعتنا بالانتقال إلى الأقطار الأميركية. وفي يقيننا أن ظننا لا يخيب لأن مئات ألوف المهاجرين الذين يقومون بأكثر من خمس عشرة جريدة عربية تنشر في أميركا الجنوبية والشمالية يسرّهم على ما نظن أن يكون بينهم مجلة كـ"الجامعة" تساعد رصيفاتها هناك في الخدمة النافعة.

إلى الملتقى

والآن نقول لقرائنا في مصر والشام وباقي الأقطار الشرقية التي تصل إليها "الجامعة":"إلى الملتقى قريباً". فإن القارئ الكريم يقرأ هذا المنشور ونحن على أجنحة البخار بين السماء والماء نقصد العام الجديد. وفي أقرب وقت ستصلهم "الجامعة" في حلّتها الجديدة وحالتها الجديدة عائدة بشوق وحنين إلى الشرق الذي كانت تصدر عنه.

لقد ضحينا في سبيل "الجامعة" حتى الآن كل شيء، فقد صرفنا 10 سنوات في الاستعداد لها و6 سنوات في الاشتغال بها فأنفقنا عليها من المال والوقت والتعب ما لو أنفقنا نصفه في أي عمل كان لعاد علينا بألوف الأموال. وحسب القارئ أن يعلم أن كتاباً واحداً من كتب "الجامعة" ككتاب "ابن رشد" أنفقنا على طبعه في 4000 نسخة 85 جنيهاً والآن نفد كله. وكذلك "أورشليم الجديدة". وأنني رأيت في بعض الليالي الفجر يطلع عليّ وأنا وراء مائدة العمل أسمع زقزقة العصافير بعد راحتها في الليل دون أن أحسدها على راحتها لأنني كنت ملتذاً بتعبي مسروراً بنتيجته. ولسنا نجهل أن الضحايا التي قدمناها لـ"ألجامعة" في السنوات الماضية والقوى التي أنفقناها فيها أعظم كثيراً من النتيجة التي ترجى منها. وأن الدنيا لا تخرب إذا أبطلناها قطعياً. ولكنا رأينا من الخرق في الرأي ترك صناعة صرفنا كل العمر في درسها واختبارها للشروع في صناعة جديدة لا سيما وأننا كنا راضين كل الرضى عن صناعتنا مسرورين بنتيجتها قبل أن تركنا الضرر بثقة عمياء يقع علينا. والضحية الجديدة التي أقدمها الآن لـ"الجامعة" فوق الضحايا القديمة هي تركي الأهل والوطن والخلان والابتعاد عن بلادنا العزيزة. ولكني أظن أن هذا البعد سيكون وقتياً. لأن أقصى أماني رجل بأخلاق مضرة بصاحبها أحياناً كأخلاقي هي أن يجمع من عمله في الحياة شيئاً يجعل منه لنفسه دخلاً صغيراً

ليعيش بـه فـي آخـر عمـره فـي الخـلاء والفضـاء بمعزل عـن عـدوان الكبـار وغـدر الصـغار. ولسـت أجـد(أنـا الشـرقي قلبـاً ونفسـاً) مكانـاً لهـذا الأمـر أفضـل مـن جبـال لبنـان أو أطـراف السـودان حيـث الإنسـان يسـتطيع أن يعيش بهـدوء وبسـاطة وصـحة في النفس والبدن معيشة الفلاحة والزراعة التي هي أنفع له وللناس الذين حولـه من كـل المجـلات والكتـب والأوراق – ولـذلك أقـول الآن لبلادنـا مصـر والشـام "إلـى الملتقى" ولا أقول لها "الوداع".

العدد 7، السنة 2، أيار 1906

الفهرس

. أ .

إبن رشد، 7، 15، 16، 17، 35، 42، 259، 260، 261
أرسطو، 48
إسحاق، أديب 82
أفلاطون، 48
أمين، قاسم 10، 11
أنطون، إلياس 255
أنطون، روز 5، 7، 13، 15، 17، 19، 20، 21، 22، 24، 29، 30، 31، 34

. ب .

بالبي، 45، 55
برنار، ساره 171
بريفو، مارسيل 85

. ت .

تان، 61
تشمبرلن، 75
تقلا، بشارة 33، 76

تقلا، سليم 33، 76
تولستوي، 68، 151، 152، 153، 154، 158، 159، 182، 184، 191
. ج .
جبران، جبران خليل 20، 21
جمعة، محمد لطفي 36، 49
جوت، (غوته) 85، 86
. ح .
حتي، فيليب 20، 21
الحداد، نقولا 5، 7، 19، 20، 28، 29، 34
. د .
دي سان بيير، برناردين 88، 92
دي وارنز، مدام 44
. ر .
رضا، محمد رشيد 16
روتشيلد، 70
روسو، جان جاك 8، 13، 44، 48
رياض باشا 63، 74، 75، 77
ريناخ، 71، 72
رينان، أرنست 42
. ز .
زيدان، جرجي 11، 33
. س .
سابا باشا 260

ساردو، فيكتور 171، 172، 175، 176
سبنسر 68
سعاده، أنطون 20، 34
سعاده، خليل 11، 20
سعادة، رفّول 151
سيمون، جول 8، 13، 14، 27، 87، 203، 219

. ش .

شارم، غبريل 82
شكور باشا 73، 76، 77
شلمبرغر، 27
الشميل، شبلي 11
شوقي، أحمد 93، 94، 100، 101، 102، 234
شوقي، أمينة 93، 95، 99
شوقي، علي 93، 94، 101
شيمي، إسماعيل 64

. ص .

صروف، يعقوب 10، 33، 91
صوايا، نجيب أنطون 19

. ض .

ضومط، جبر 50، 65

. ع .

عالي باشا 81
عبد الحميد، السلطان 19

عبده، محمد 7، 11، 17، 31، 35، 42، 48، 259
عبود، مارون 12، 13، 33، 34
العقاد، عباس محمود 36، 37

. غ .
غوركي، مكسيم 27، 196، 198، 199
. ف .
فريد، محمد 46
فلسطين، وديع 18، 34
فؤاد باشا 81
. ك .
كارليل، 67
كامل، مصطفى 11
كرنيجي 70
كرومر، اللورد 27
كولد، جورج 241
. ل .
لاروميه، غوستاف 55
. م .
ماكي، جون 240، 244
ماكي، كلارنس 240، 244
مانيو، 236، 237، 239
محمد رشاد، السلطان 19
محمد علي باشا 64
مدحت باشا 19، 81
المعري، 94

موسى، سلامة 10، 11، 12، 32

. ن .

نيتشه، فردريك 43، 46، 48

. هـ .

هرفيو، بول 235، 236، 238

هيغو، فيكتور 93

. ي .

يواكيم، فارس 37

المحتويات

شكر وتنويه 5

المقدمة 7

تمهيد 35

كلمة الوداع الأخير 39

مسائل فكرية 51

المدارس التي نحتاج إليها..... 59

أدب 85

النساء المظلومات 103

القصص الشهريّة.....131

مسائل اجتماعية 203

مجلة السيدات والبنات 245

الفهرس 263